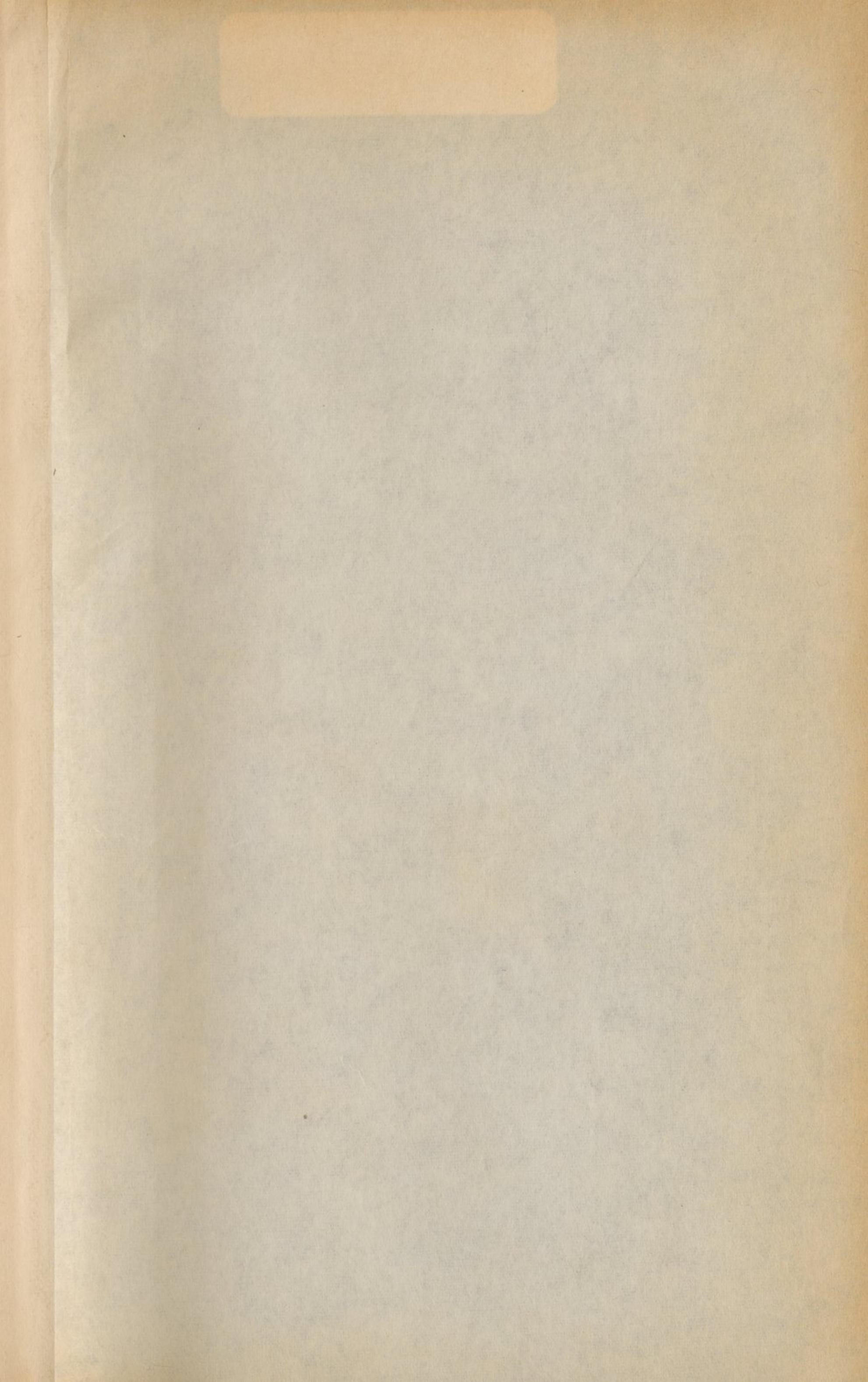
مطبوعات المركز العام
للاخوان المسلمين
بالقاهرة

الرسالة المحمدية

وهى ثمانى محاضرات فى السيرة النبوية ورسالة الاسلام

السيد سليمان الندوى





مطبوعات المركز العام
للإخوان المسلمين
بالقاهرة

al-Risālah al-Muḥammadiyah

الرسالة المحمدية

وهى ثمانى محاضرات فى السيرة النبوية ورسالة الاسلام

ألقاها فى جامعة مدراس بالهند

Nadvi, Syed Sulaiman

السيد سليمان الندوى

كبير علماء مسلمى القارة الهندية فى هذا العصر

القاهرة

١٣٧٢

المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح بجزيرة الروضة * القاهرة

نقلها من اللغـــة الاوردية

محمد ناظم النَّدْوِى

مدير الجامعة العباسية فى بهاولبور

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمد رسول الله الى الخلق، برسالة الخير والحقّ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بحمل أعباء رسالته الى يوم الدّين

وبعدُ فان الأخوّةَ التى عقدها الاسلامُ بين أهله من أعظم ينابيع القوّة للحقّ وأوليائه. والخطوات الأولى لتحقيق هذه الأخوة التعارفُ ثم التعاون. وقد كان كابوس الاستعمار – الذى جثم به طغيانُ الغرب على صدر الشرق مدّةَ غفلته عن مصادر قوّته – قد أقام الحدودَ والسدودَ والقيودَ ليحول بين المسلمين وبين أن يتعارفوا فيتعاونوا فيتمكنوا من تجديد أواصر الأخوّة الاسلامية بينهم. فلما أراد الله بالمسلمين خيراً، وكان سبيلُ المسلمين الى أن يزيلوا ذلك الكابوسَ عن صدورهم بتجديد قواهم أطولَ من أن يصبروا إلى أن يبلغوا نهاياته، فقد يسّر سبحانه لهم طريقاً آخر أقصر، وهو أن يجعل بأسَ المستعمرين بينهم، فيحققَ زوالَ ذلك الكابوس بإضعاف الطغاة الذين تحكموا فى الأرض وسلبوا أهلها حريّتهم وإنسانيتهم. وإن الحربين العالميتين الأولى والثانية قد شلت كل منهما من قوى الغرب ما مهّد الله به السبيل إلى قيام دولتين إسلاميتين عظيمتين فى الشرق الاسلامى، وهما دولة پاكستان ودولة إندينوسيا، كما أقام للعروبة فى مهدها وفى أوطانها حكومات لم تكن من قبل. وإذا أحسن المسلمون شكرهم لله على هذه النعمة بحسن استعمالها، واذا قام فيهم العاملون على إرجاع شعوب الاسلام إلى ربها بعد أن نسيت مكانها منه،

يوشكُ أن يعود إلى الشرق الاسلامي ما فقده من قوّته وحيويته وعظمته وطاعته لله باقامة الحق والنهوض من مزالق الباطل

ومن أعـــلام الشرق الاسلامي الذين جعلهم الله فى عصرنا من ورثة الانبياء فى مهمتهم والعمل برسالتهم علاّمةُ مسلمى الهند وشيخ علمائها مولانا السيد سليمان الندْوِيّ بارك الله للمسلمين فى حياته ووفقهم للانتفاع بعلمه .

وقد رأى وفد الاخوان المسلمين الذى شهد مؤتمر الشعوب الاسلامية فى كراتشى فى شهر شعبان من العام الماضى أنَّ من وسائل توثيق الأخوّة الاسلامية وتحقيق التعارف الاسلامي والتعاون بين المسلمين على الخير أن تُلقَّحَ ألبابُ الشباب فى كل أمة إسلامية بعلوم الأئمة الأعلام فى الأمم الشقيقة الأخرى ، لتتحطم بذلك تلك الحدود والسدود والقيود ، ويتتلمذ الشباب الاسلامي كله على اختلاف أوطانه وأممه ، لأئمة المسلمين كلهم على اختلاف أوطانهم وأممهم .

وبدافع من هذه العقيدة التمس وفد الاخوان المسلمين فى ذلك المؤتمر من أستاذنا العلامة السيد سليمان الندْوى أن يأذن له بنشر ما يختاره من مؤلفاته بين الناطقين بالضاد من شباب المسلمين ، فاستجاب حفظه الله لهذه الرغبة وقدم له هـذا الكتاب النفيس الذى يمتاز على كل ما نشر بالعربية من الكتب العصرية فى السيرة المحمدية بمـا تعرَّض له من مقارنات وملاحظات وتوجيهات قد نبخسها حقها إذا حاولنا التعريف بها فى هذه المقدمة ، فنترك ذلك للقارئ ، فانه سيجد من هذا الخير أضعافَ ما نستطيع الاشارة اليه هنا لو أردنا ذلك

وهذه البحوث التى استعرضها السيد سليمان الندوى فى هـذا الكتاب ألقاها فى ثمانى محاضرات على جماهير من شباب المسلمين والطلبة الجامعيين

منهم ومن غيرهم . وكان سبب إلقائها أن جامعة مِدْراس كانت قد أباحت لبعض أحبار المسيحية من الامريكيين وغيرهم إلقاء محاضرات فى البحوث التى وقفوا حياتهم عليها ، فأراد بعض مسلمى مدراس أن يساهم المسلمون أيضاً فى مثل هذا من الناحية التى يؤمنون بها ويرجون تعميم خيرها . فدعوا استاذنا لالقاء هذه المحاضرات ، وكان لها وقع عظيم فى النفوس . والسيد سليمان الندوى مع سعة علمه ، ومشاركته فى أهم المعارف البشرية ، ومعرفته بلغات متعددة ، ومنها العربية ، فانه معدود من أئمة البلاغة باللغة الأوردية التى هى « من أوسع اللغات الهندية نطاقا ، وأوفرها ثروة ، وأعذبها بيانا ، وأقربها الى العربية صوتا وخطا ، وهى تسامى أرقى اللغات العالميـة » كما يقول الاستاذ الفاضل السيد محمد ناظم الندوى رئيس الجامعة العباسية ومترجم هذه المحاضرات النفيسة بالعربية . ونحن بتقديمنا هذا الكتاب من مؤلفات كبير علماء مسلمى الهند الى قراء العربية من مسلمى مصر وغيرهم ، نحاول أن نساهم فى تحقيق أخوّة الاسلام التى أرادها الله للمسلمين ، وذلك بأن يتذوّق شبابنا حلاوة الحكمة من لسان هذا العلامة الحكيم ، وأن ينتقل قارئنا بروحه الى المجمع المبارك الذى ألقى فيه السيد سليمان الندوى هذه المحاضرات ، فيتصوّر أنه كان من شهود إلقائها ، وأنه يستمع إلى ما جاء فيها من حقائق كأنه صادر من صوت هذا الامام الجليل ، ليكون لنا كما هو لاخواننا مسلمى القارّة الهندية ، ونكون نحن معهم لأن الله ربط بيننا وبينهم آصرة الأخوّة بالرسالة المحمدية ، رسالة الانسانية العليا . ومن الله نستمد العون

دار الفتح
بجزيرة الروضة * بالقاهرة
١٢ ربيع الأول ١٣٧٢

محب الدين الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصنف

هذه ثمانى خطب فى ثمانى نواحٍ من السيرة النبوية ، على صاحبها الصلاة والتحية ، ألقيتها سنة ١٣٤٤ باللغة الأوردية - لغة عامة الهند - على جماعات من شباب المسلمين وطلبة الكليات فى مدينة مدارس بالهند ، فاستمع لها الحاضرون بآذان صاغية ، وتلقاها المستمعون بقلوب واعية ، وقرّظتها الصحف والمجلات بكلمات مشجعة ، وامتدحها أهل الفضل بالثناء والإطراء ، جزاهم الله خيرا . وكان ذلك مما شجعنى على طبعها ونشرها ، فطبعت ونشرت مرات ، وأدخلت فى مناهج التعليم فى بعض الولايات . ثم نقلها بعض المترجمين الى الانكليزية فعمّ نفعها . وقد أحببتُ أن أنقلها الى العربية لتردّ البضاعة إلى أهلها ، فلم يتيسّر لى ذلك لكثرة المشاغل . فرغبتُ الى بعض أصحابى أن يكفونى مئونة النقل ، فاستجاب لذلك الأخ الصالح الأديب الفاضل محمد ناظم الندْوى استاذ اللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء سابقا وشيخ الجامعة العباسية فى بهاولپور الآن ، فأتمّ ذلك فى عدة أشهر من سنة ١٣٦٦ وحالت دون طبعها حوادث سياسية حدثت بالهند . فلما سكنت الزعازع ، وأتيح لى الاتصال ببعض الاخوان من الاخوان المسلمين ، سألونى أن أقدم اليهم بعض مؤلفاتى لتنشر على أبناء العربية بمصر ، فلبيتُ دعوتهم ، وأهديت اليهم هذه الخطب لتكون مقدمة لأخواتها . وأسأل الله تعالى أن ينفع بها شباب المسلمين ، ويجعلها وسيلة لى يوم الدين .

كراتشى (عاصمة پاكستان)
٢٠ شعبان ١٣٧١ (١٤ مايو ١٩٥٢)

المخلص الداعى
سليمان الندوى

المحاضرة الأولى

فى أن سيرة الأنبياء عليهم السلام

هى الأسوة الحسنة للبشر

هذا العالم — وإذا سميناه « المتحف الأعظم » لم نعدُ الحقّ ، ولم نرتكب الشطط — يحتوى على أنواع من المخلوقات : ففيه ما شئت من جماد بديع الألوان ، غريب الهيئات . وما يقع عليه نظرك من نبات بين أخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، إلى غير ذلك من شتى الألوان . وفيه ما يخطر أو لا يخطر على بالك من حيوان لو حاول أحدنا أن يحصى أنواعه لأعياه ذلك . ومن أنواعه نوع عجيب يفوق سائر الأنواع فى هيئته ، ويفضل عليها بعمله ونشاطه ، وهو الإنسان .

هــذا إذا نظرنا إلى العالم بعين من لا يتبصر بحكمة ولا يتدبر بعلم . أما الحكيم الذى ينعم النظر فى الاشياء ، والعالم الذى يحسن التأمل فى ملكوت الله ، فيبدو لهما من الفوارق بين المخلوقات ما يتميز به كل نوع عن غيره ، ويكتشفان فى كل شئ الخصوصية التى يمتاز بها ولا توجد فى الأشياء الأخرى لأن البارئ العظيم لما صوّر هذه المخلوقات اختصّ كلا منها بخصائص ، وأودع فيها من القوى ما امتاز به بعضها عن بعض . ومن هنا كانت هذه المخلوقات على غير اطّراد فى الطبائع والمواهب ، فتراها تتدرّج وترتقى — من أدنى إلى أعلى — على مدارج فى الشعور والإدراك والإرادة . وإن أول الجماد وهو الهباءة — أو الذرّة كما يسمونها اليوم — لا تجد فيها أثراً للحياة : من الشعور ، والادراك . ومن الجماد ما تلمح فيه أمارة خفيفة من أمارات الحياة . أما النبات فان أمارات الحياة بارزة فى نمائه واخضراره ، بيدَ أنه فى درجة

الصفر من حيث الشعور والإدراك . بينما نجد فى الحيوان — مع الإحساس والشعور — إرادةً قوية تحمله على الحركة : فى القعود ، والنهوض ، والمشى . وللإنسان إحساس تام ، وإدراك كامل ، وإرادة بالغة ، وعزيمة ماضية . وإلى هذه القوى الانسانية - من شعور تام وإدراك كامل وإرادة قوية وعزيمة صارمة - يرجع تكليف الإنسان ، ومن جرّاء ذلك قد حمل أثقال الفرائض وأعباء الواجبات . وكلما كان نوع من أنواع المخلوقات أقلّ نصيبا من هذه القوى الموهوبة له من الله ، كان أخفّ عبئا فى المسئوليات ، وأقلّ واجبات فى مناط التكليف . فالجماد ليس عليه واجب قط ، والنبات قد نال نصيبا من صفات الحياة فأصابه حظ من الواجبات ، أما الحيوان فأكثر حظا وأوفر نصيبا من الجماد والنبات فى القوى الحيوية ، فثقلت عليه أعباؤه من واجبات الحياة وتكاليفها . ولما كان نصيب الانسان من العقل والمدارك ، ومن الذكاء والفطنة ، أوفى من سائر المخلوقات وأوفر ، فقد ازدادت تكاليفه وواجباته بنسبة ذلك . وتتفاوت الواجبات والتكاليف بين أفراد بنى الانسان بحسب تفاوتهم فى مناط هذه الواجبات والتكاليف ، أعنى العقل والمدارك : فالمجنون والمعتوه والأحمق والصبى لا يُطالبون بما يطالب به العاقل الفطن والعالم المثقف ، ولا يستطيع أولئك أن يقوموا بما يستطيع أن يقوم به هؤلاء . وكل ذلك يرجع الى تفاوت القوى الباعثة على العمل : بين شعور ناقص أو إحساس كامل ، وخمود الطبيعة أو توقد القريحة . بل منهم من لا يكلف بواجب قط ، ومنهم من يكلف ببعض الواجبات دون بعضها الآخر ، ومنهم من يضطلع بالعبء الأعظم من الواجبات والتكاليف .

ثم إذا تأملنا المخلوقات وأنعمنا النظر فيها يبدو لنا أنه مهما يكن عند مخلوق من شعور ناقص أو إحساس ضعيف أو إدراك ضئيل ، فان القدرة الالهية قد تتولى تربيته وترعى نشأته وتختصه بعنايتها ، حتى إذا امتازت صفاته وارتقت مميزاته فوّضت اليه الفطرة من أمر نفسه ما تحتمله قواه وتستحقه مواهبه . أليس من مواهب الله لبعض أصناف الحجر أن تتحوّل فى جبالها

ومعادنها الى ياقوت وزمرد، وصار لها هذا البريق الذى تتلألأ به أحجارها بينما باتت الأحجار الاخرى المجاورة للياقوت والزمرد محرومة هذا الجمال الذى يأخذ بالعيون والصفات التى تحير الألباب. ومن ذا الذى يغذو الحيتان فى أعماق البحار، والحيوانات فى الآجام والصحارى القاحلة؟ ومن ذا الذى يشفى الحيوان إذا مرض، ويقيه عوادى الحرّ والقرّ فى شهور القيظ وليالى الشتاء؟

من جرّاء ذلك ترى هذا الاختلاف البادى فى صوَر أفراد نوع واحد من الحيوان، وهو يرجع الى عواملَ مختلفة: من برودة الجوّ، وحرارة البيئة، وطبيعة المناخ. فالكلب الأوربى يختلف عن الكلب الإفريقى بقدر مابين بلاديهما من اختلاف فى الجو والبيئة، فتختلف بسبب ذلك حاجاتهما، وتتباين لوازم حياتهما. وقد هيأت الفطرة الالهية لكل منهما أسباب العيش ولوازم الحياة التى تلائم طبعه وتقضى بها حاجاته.. فللكلب الاوربى ماليس لأخيه الكلب الإفريقى من الفرو الأثيث الضافى. وهكذا ترى الفرق جلياً بين الحيوانات الشرقيــة والحيوانات الغربية فى فرائها وشعورها وأوبارها وبرائنها ومخالبها وأظفارها، بل ترى الفرق أوضح وأجلى فى سحنها ووجوهها وهيئات جلودها. ومردّ ذلك إلى حكمة خالقها الحكيم المدبر، العليم بكل مخلوق وما يحتاج اليه فى غذائه وبقائه ولوازم حياته.

لقد تبين مما تقدّم أن الخالق القيوم جل جلاله تكفل بحاجات مخلوقاته المسلوبة الإحساس والشعور، وأن المخلوقات التى رزقت الشعور والاحساس قد وكلت اليها الفطرة الالهيـة أمرَ السعى لتحصيل حاجاتها على قدر ما هى حاصلة عليه من الاستعداد الفطرى لذلك، فالانسان مكلف بالسعى فى أسباب رزقه ومتاع حياته، وهو يلقى من التعب والعناء ما يلقى فى التجارة والزراعة والصناعة وغير ذلك من وسائل الكسب. وليس لجسم الانسان من الفرو الضافى والجلد المتين ما يدفع عنه عوادى البرد القارس والحــرّ اللافح، لذلك هو مضطر الى أن يعد بنفسه مايقى جسمه حرارة القيظ ولوافح

السموم ، وبرودة الشتاء وسوافع الزمهرير ، فيصنع مختلف الثياب المناسبة لكل جو ، ويعالج ما يصاب به من أمراض بما هداه اليه إدراكه من عقاقير وأدوية ووسائل .

ومن كان من المخلوقات أقلّ نصيبا من الإدراك ، وأضعف حيلة فى الحصول على متع الحياة وأسباب العيش ، تداركته الفطرة الالهية فمنحته فى نفسه وجسمه من أسباب الوقاية وأسلحة الجوارح ما يدفع به عن نفسه عادية الكون ومخلوقاته ويسرت له به سبل العيش : فمن الحيوانات ما وهبه الخلاق العظيم مخالب قاطعة وبراثن مرهفة ، ومنها المسلح فى فمه بأسنان مفترسة ، ومنها ذوات القرون ، وذوات الأجنحة ، والسوابح فى اليمّ ، والمدافعة عن كيانها بالحُمة السامة ، إلى غير ذلك من الأسلحة والجوارح التى عوض الله بها لبعض خلقه عما فقده من نعمة العقل ونور البصيرة ومذاهب الرأى . أما الانسان المجرّد من مثل خرطوم الفيل ، وقرن الثور ، وسمّ الافعى ، وحمة العقرب وسائر أسلحة الدوابّ والهوام ، فكان لذلك أعزل ضعيفا ، إلا أنه قد أوتى من العقل الكامل ، والشعور الشامل ، والحسّ المرهف ، والفهم الثاقب ، والبصيرة النافذة ، مالم يؤتَ أحد من خلق الله مثله . وهذه المواهب التى امتاز الانسان بها على سائر المخلوقات تغنيه عما فقده من القوى الجسمية التى امتازت عليه بها الحيوانات القوية ، فاستطاع أن يسخّر الفيل العظيم الهيكل ذا الخرطوم الطويل ، وأن يستذلّ الأسد الضارى ذا البراثن الحديدية وأن يقبض على الأفعى الثائرة ، ويصيد الطيور المحلقة فى جو السماء ، بل صار لا يعييه حوت فى لجج البحار الزاخرة ، ولا وحش غابة كثيفة من الوحوش المفترسة الكاسرة . لأنه قد اخترع بمواهبه العقلية أسلحة فاق بها على أسلحة سائر المخلوقات مجتمعة بلا استثناء

سادتى ! لابد لكم أن تعترفوا — على اختلاف أديانكم ، وتباعد أوطانكم وتنوّع نزعاتكم وأفكاركم — بأن الانسان قد انهالت عليه الواجبات وتعددت المسئوليات بسبب ما امتاز به من عقل راجح ورأى حصيف وفكر ثاقب

وفقه لطيف . وهذه الواجبات والمسئوليات تسمى بلغة الشرع « التكاليف » وهى موجهة اليه من ناحية قواه الظاهرة والباطنة ، وكأن الانسان قد خاطب الفطرة الإلهية بلسان مواهبه وقواه أن تفرض عليه عملا ، فكان بسببها مكلفا بهذه الواجبات التى تملأ وُسعه و تتناسب مع طاقته ، قال الله عز وجل ﴿ لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلا وُسعها ﴾ (البقرة ٢٨٦) . وعبر سبحانه عن هذا التكليف بالأمانة فى قوله ﴿ إنا عرضنا الأمانةَ على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسانُ إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ (الأحزاب ٧٢) . ولا يتصف بالظلم والجهل إلا المكلف بالعدل والعلم ، والظلم والجهل من نعوت الانسان لا ينعت بهما غيره ، لأنه لم يكلف بالعدل والعلم إلا هو . فهاتان الصفتان من صفات الانسان : الأولى ضد العدل ، والأخرى ضد العلم . وذلك لا يوجد إلا فى الانسان ، فالظلم تعدى الانسان حدوده واستعماله قوته الظاهرة العاملة فى غير محلها . والجهل نقص يتطرق الى الانسان من جهة قواه العلمية . والظلوم يقابله العادل والجهول يضادُّه العالم . والعدل والعلم يتصف الانسان بهما بالقوة لا بالفعل ، فيحتاج الى العدل لتكميل قوته العملية ، والى العلم والمعرفة لتكميل قوته العلمية . والقرآن الحكيم قد يسمى العدلَ بالعمل الصالح ، والعلمَ بالايمان . قال الله عز وجل : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فمن لم يعمل صالحاً فقد ظلم نفسه ، ومن لم يؤمن بالله فقد جهل . ولا ينجو من الخسران إلا من آمن وعمل صالحا . وقد أشهد الله الزمانَ على خسران الانسان . ومن الظاهر البين أن المراد بالزمان الحوادث التى حدثت فيه منذ بدء العالم ، وقد صدق كارليل فى وصفه التاريخ بأنه « سجل لأعمال العظماء وسيرهم » ، وتاريخ العالم أصدق شاهد على أن كل أمة لم تؤمن بالله ولم تعمل صالحاً بأنها قد خسرت وهلكت ، وكذلك الأفراد الذين لم يؤمنوا بالله ولم يعملوا صالحا أنهم قد خسروا وهلكوا . والصحف السماوية والأسفار القديمة ملأى بأن الظلم والجهل ما وجدا فى بيئة إلا جرّا عليها الخراب والدمار ،

والعدل والعمل الصالح ما وجدا فى أمة إلا نتج عنهما الحياة والعمران . وتقص عليك هذه الكتب وغيرها أنباء الذين آمنوا وعملوا الصالحات كيف أفلحوا وعمروا الدنيا ، وأخبار الذين طغوا وبغوا كيف بادوا وهلكوا وذهبوا أحاديث تروى ، وتفرّقوا أيدى سبا ، فلم يبق لهم إلا أثر بعد عين . وتثنى هذه الكتب على الذين قاموا أحسن قيام بالواجبات المكلفين بها من قبل فطرتهم فأدوا ما عليهم منها خير أداء ، كما تذم الذين أهملوا فرائضهم ونبذوها وراء ظهورهم . وحتى الالياذة والشاهنامة ومهابهارته وراماين وغيتا ، كل هذه الأسفار ، تقص علينا أخبار الأمم الذين خلوا من قبل ، وتحدّثنا بما وقع من القتال بين الظالمين والعادلين ، وبين الكافرين والمؤمنين ، وفى ذلك عبرة لأولى الأبصار بمن يعتبرون بتجارب الأمم فينتهون عن الظلم والشر ، ويرتدعون عن الكفر والشرك ، ويقيمون الحق ويتواصون بالخير ويعملون صالحا .

أليست سور القرآن الحكيم وأسفار التوراة والانجيل ملأى بالقصص مسجلة بان كل أمة آمنت وعملت صالحا وعدلت فى الحكم وجاءت بالحسنة قد أفلحت ونجت وسعدت ، وكل أمة ظلمت وكفرت بأنعم الله وركبت هواها وعدت طورها وتعدّت الحدود الفطرية قد هلكت وانقرضت دولتها وتقوّض صرح مجدها . إن فى بعض آيات كتاب الله قصة لمؤمن عادل صالح ، وفى البعض الآخر منها قصة لظالم طاغ : كل ذلك ليرتدع الطاغية عن طغيانه ، ويكفّ الفاسق عن الفسق ، وينتهى الظالم عن الظلم والبغى ، فيعودوا جميعاً الى الرشد ويكونوا عادلين مؤمنين صالحين .

لأجل ذلك بعث الله الأنبياء والرسل ـ قبل محمد ﷺ ـ الى كل بلد ، بل إلى كل قرية ، ليكونوا بسيرتهم الصالحة المستقيمة أسوة لأممهم ، فتتبع الشعوب التى بعثوا اليها السنن التى يسنونها لأفرادهم وجماعاتهم فيستقيموا ويفلحوا جميعا ، أو تهتدى بهدى الانبياء والرسل طوائف من قومهم على الأقل فيواصلوا الدعوة ويسيروا فى طريق الحق . وقد بعث الله الى الانسانية

خاتم رسله محمداً ﷺ بشيراً للناس كافة ونذيرا ، وداعياً الى الله باذنه ورحمة للعالمين ، لتكون لهم فيه أسوة ، ويكون لهم من حياته الشريفة قدوة ، ثم يكون مثلا أعلى للذين يأتون بعده إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء فى القرآن الكريم على لسان نبيه ﷺ ﴿ فقد لبثتُ فيكم عُمراً من قبله ، أفلا تعقلون ﴾ (يونس ١٦) ، وذلك أن الرسول ﷺ ولد فيهم ، وترعرع بينهم ، ونشأ أمام أعينهم ، وعاش بين ظهرانيهم برهة من الدهر قبل بعثته ، فعرفوا أخلاقه كل المعرفة ، وجرّبوا عاداته وأعماله ، فهو لم يكن فيهم غريبا ولا خاملا ولا مجهول الأحوال . والوحى الإلهى فى هذه الآية يقدم حياة الرسول وسيرته الطاهرة قبل البعثة دليلا على نبوّته ﷺ وأن رسالته هى من عند الله العظيم ليؤمن به العرب ويصدّقوه فيما يخبر به أو يدعو اليه ، فانهم قد علموا مُصبحه وممساه ، واختبروا أخلاقه وعاداته من صباه ونعومة أظفاره الى أن شبّ واكتهل وأعلن نبوّته وخرج الى الناس يدعوهم برسالة الاسلام .

لقد مضى فى سالف الأيام كثير من العظماء دعوا الناس إلى أن يقتدوا بأخلاقهم وأعمالهم ، منهم ملوك جبابرة عاشوا فى قصورهم الشامخة بين ندمائهم وجلسائهم وملأوا القلوب مهابة وجلالة ، ومنهم قادة جيوش عاشوا بين ضباطهم وجنودهم يرهبون الناس ويخيفونهم بشدة بأسهم وضخامة أجسامهم ورواء هندامهم ، ومنهم حكماء وفلاسفة كانوا إذا نطقوا أبانوا ، وإذا خطبوا أبدعوا ، ونثروا من دُرَر الحكمة ما شاءت بلاغتهم وطلاقة ألسنتهم ، فملكوا القلوب وبهروا النفوس . وترى بجانب هؤلاء طائفة الشعراء ممن إذا أنشدوا أطربوا ، وإذا رتلت أناشيدهم غلبوا السامعين على أهوائهم ولعبوا بالقلوب كيف شاءوا . وقد خلا كثير من الفاتحين الذين دوخوا البلاد واستولوا على الممالك ، كما مرّ فى مواكب التاريخ كثير من المثرين والأغنياء الذين كانت أقدامهم تطأ البسط الناعمة والزرابى الوثيرة ويمشون على الحرير الفاخر والاستبرق الزاهر ، اكتنزوا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، واسترعوا أنظار بنى آدم بما كانوا فيه من ترف وعظمة وسعة . وقد كان

هنيبعل القرطاجنى والإسكندر المقدونى وقيصر الروم ودارا الفارسى ونابليون الفرنسى يملأ كل منهم عيون بنى آدم بعظمته وأحداث حياته ومختلف أعماله، وكذلك نجد سقراط وافلاطون وديوجنس وغيرهم من حكماء اليونان وغير اليونان مثل سبنسر وأضرابه تجتذب سيرتهم النفوس وتروق القلوب، وإن اختلفت مظاهر عظمتهم عن مظاهر عظمة الآخرين ممن ذكرتُ أسماءهم قبلهم. فهل ترى فى حياة هؤلاء وأولئك ما يضمن فلاح بنى آدم؟ ومن منهم تؤدى سيرته ودعوته الى صلاح الانسانية وسعادتها؟

إن فى هؤلاء وأولئك لقادةً فتحوا البلاد ودوّخوا الممالك واقتحموا أقصى الأرض وأدناها، وذللوا ما اعترض سبيلهم من صعاب، وسخروا الملوك بظبى سيوفهم. ولكن من منهم ترك لمن أتى بعده أسوة يأتسى بها فى تعميم الخير، ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه ينجون من المهالك ويسلكون سبيل السعادة والهناء؟ ومن من هؤلاء استعملوا سيوفهم البواتر فى قطع حبائل العقائد الفاسدة، وتخليص العقول من الأوهام الواهية والأفكار الباطلة؟ ومن منهم وقف حياته على حل معضلات بنى آدم، وكان حريصاً على عقد أواصر الاخاء بينهم على الحق والتواسى فى الخير؟ وهل يوجد فى حياة من ذكرنا من هؤلاء العظماء مايستعين به بنو الانسان على تخفيف ما يعانونه من الغمرات فى حياتهم الاجتماعية؟ أم فى أخلاقهم وأعمالهم ما ييسر للانسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها النفسية؟ أم فى دعوتهم ما يجلو صدأ القلوب ورينها، أو يرتق فتقا فى الحياة الاجتماعية؟

لا شك أن الشعراء نالوا إعجاب الناس باناشيدهم الرنانة، وملكوا النفوس وتصرّفوا فيها بشعرهم البليغ وقصائدهم الغرّ. ولكن هل نفعوا الانسانية وهم يهيمون فى أودية الخيال؟ كلا، ولذلك لم يكن لهم فى جمهورية افلاطون نصيب ولا منصب. والشعراء - من هوميروس إلى امرئ القيس فمن بعده من شعراء الأمم - لم يكن منهم إلا إثارة كامن العواطف وتنبيه النائم من الأفكار، أو إحداث لذة أو ألم فى النفوس. ولا ينتظر منهم أن يحلوا

معضلات الحياة الانسانية ، وعويصات مشاكلها . وسبب ذلك أنهم فى سيرتهم وأعمالهم لا يقدمون للناس المثل التى تحتذى ، والأسوة التى يقتدى بهم فيها . ولقد وصفهم القرآن الحكيم أصدق وصف عندما ذكر سيرتهم بقوله ﴿ والشعراء يتَّبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧) . وبهذا سجل القرآن الحكيم على الشعراء أنهم لا يؤثرون بشعرهم اللطيف الحلو على المجتمع البشرى ، لأنهم يهيمون فى أودية الأفكار والعواطف بلا إيمان ولا عمل صالح ، ولو اجتمعت لهم هاتان الخصلتان - الإيمان والعمل الصالح - لكان لشعرهم أثر بارز فى المجتمع البشرى . وعلى كل فانهم ليسوا من الإصلاح فى شىء ، ولا الإصلاح من شأنهم ، ولذلك لا يقدرون على القيام بمهمة إصلاح العالم ، وقيادة الناس الى الرشاد الكامل والفلاح الشامل ، ويشهد على صدق هذه الحقيقة تاريخ الأمم فى غابرها وحاضرها .

وكذلك نرى الفلاسفة والحكماء بهروا عقول الناس بفلسفتهم ، وحاولوا تغيير تيار الحياة البشرية ففرضوا على الناس من طريف الأفكار ومستحدث النظريات ما حير العقول وأدهش النفوس ، لكنهم لم يقدموا للناس من سيرتهم أسوة يؤتسى بها ، ولا أناروا ظلمات الحياة بقبس من أعمالهم تتضح به مشاكل الانسانية فتتمكن من حل معضلاتها . وهذا أرسطو قد وضع فى فلسفة الأخلاق قوانين أسس بها بنيانها ووطد أركانها ، ولا تزال الجامعات وأساتذتها عاكفين على دراستها : يلقون المحاضرات على طلبتهم فى فلسفته ، ونسمعهم يثنون على ثقوب فكره وبعد نظره وحصافة رأيه ورجاحة عقله ، ولكننا - والحق يقال - لم نجد رجلاً اهتدى بدراسة فلسفة أرسطو أو وصل بها الى السعادة المنشودة .

وكذلك نرى فى الكليات أفاضل من العلماء وفحول الاساتذة والمدرسين يعجب الطلبة فصيح كلامهم وبراعة بيانهم وبليغ حوارهم وعذب حديثهم ،

وهم يؤثرون فيهم بذلاقة ألسنتهم، واتساق أفكارهم، وترتيب معانيهم. لكنهم لا تعدو محاضراتهم جدران كلياتهم وقاعات محاضراتهم، وإذا خرجوا منها أصبحوا كعامة الناس لا يمتازون عليهم بعمل تتخذه الانسانية مثالا يحتذى، ولا بخلق يختلفون به عن غيرهم هدياً وسمتا.

لقد رأينا على مسرح العالم كثيراً من الملوك الجبابرة الذين حكموا العالم واستولوا على الممالك، واستعبدوا الأمم. وكم من أرض عمروها، ومدينة دمروها، وكم وضعوا شعوباً ورفعوا آخرين، وكم سلبوا ومنحوا، وضروا ونفعوا، فكانوا فى سيرتهم كما قال الله عز وجل على لسان ملكة سبأ ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة ﴾ (النمل ٣٤).

نعم، إن السيوف البواتر فى أيدى بعض الملوك قد قذفت الرعب فى قلوب المجرمين فكفوا عن اقتراف الجرائم علانية وفى وضح النهار مستترين وراء مكامن الريب أو قابعين فى بيوتهم. لكن سيوف الملوك عجزت عن أن تستلّ الرذائل من قلوب أهلها، وأن تحسم مادة الشر فى نفوسهم، وأن تطهر صدورهم من فساد السرائر، ذلك الفساد الذى يحمل أهله على ارتكاب المعاصى واقتراف السيئات. واقصى ما يترتب على رهبة المجرمين والمرجفين من سيف الملوك المسلط عليهم أن يسود الأمن والسلام سبل البلاد وأسواق المدن وشوارعها وحاراتها، أما إصلاح القلوب وتهذيب النفوس فما يخرج عن سلطان السيف وتعجز عنه إرادة الملوك. بل الحق ـ والحق أحقّ أن يقال ـ أن رأس كل شرّ إنما نجم من قصور بعض الملوك. وإن كل فساد نبت نابته فى فِناء حصونهم، بل فى قصورهم نبعت عيون الفواحش والجرائم، ومن حصونهم انفجرت ينابيع الظلم والعدوان، وعلى أيديهم تفاقم كل شر، ومن أخلاقهم سرت العدوى إلى أخلاق الناس. ولفساد قلوبهم وسوء أعمالهم اتسع الخرق على الراقع حتى أعيا الأطباءَ داءُ المجتمع البشرى. وهل خلف لنا الاسكندر المقدونى وقيصر روما الأعظم مثالا من أعمالها يصلح المجتمع إذا اقتدى به وسار على أثرهما فيه؟

وهل نالت حظاً من البقاء والدوام أيةُ سنَّة سنها عظماء المفكرين للمجتمع البشرى من أمثال سولون وغيره من واضعى الشرائع التى يعتبرونها عادلة قيمة ، مع أنهم أبدعوا فيها ما شاءت لهم أفكارهم الثاقبة وأنظارهم البعيدة وقرائحهم المتوقدة . ولو سأل سائل عن تلك الشرائع القيمة والقوانين العادلة كم استمرت ؟ لما استطاع أحد من أتباعهم وأنصارهم إلا أن يعترف بأن بقاءها كان قصير الأمد ، وأن نقادها أكثروا من نقدها ، بل شك حتى أتباعهم وأنصارهم فى نصح أولئك المفكرين ونقاء سرائرهم وصفاء قلوبهم وفى اخلاصهم للانسانية وللبشر جميعا ، لأنهم لم يجدوا فيها الحياد الصادق والنصفة المحضة والعدل الصريح وبراءة الذمة من المحاباة . ومن جرّاء ذلك نشأ بعدهم قوم آخرون نبذ حكامهم تلك الشرائع ومحوها كما يمحو المصححون أخطاء الحروف فى الكتابة ، ثم شرع هؤلاء الآخرون فى سن قوانين غيرها تلائم مصالحهم وتوافق مطامعهم ، فجاءت القوانين الجديدة كأختها التى سبقتها غير مراعى فيها حقوق بنى آدم كلهم ومصالح الأمم بلا استثناء . وفى أيامنا هذه نرى مجالس التشريع فى البلاد المتمدينة لا تفتأ تنسخ قوانين كان معمولا بها وتسن بدلا منها قوانين أخرى جديدة ، حتى صارت لكل يوم شريعة تشرع فى مكان شريعة تنسخ ، وقانون يسن بدلا من قانون يلغى . كل هذا طمعا فى بقاء دولة وتثبيت أركانها واستيلاء رجالها على مناصبها ورغبة منهم فى زخرف الدنيا وزينتها ونعيمها ، لا تحفزهم الى ذلك مصالح الناس ولا منافع الامة كلها .

سادتى ! لقد حدثتكم عن الطبقة العليا من بنى آدم ، ممن يُظن فيهم أنهم معقد الرجاء فى إصلاح الحياة الاجتماعية وتوجيهها نحو الرشاد . وقد علمتم من أحوالهم وسيرهم كيف خابت فيهم الآمال وأخفق الرجاء . والحق أن كل خير ترون له أثراً فى بقعة من بقاع الأرض ، وكل نور يومض فى أية أمة حتى لو كان ضئيلا ، وكل اثارة من صلاح ، أو كرم خلق ، أو صفاء سريرة وطهارة قلب ، فان مما لا ريب فيه أن مردّه فى الأصل إلى رسالات الله ، أى إلى

هداية النبيين عليهم السلام . فاذا وقعت أنظاركم فى بقعة من أرض الله على مظهر من مظاهر العدل يسود الناس ، أو على رحمة فى قلوب طائفة يتبادلونها بينهم ، أو وجـدتم فئة تتعامل بالتواسى ويساعد أيسارهم ذوى فاقتهم وأقوياؤهم المظلومين منهم وأهلُ العافيـة فيهم يغيثون الملهوفين ويطعمون الأيتام ويعولون الأيامىٰ ، فاعلموا جازمين غير مرتابين بأن هذه الفضائل من آثار تعاليم تلك الطائفة الطاهرة التى تسمى « الأنبياء » صلاة الله وسلامه عليهم . وذلك لأن أقطار الأرض كلها ـ على سعتها ـ قد بلغتها دعوة الأنبياء وطرقت مسامع أهلها سنن هدايتهم وأحكام تشريعهم وحكمة رسالاتهم ، وما من أمة إلا وقد أرسل الله فيها رسله منذرين ومبشرين ﴿ وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ (فاطر ٢٤) ، ﴿ ولكلّ قوم هاد ﴾ (الرعد ٧) . ولولا الأنبياء لتهارج الناس كالبهائم ، ولتهارشوا كالسباع الضوارى . فحيثما رأيتم شيئاً من الصلاح ، وقليـلا من الخير أو كثيرا منه ، فهو من تعاليمهم . وكل دعوة للحق فى مكان ما من الأرض فانما هى صـدى لرسالات الله . وحتى الهمج فى مجاهل إفريقيـة ، فضلاً عن الأمم الغربية المتمدنة ، كل أولئك استقوا من منهل النبوات الصافى واستضاءوا بأنوار الله التى بعث بها أنبياءه ، ولا يزالون يستنيرون بهم فى كل ما يسمى حقا وكل ما تدل عليه عناوين الخير

إن الصفوة المختارة من أهل الطبقة العليا فى البشر هم الذين يحكمون القلوب وتنقاد لسيادتهم النفوس . وأين هؤلاء من الملوك الذين يحكمون الجسوم ويملكون الأبدان ويستولون على البلاد ؟ أولئك تجرى أوامرهم وتنفذ أحكامهم حيث تخفق القلوب ، وإذا كانوا لا يملكون الأسلحة التى يملكها الملوك وأمراء الأجناد ، فانهم يطهرون الأنفس من آثامها ويستأصلون الجرائم قبل وقوعها ، حين يجتثون من القلوب جذور الشرور . وإذا لم يكن لهم ما للشعراء من أناشيد يتغنى الناس بها ، فان الأمم لا تزال تستحلى كلامهم العذب ، وتستعذب حديثهم الحلو . لا ريب أنه لم يكن الرسل رؤساء المجالس

التشريعية بالمعنى الحديث ، لكن سننهم وتشريعاتهم لا تزال - على تطاول الأيام ومضىّ القرون - نافذة بين الطوائف ، يقدسها علية الناس وسفلتهم ، وأحكامهم منقوشة على صفحات القلوب تذعن لها السوقة والملوك ، ويستسلم لها الفقراء ويخضع لها الأغنياء .

إن يد الأيام قد عبثت - كما يشهد التـــاريخ - بالراجا (أشوكا) ملك (پاتلى پاتر) ولم تُبق يد البلى من أوامره وأحكامه إلا صخوراً منقوشة وحجارة منحوتة . أما (بوذا) فانه لا يزال يحكم القلوب ، وسننه وقوانينه لا يزال كثير من الناس يدينون لها ويطأطئون الرءوس لحرمتها . وان أوامر ملوك (أجين) و (هستناپور) فى دهلى وقنوج أمست أثراً بعد عين ، بل درست آثارهم وعفت أعلامهم وأصبحت ديارهم كأطلال خولة ، أما (دهرم شاستر) وهو كتاب العقائد الذى جاء به (منو) فلا يزال باقيا نافذا أمره .

والملك (حمورابى) من ملوك بابل كان أول من سن القوانين ، ولكن أين أوامره وأحكامه ؟ لقد نسجت عليها العنكبوت منذ زمان طويل ، ولم تدع يد البلى من قوانينه وأحكامه شيئا . أما تعاليم نبى الله ابراهيم عليه السلام فما برحت غضة طرية .

وأين فرعون ودعواه ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ؟ لقد أصبحت أضحوكة ! أما نبى الله موسى عليه السلام فانه يسود نوازع القلوب ، ويملك أهواء النفوس ، ويدين له كثير من الناس ، وتسلم لآياته وبيناته طوائف غير قليلة .

وقوانين سولون زال العمل بها وشيكاً ، بينما التوراة المنزلة من السماء لا تنفك أحكامها وقوانينها قسطاس العدل وميزان النصفة .

والقانون الرومانى الذى عدّ عيسى عليه الســـلام جانياً مجرما بمقتضى أحكامه ، واعتبره قد اجترح السوء وأتى ذنبا ، قد خلت القرون تسفيه

برياحها فأصبح هشيما مضمحلا . أما عيسى عليه السلام فان تعليمه لا يزال نوراً تجلى به ظلمات القلوب ، وهدى تطهر به نفوس المذنبين ، وتزكى به أرواح المجرمين .

وأين أبو جهل وكبرياؤه ، وأين كسرى الفرس ودولته وجبروته ، وأين قيصر الروم وحكومته وطغيانه ؟ كل أولئك قد طوى الدهر صحائفهم ، وطمست الاقدار دولهم ، وتهدم صرح مجدهم ، وذهبوا أدراج الرياح . أما محمد رسول الله ﷺ فان حكمه ما زال ولن يزال باقيا على الدهر ، وأوامره نافذة وسنته متبعة فى كل زمان ومكان .

سادتى وأصدقائى ! أظنكم قد استمعتم لما ألقيت عليكم من الأدلة العقلية والبراهين التاريخية ، وإخالها قد تركت فيكم أثرا أورث فى قلوبكم يقيناً بأنه لم تكن طائفة من الناس أصلحت من فساد الأخلاق وقومت من عوجها ، وهذبت النفوس وهدتها من ضلال البشر مثل الذى قام به الأنبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصلحوا الحياة الاجتماعية ، وعلموا الناس الاقتصاد فى المعيشة ، والاعتدال فى كل شئ . وهم الذين أقاموا العدل فى الدنيا ، وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكوا القلوب ، وأخذوا بيد الانسانية الى الحق والخير وأنقذوها من حمئة الرذائل . وإن الله سبحانه قد بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات - ظلمات العقائد ، وظلمات الأخلاق ، وظلمات الأعمال - إلى النور : نور الإيمان ، ونور الخلق الكريم ، ونور العمل الصالح . وتركوا بعدهم سنة للناس : يتبعها السوقة ويعمل بها الملوك ، وينتفع بها صغار الناس وكبارهم ، ويتمتع بخيراتها الأغنياء والبؤساء على السواء . وإن مَثل الأسوة بهم كمثل عين ثرّة فياضة تروى البلاد وتسقى العباد ، يشرب منها كل عطشان بقدر حاجته ، ويرتوى بمائها العذب الزلال كل ظمآن فينقع غلته ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذرّيته داودَ

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياسَ كل من الصالحين . واسماعيلَ واليسعَ ويونسَ ولوطاً ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدىُ الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بهم قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدىُ اللهُ ، فبهداهم اقتده ﴾ (الأنعام ٨٣ - ٩٠)

ترون فى هذه الآيات ذكر طائفة خاصة ، وسُمى فيها بعض الذين بعثهم الله لهداية الناس ، وفوّض اليهم أمر اصلاح المجتمع : فهم الشفاء لمرضى القلوب ، وبهم البرء لسقام النفوس ، وهم هداة الغاوين ، الآخذون على أيدى الطغاة ، والمرشدون لأهل البغى ، والناهون عن المنكرات . وهم الطائفة المقدّسة التى عمّ هديها وجاد غيثها جميع أنحاء المعمورة ، فاستضاء الناس كلهم بنور هؤلاء الرسل فى مختلف الأزمنة وشتى العصور . وإن الذى نراه فى الأمم من الخير والصلاح وكرم الخلق وحسن العمل وطهارة السيرة وعلوّ النفس وزكاء الروح ونزاهة القلب ، إنما هو قطرة من بحر تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، ولمحة من جمال شرائعهم ، وأثارة من بركات سيرتهم . وإن الانسانية القلقة المتألمة لا تزال تفتقد آثارهم ، وتحرص على اتباع سننهم ، ليذهب بذلك روعها ، ويطمئن قلبها ، فتقر الحياة الاجتماعية وتجد بعض راحتها . ولو أن الناس اتبعوا سنن الأنبياء واستقاموا على الطريق الذى دلوهم عليه لساد الوئام بين الامم ، وعمّ السلام فى العالمين

لقد كان الأنبياء جميعا على خُلق عظيم ، وقد أوتوا من حميد الخصال ومعالى الأخلاق مالم يُؤتَ أحد غيرهم مثله . غير أن منهم من تجلى فيه خلق من الأخلاق فكان فيه أبرز من غيره وأظهر ، فنبىّ الله نوح كان متحمساً فى تبليغ الدين ، وابراهيم كان شديد العناية بأمر التوحيد وورثه فى ذلك إسحاق ،

وحبب الإيثار الى إسماعيل ، وجاهد موسى جهاداً عظيما ، وآزره فى الحق أخوه هارون ، وظهرت الإنابة والاعتراف بالخطأ فى يونس ، وكان لوط مجاهدا ، وغلب على يعقوب التسليم والرضا بأمر الله ، وكان داود يرثى للحق وخذلانه ، وامتلأ قلب سليمان بالحكمة ، وكان زكريا متعبدا ، وتجلى فى يحيى العفاف وطهارة النفس ، أما عيسى فكان مظهر الزهد فى الدنيا والرغبة عن زهرتها ، وكان أيوب صبوراً على الآلام . وهذه الخصال العالية والأخلاق الفاضلة هى التى يتشرف بها العالم ، وتسعى الأمم للتحلى بها ، وحيثما وجدتم من هذه الخصال الحميدة والفضائل النبيلة أثراً فكونوا على يقين بأنها من نفثات أولئك الأنبياء ومن آثار تعليمهم

إن تقدم المدنية الصالحة ، وتوفير عوامل الهناء والرغد للناس ، وبلوغ الانسانية مقام الشرف ، قد ساهمت فيه جميع الطوائف التى اشتركت فى عمارة العالم : فعلماء الهيئة اكتشفوا للناس نظام سير الكواكب ، والحكماء دلوا على خواص الأعمال وتأثيرها فى الأخلاق ، ووصف الأطباء النطاسيون خواص العقاقير وتأثير الأدوية فى الأدواء ، وتفنن المهندسون فى تشييد المبانى ومرافقها وإقامة القصور ومعالمها وعقدوا على الأنهار القناطر والجسور واتسع أهل الصناعات فى تنويعها وإتقانها وتيسير الأعمال للعمال ، فكان من مجموع هذه الجهود عمارة الارض ، ولكل فريق من أصحاب هذه الجهود يد فى اكتمال المدنية وتقدم الحضارة ، ونحن نذكر لهم ذلك بالثناء والشكر ، غير أننا لا نستطيع أن ننسى أن أنبياء الله وحملة رسالاته هم الذين غمرونا بالمنن العظمى لأنهم عملوا لاصلاح فساد القلوب ، واستئصال كوامن الشرور ، وتطهير النفوس وتزكيتها من الأهواء الفاسدة والاطماع السافلة والميول المهلكة ، فنهجوا بذلك منهج السعادة للحياة الاجتماعية ، وبينوا للناس ما تعلو به نفوسهم وما تسفل به ، وما تكون به شريفة أو منحطة ، فكملت الثقافة الانسانية برسالاتهم ، وبلغت الحضارة بذلك مبلغ الكمال ، وتيسر للمجتمع

البشرى أن يكون صالحا إذا شاء ، وقد أصبح من المتعارف عند الناس أن الاخلاق الفاضلة والسيرة الطاهرة هى شرف الانسانية ومجدها ، ومكارم الأخلاق ومحاسن العوائد أصل الانسانية وجوهرها

وبتعاليم الانبياء توثقت العلاقة بين الخلق وخالقه ، وحسنت الرابطة بين العبد ومولاه ، فتذكر الانسان عهده الأزلى الذى أخذه على نفسه لربه . ولولا الأنبياء وتعاليمهم وتجليتهم أسرار النفوس وكشفهم عن غرائز الفطرة الانسانية وما يسعد به المرء أو يشقى ، لم تبلغ الانسانية ما بلغته . ولذلك كانت الانسانية مثقلة بمنن الرسل سلام الله عليهم ، فان لهم علينا من الأيادى البيضاء مالا كفاء له . ومن عرف هذا عرف معه ما يجب لأنبياء الله جميعاً من الشكر العظيم على كل فرد من أفراد البشر مهما كانت الطائفة التى ينتسب اليها ، وهـذا الشكر هو الذى نعبر عنه نحن المسلمين بالصلاة عليهم والتسليم ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ونجهر بذلك ونعلنه كلما سمى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أيها السادة . إن هؤلاء الانبياء بعثوا فى أعصار خاصة ، فبلغوا رسالات الله ، ثم مضوا ، ولا بقاء لشئ فى هذه الدنيا الفانية . وإن سيرهم مهما تكن طاهرة مقدسة فانه لم يتح لها البقاء والدوام ، لأن يد الأيام قد عبثت بها كما تعبث بكل جديد فتحيله قديما ، ثم تجعله رمادا تذروه الرياح . ومن المعلوم أن الذى يبقى لمن يأتى بعدهم من بنى آدم هو المكتوب فيه سيرهم وهديهم ، وهو الذى يصف حياتهم ويمثل أخلاقهم . والكتابة هى التى تحصى الأعمال والأخلاق وتعصمها من أيدى البلى ، ولولاها لم تصل الينا علوم القرون الخالية وحكمتها ، وفنون الأمم الماضية وأفكارها ، وشئون الأقوام السالفة وأخبارها . وما التاريخ إلا سير الرجال وشئون الحياة الانسانية مما حفظته الكتابة وصانته من يد الضياع . وإن لحياة الانسان نواحىَ شتى ، ومن المحتمل أن يعتبر الانسان ـ فى ناحية من نواحى حياته ـ بكل حادثة حدثت

فيما مضى ، لكن حياة الانسان الخلقية والروحانية لا تكمل كمالها ولا تبلغ مرادها ولا تزكو زكاءها إلا بسنن الأنبياء وهديهم واقتفاء آثارهم والتخلق بأخلاقهم ، ولن يذهب ظمأ الانسانية فتروى غلتها إلا بنهل من سلسبيل هؤلاء الرسل ، ولا يرجى خير العالم وصلاحه إلا إذا عمل أهله الأعمال التى هدى اليها الأنبياء ودعوا اليها وحضوا عليها . لأجل ذلك كان من أهم الفرائض على أبناء الانسانية حفظ سيرهم ، واحصاء أخلاقهم ، لتبلغ مبلغ الكمال وتزكو زكاءها

إن نظريةً مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر ، وإن تعليما مهما يكن رائقا ويقع من الناس موقع الاعجاب ، وإن هداية مهما تجمع من صنوف الخير ، كلُّ أولئك لا يغنى غناء ولا يثمر ثمرة ولا يبقى على الدهر إلا اذا كان له من يمثّله بعمله ، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه الى الناس بالقدوة والأسوة ، فيقتدى الناس بدعاته من طريق العمل بعد العلم ، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة معظمين لأخلاقهم مكرمين طهارة قلوبهم وزكاء نفوسهم وسماحة أخلاقهم ورجاحة عقولهم وحصافة آرائهم وسداد أفكارهم . وأقصّ عليكم قصة : إن الباخرة (كرو كوديا) التى ركبناها فى عودتنا من مصر والحجاز فى أوائل شهر رجب سنة ١٣٤٢ (فبراير ١٩٢٤) اجتمعنا فيها عرَضا بالدكتور طاغور الشاعر الذائع الصيت ، وكان قافلا من سياحته فى أمريكا ، فسأله بعض رفقته : « ما بال نحلة (برهمو سماج) أخفقت فى مساعيها ولم تنجح ، مع أنها أنصفت الأديان ، وجمعت الحسنات ، وسالمت جميع الملل ، ومن مبادئها وأصولها أن الديانات كلها على حق ، وأن جميع المصلحين من الأنبياء والرسل والهداة هم خيار الناس وصلحاؤهم ، ثم انها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعارض المدنية الحاضرة أو يناوىء الفلسفة الحديثة ، وصاحب هذه النحلة قد راعى فيها الظروف الراهنة والشئون المألوفة الآن ، ومع ذلك كله لم تنل من الفوز شيئا ولم يتح لها من النجاح قليل ولا كثير ؟ ! » وقد أحسن الشاعر

فى جوابه على هذا السؤال كل الإحسان اذ قال : « إن هذه النحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس اليها بسيرته الكاملة وهديه العالى ، ولم يكن لها لسان يدعو مؤيداً بعمل يصدّقه فتهوى اليه أفئدة الناس وتطمح اليه أبصارهم ويكون لهم من الدعاة أسوة يأتسون بها وقدوة يقتدون بها » . وكلام طاغور هذا يدل على أن الدين لا ينجح ويعلو وينتشر إلا بسيرة النبى الذى بعث به وبما عرفه الناس عنه فى شئون حياته وفى أخلاقه وأعماله . وبالجملة إن الجنس الانسانى يحتاج أشدّ الحاجة — فى بلوغه الكمال وسلوكه سبيل الرشاد — الى هداة ودعاة طهرت حياتهم وزكت نفوسهم وصفت قلوبهم من وصمات الذنوب وشبهات الآثام ، وتكون سيرهم كاملة فى كل ناحية من نواحى الحياة الانسانية ، ولم يجتمع ذلك إلا فى أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه

المحاضرة الثانية

فى أن سيرة محمد ﷺ هى العامة لجميع الأمم ، وهى الخالدة

سادتى . هذا اليوم هو اليوم الثانى لحفلتنا هذه . وليكن ما سلف فى اليوم الأول على ذُكر منكم . وخلاصة ما ذكرت أمس أن ظلمات الأيام المقبلة لا تنجلى إلا بنور من مضى من طوائف المصلحين الذين أحسنوا إلى الانسانية أىّ إحسان ، ولهم جميعاً علينا الشكر الجميل ، ونخصُّ منهم الأنبياء ، فانهم أسدوا إلى البشر من الجميل ما لم تسده طائفة من المصلحين ، فيجب علينا أن نضاعف الشكر لهم ونعترف بجميلهم وإحسانهم ، إذ أن كل واحد منهم قدَّم لأمته من سيرته الطاهرة وخلقه العظيم وهديه العالى ما كانت به الأسوة الكاملة التى لا تتأتَّى من غيره : فمنهم من صبر على الرزايا والنوائب والآلام أعظم صبر وأكمله ، فكان أسوة للصابرين فى الضرّاء والشدّة . ومن سيرة بعضهم خلق الايثار ، فكان إيثاره مثالا لأمته . ومنهم من اختار مرضاة الله مقدّما نفسه قربانا وأضحية ، فكان المثل الأعلى لامته فى إيثار مرضاة الله حتى على بقاء مهجته وحفظ حياته

لقد ظهر للناس فى سيرة الذين حملوا رسالات الله عند تبليغهم عقيدة التوحيد الالهى ما كان موضع العجب من العزيمة والحمية والتسليم لأمر الله والعفة عن المنهيات والزهد فى زهرة الحياة الدنيا ، وما كان ولا يزال مثلا أعلى فى هذه الفضائل العظمى ، ومناراً للسائرين فى ظلمات الحياة ، وكم من ظلمة فى الحياة قد ضلَّ بها من ضل . ثم أتى على البشر زمان كان فيه بأشد الحاجة الى الهادى الكامل يضىء له الطريق كله بقوله وعمله ، ويجلو الدجى — دجى العقائد والاعمال والأخلاق — بنور تعاليمه وضوء سيرته وجمال خلقه وكمال نفسه ، فتكون حياته نبراسا بأيدى الناس ، فمن اقتبس منه فى يمينه

سار فى ظلمات الحياة آمنا مطمئنا لا يخاف الزلة ولا يخشى العثرة حتى يبلغ غايته ، وإن ذلك الهادى الأعظم هو آخر الهداة وخاتم النبيين الذى لم يرسل بعده رسول ولن يرسل ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ﴾ الاحزاب : ٤٥ - ٤٦

إن محمدا ﷺ شهد فى هذا العالم تعليم الله وهدايته ، فهو شاهد . وبشر الصالحين بالنجاح والفلاح ، فهو مبشر . وقد نادى الغافلين وأسمع الصم وحذر المذنبين عاقبة ذنوبهم وأنذر المشرفين على الهلاك وأيقظ النائمين ، فهو منذر . وقد دعا الى الله من ضل عن سبيله ، فهو داع . وإن هو إلا نور يستضاء به الى يوم القيامة ، ونبراس يستنار بأشعته فى شعاب الحياة الملتوية فتنكشف به الظلمات المتراكمة ، فهو السراج المنير الى الأبد . نعم ، إن جميع الأنبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين ، بيد أن هذه الصفات لم تكن سواسية فى جميع الرسل ، بل كان بعضها فى بعضهم أظهر من أخواتها ، فكان يعقوب وإسحاق وإسماعيل عليهم السلام قد غلبت عليهم صفة الشهادة وكانوا شهداء الحق . وغلبت على إبراهيم وعيسى صفة التبشير فكانا مبشرين . ومن الأنبياء من غلب عليه وصف الانذار لمن خالف الحق وجحده فكانوا منذرين كنوح وموسى وهود وشعيب . ومنهم من غلب عليه صفة الدعوة الى الحق وامتاز بها أكثر مما امتاز بسائر النعوت الأخرى كيوسف ويونس عليهم الصلاة والسلام جميعا . وأما من كان جامعا لهذه الصفات كلها واتصف بها جميعا فكان مبشراً ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وكانت حياته ملأى بهذه النعوت والشئون وسيرته ممتازة بهذه الخصال والخلال ، فهو النبى الجامع محمد ﷺ لأنه بعث ليختم الله به النبيين والنبوات ، فأعطى الرسالة الأخيرة ليبلغها الى البشر كافة ، فجاء بالشريعة الكاملة التى لا يحتاج البشر معها الى غيرها ، ولم تنزل من السماء الى الارض شريعة على قلب بشر بعد هذه الشريعة . لقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود واختصت بالبقاء والدوام الى

يوم القيامة فكانت نفس محمد ﷺ جامعة لجميع الأخلاق العالية والعادات السنية ، وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق

إخوانى . أنا لا أقول ما أقول جزافا وادعاء منى لأجل عقيدة لى خاصة أعتقدها ، وإنما هى حقيقة يشهد لها التاريخ وتؤيدها البراهين والدلائل وإن السيرة التى يحق لصاحبها أن يتخذ الناس من حياته أسوة حسنة ومثلا أعلى ، يشترط لها قبل كل شىء أن تكون سيرة « تاريخية » ، أما السيرة القائمة على أساطير وأحاديث خرافة لا تدعمها الروايات الموثوق بصحتها ، فان من طبيعة الانسان أن لا يتأثر بما يحكى له من سيرة لشخصية مفترضة لا يعرف لها التاريخ أصلا صحيحا ، وإنما اختلق لها المناقب أناس أحسنوا الظن بها فرفعوا مكانها ، وقد يخدعون بهذه المناقب بعض الناس أمداً قصيرا حين يعرضونها عليهم فى حلة قشيبة من الألفاظ وثوب قشيب من العبارات ، ثم لا تلبث الحقيقة أن تظهر من وراء غلائل الاوهام فيعرض الناس عنها إعراضا لأنها قامت على غير أساس من التاريخ . اذن فلا بد لكل سيرة من سير الكمال الانسانى يدعى الناس الى الاقتداء بها واتخاذها أسوة أن يدعمها التاريخ ويشهد لها المحققون ، ولهذا نرى النفوس البشرية لا تتأثر بالاساطير والأوهام كتأثرها بحوادث التاريخ والروايات الثابتة عن الثقات الأثبات . وذلك لأن سيرة الرجل العظيم الكامل لا تعرض على الناس ليشغلوا بها أوقات فراغهم ويروحوا بها عن أنفسهم فى حالة الملل أو الضجر ، بل تعرض عليهم ليدعوا الى الاقتداء بها واتخاذها نبراساً لحياتهم يسيرون على ضوئها فى ظلمات الحياة لاقتحام العقبات ، وكم من عقبة تعترض الانسان فى حياته فيحتاج الى من يسير أمامه ليأخذ بيده فى اجتيازها . فان لم تكن الشخصية تاريخية كيف يدعى الناس الى الاقتداء بها وهى فى الواقع مفترضة والمناقب التى تذكر عنها من الاساطير والأوهام ؟!

نحن معشر المسلمين نؤمن برسالات الله كلها وبجميع الرسل ونعظمهم بلا

استثناء ، مع علمنا بأنهم متفاضلون ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ (البقرة ٢٥٣) . وإن الدوام والبقاء لم يُتح إلا لسيرة آخر المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ ، أما غيره من الأنبياء فلم تختم النبوة بآحد منهم ، ولم تكن سيرتهم خالدة ، بل ولا محفوظة ، وقد أرسلوا إلى أممهم خاصة ، وإلى زمن خاص بأجل مسمى ، فكانت حياتهم اسوة للذين أرسلوا اليهم فى عهدهم ، ثم نسيت تلك السيرة وامّحت بكرّ الليالى ومرور الأيام ، وقد جاء فى رواية اسلامية أن الله أرسل من الانبياء عشرين ألفا ومائة ألف

انه ما من بلاد ولا أمة قبل مبعث محمد ﷺ إلا جاء فيهم نبى ، وإذا كان عدد الانبياء على مافى تلك الرواية الاسلامية عشرين ألفاً ومائة ألف فكم نبياً منهم نعرف اسمه ؟ والذين نعرف أسماءهم هل نعرف من سيرتهم كثيراً أو قليـــلا ؟

إن من أقدم الأمم عهداً هنادك الهند كما يدعون ، وهم ليسوا بمسلمين ، وفى تاريخهم مئات من العظماء والنابهين ، فهل يؤيد التاريخ سيرة أحد منهم ؟ إن التاريخ لا يستطيع ذلك ، وكثير منهم لا يعرف الناس من شئون حياتهم وحقائق أحوالهم إلا أسماءهم ، وهم لا يحظون فى كتب التاريخ بمكانة ، وإنما تعدّ سيرتهم من علم الاساطير وخرافات الوثنية . ومن أحظاهم تاريخا وأحسنهم سمعة رجال فهاربتها وراماينا وأبطالها ، ومع ذلك فان سير أولئك الرجال لا تعدّ من التاريخ ، بل لا يعرف التاريخ زمانهم ، فضلا عن أن تتعين فى الزمان قرونهم أو تعرف من قرونهم سنوات حياتهم

لقد درس بعض علماء أوربا تاريخ الهند القديم درساً متواليا ، وقاسوا له أقيسة ، وذهبوا فى ذلك شوطا بعيدا ، فصاروا يعينون عهد عظماء الهنادك وأبطالهم تعيينا يرى علماء الهنادك وفضلاؤهم أنه مجازفة ورجم بالغيب ، وأكثر المحققين من علماء أوربا لا يعدون ذلك من التاريخ ، بل لا يعترفون بأن هؤلاء قد وجدوا فى العالم يوماً ما أو كان لما حيك حولهم من أساطير شبه

وجود . وان زردشت صاحب المجوسية لا يزال معظما عند كثير من أتباعه ، لكن التاريخ لم يكشف الحجاب عن وجوده الحقيقى بعد ، فهو لا يزال سراً غامضا من أسرار التاريخ حتى شك بعض المؤرخين من الامريكيين والاوربيين فى نفس وجوده . أما المستشرقون الذين يعترفون بوجوده التاريخى فانهم يثبتون بعض شئون حياته بظنون متباينة وأوهام متباعدة إثباتاً لا يروى غلة ولا يشفى علة ، فكيف يستطيع أحد أن يطمئن الى اتخاذ حياة زردشت أسوة لنفسه فى الحياة ما دام الشك وتضارب الآراء يحومان حول زمانه وبلده ونسبه وأسرته وشريعته ودعوته وكتابه ولغته وعام وفاته ومكان موته ، والروايات عن ذلك أوهام وأقيسة وظنون لا تغنى من الحق شيئا . ومع ذلك فان المجوس ليس لهم سبيل الى معرفة هذه الأمور المرتاب فيها إلا ما زعمه بعض المستشرقين والباحثين من أهل أمريكا وأوربا ، وان علم المجوس الأصلى بنبيهم وحياته وسيرته لا يعدو مافى الشاهنامة للفردوسى ، ومن ذا الذى يعذرهم فيما يعتذرون من أن كتبهم الدينية قد ذهبت بها حروبهم مع اليونانيين وأن أعداءهم أبادوها . ونحن ليس من غرضنا هنا إلا أن نثبت أنها غير موجودة ولا معلومة ، ولا يهمنا كيفية انعدامها وزوالها ، وهذا يدل على أن حياة زردشت لم تنل حظ الدوام والبقاء حتى أنكر أمثال Kern و Dermeletes شخصية زردشت ووجوده التاريخى

ودين (بوذا) أقدم الأديان وأوسعها نطاقاً وأكثرها انتشارا فى سالف الأيام ، وكان له سلطان على الهند والصين وآسيا الوسطى وأفغانستان وتركستان ولا يزال الى الآن فى سيام والصين واليابان وتبت ، وانما تقلص ظله وعفى أثره فى الهند على أيدى البراهمة ، وزال عن آسيا الوسطى بغلبة الاسلام ، لكنه ما برح موجوداً فى آسيا القصوى تحت ظل دولة قوية ذات مدنية وثقافة ناضرتين ، وهى اليابان التى لم تخضع بعد لأجنبى ، ولم يفتح بلادها فاتح (١)

(١) ألقيت هذه المحاضرة لما كانت اليابان فى أوج سيادتها قبل الحرب العالمية الثانية

ولسائل أن يسأل : هـل يقيم التاريخ وزنا لوجود بوذا ؟ وهل يقـدر مؤرخ على أن يعرض للناس صورة حقيقية لتاريخه ؟ وهل يستطيع كاتب أن يصف ظروفه وأحواله التى كان عليها فى حياته وصفا كاملا لا يغادر شيئا من تحديد زمن ميلاده ووطنه وأصول دينه كما دعا هو اليـه ومبادئ دعوته وأهدافها ؟ الذى نعلمه أن ذلك كله محجوب عن علم الناس بظلمات كثيفة متراكمة ، وكل ما أمكن للباحثين أنهم حاولوا تعيين زمان وجوده بحوادث راجوات بلاد (مكده) ولم يكن لهم سبيل سوى ذلك ، وتسنى لمؤرخ أن يقارن زمن هؤلاء الراجوات بملوك اليونان الذين كانت بينهم وبين راجوات مكده روابط

وأما دين الصين فلم نعلم عنه إلا قليلا بطريق الحدس ، ولم يصل العلم الى شئ يقينى عنه . و (كونفوشيوس) صاحب النحلة المعروفة فى الصين نعلم عنه أقل مما نعلم عن بوذا ، مع أن المتنسبين لطريقته الدينية يبلغ عددهم مئات الملايين

والأمم السامية بعث فيها مئات من الرسل ، لكن التاريخ لم يحفظ لنا عنهم إلا أسماء بعضهم ، ولا نعلم عن هؤلاء الرسل - من نوح وابراهيم وهود وصالح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى عليهم السلام - إلا بعض سيرهم وقليلا من صفحات حياتهم ، والذى نعلمه من ذلك لا يكاد يروى غلة أو يشفى علة . وحياة العظماء لها نواح وأطراف ، وتتخللها شعاب وعقبات ، فى أطوار وأدوار . وما دام الذى غاب عن علمنا من ذلك أكثر بكثير من الذى عرفناه ، فكيف يتسنى لمن شاء أن يتخذ من سيرتهم أسوة كاملة لحياته فى جميع أطوارها وهو لم يبلغه من سيرهم إلا قليل ؟

إن أسفار اليهود التى تضمنت سير هؤلاء الأنبياء قد خالج المحققين من العلماء ضروب من الشك فى كل سفر من هذه الأسفار . على أننا إذا ضربنا صفحا عن هذه الشكوك نرى سير هؤلاء النبيين فى تلك الأسفار ناقصة . مثال ذلك أحوال موسى المذكورة فى أسفار التوراة ، إن مؤلفى دائرة المعارف

البريطانية أنفسهم توصلوا إلى تحقيق أن هذه الاسفار دونت وجمعت بعد موسى عليه السلام بقرون كثيرة ، زد على ذلك أن التوراة الموجودة فيها لكل حادثة روايتان مختلفتان وحكايتان متباينتان كما حقق ذلك بعض علماء الألمان ، وربما دفع بعض هذه الروايات بعضا فتعارضت أولاها بأخراها . ونحن نواجه الوصف المتعارض فى سير الرجال والحوادث جميعا ، ومن أراد أن يزداد علما بهذا الموضوع فليراجع مادة (بايبل) فى الطبعة الأخيرة من دائرة المعارف البريطانية . وإذا كان الأمر كذلك فبأى منزلة من التاريخ ننزل حوادث العالم من آدم الى موسى عليهما السلام ، وكيف نقدر قدر التاريخ الصحيح الثابت فى هذه الأمور ؟

وأحوال عيسى عليه السلام وسيرته مكتوبة فى الأناجيل ، والأناجيل - كما تعلمون - كثيرة ، غير أن أكثرية المسيحيين اقتصرت على أربعة أناجيل . أما (أنجيل الطفولة) و (انجيل برنابا) وغيرهما فلا يعتبرونهما . ومع ذلك فان الاناجيل الاربعة التى اقتصروا عليها لم يلقَ أحد من الذين جمعوها سيدَنا عيسى عليه السلام . واذا تساءلنا : عمن رووا هذه الأناجيل ؟ نجد التاريخ يجهل ذلك كل الجهل . ويزداد المرء شكاً إذا توصل الى حقيقة أخرى وهى أن الرجال الأربعة المنسوبة اليهم هذه الأناجيل الأربعة لا يمكن القطع يقينا بأنهم هم الذين جمعوها فى الواقع . فاذا كان الاشخاص المنسوبة اليهم هذه الاناجيل لا يطمئن التاريخ الى صدورها عنهم فكيف يطمئن الى صحتها ؟

وزاد الطين بلة أننا لا نعلم يقينا اللغة التى كتبت بها هذه الاناجيل فى الأصل ، وفى أى زمان كتبت . فقد اختلف مفسرو الأناجيل اختلافا شديداً فى تعيين زمان جمعها وتدوينها ، فمن قائل انها كتبت سنة ٦٠ للميلاد ، ومن قائل انها جمعت بعد ذلك التاريخ بكثير . وذهب بعض نقدة العلماء الأمريكيين مذهباً بعيدا مستغربا فى أمر المسيح ولادته ووفاته ودين التثليث فأنكر ذلك الناقد الأمريكى وجود المسيح عليه السلام قائلا ان هذا كله من الاساطير ،

وان ما ذكروه عنه انما هو بقية من بقايا وثنية الروم واليونان ، إذ أن تلك الأمم كانت تدين بمثل هذه الافكار والعقائد فى آلهتهم وأبطالهم القدماء .
وقد استمر الجدال أشهراً حول وجود عيسى عليه السلام فى مجلة (روبن كورت) التى تطبع فى شيكاغو ، ودار البحث عما اذا كان للمسيح وجود تاريخى أم هو مما ابتدعته أوهام القدماء من الأمم السالفة واختلقته اختلاقا .
أليس كل هذا مما يوهن الأمر فيما يتعلق بعرض سيرة المسيح عليه السلام وموقف التاريخ من ذلك ؟ ونعود فنقول : كيف يمكن اتخاذ الاسوة الكاملة التى تطمئن لها القلوب إن لم تكن جميع نواحى الحياة فى الشخصية المقتدى بها معلومة ، وليس فيها ما يجهله الناس وما هو مكتوم عنهم وراء حجب التاريخ .
ان المقتدى به والذى يتخذ الناس من حياته اسوة لابد أن تكون حياته كلها واضحة صافية كالمرآة وليلها كنهارها لتتبين للناس المثل العليا التى يحتذونها فى حياتهم بجميع أطوارها ومناحيها

إذا نظرنا إلى حياة أصحاب النحل ودعاة الملل وهداة البشر من الأنبياء والرسل نظر الناقد البصير ، وتأملنا هديهم وسيرهم ، لم نجد فيمن تقدم ذكرهم من يمكن أن يتخذ من حياته مثل أعلى للحياة الانسانية إلا محمداً ﷺ وهديه وسيرته ، فهو الذى أرسله الله ليكون فيه أسوة لبنى آدم فى جميع نواحى حياتهم وأطوارها وأحوالها . وقد سبق لنا القول بأنه ليس فى مئات الألوف من المصلحين والنبيين من يشهد لهم التاريخ إلا ثلاثة أو أربعة ، ومع ذلك فان التاريخ لا يعرف من تفاصيل أحوالهم وشئون حياتهم ودخائل سيرتهم إلا نزراً يسيرا وغير كامل ، فكيف يتسنى للانسان أن يتخذ من ذلك أسوة لحياته ذات النواحى المختلفة ؟

أليس من المستغرب أن بوذا الذى يبلغ عدد المنتسبين اليه ربع سكان المعمورة ولا يحفظ التاريخ من سيرته إلا عدة أقاصيص وحكايات لو أننا نقدناها بمقاييس التاريخ لنتخذ لانفسنا قدوة من حياته وسيرته لخرجنا من

ذلك خاسرين . إن احدى تلك الأقاصيص تنبئنا بأنه ولد فى زمان غير معلوم فى واد من أودية (نيبال) فى بيت راجه ، فكان ذكيا وذا طبيعة متوثبة وله نفس متدبرة وقلب حساس . فلما بلغ أشده وتزوج وصار أبا ، اتفق أن رأى جماعة من الفقراء والبؤساء فأثر فيه منظرهم المؤلم وأثار فى نفسه كامن الرحمة والشفقة ، فخرج من وطنه هائماً على وجهه حتى بلغ (بنارس) ثم (كيا) و (پاپلى بتر) وهى (بتنه) ثم (راجكير) وهى (بهار) وتاه فيما بين ذلك من جبال وغابات ومدن وقرى ، ولم يزل هائما على وجهه متجولا بين هذه البقاع النائية حتى بلغ فى تجواله الى (كيـــا) فتجلت له الحقيقة المحجوبة وهو تحت شجرة من اشجار بيبل فرأى نور الحق ساطعا ، وادَّعى أنه أدرك سرّ الحقيقة ، فخرج يدعو الناس الى دينه بين (بنارس) و (بهار) ثم مضى لسبيله . هذه جملة ما نعلم من سيرة بوذا وحياته

وزردشت يعد واحداً من الذين أسسوا بنيان الدين وبدأوا بالدعوة اليه ، وقد أسلفنا أن حياته مجهولة كذلك ، ولا يتتبع أثرها الا أهــل القياس والاستنتاج من علماء التاريخ . وأنا لا أقول شيئا من عند نفسى فى سيرة زردشت ، بل أعرض عليكم نبذة مما كتب عنه فى دائرة المعارف البريطانية للقرن العشرين ، وهى تعد من أوثق المصادر فى التاريخ :

« إن زردشت الذى عرفناه من أبيات شعرية فى (كاثا) غير زردشت الذى نراه فى (وستا) الجديدة ، فالموصوف فى المصدر الأول مباين للمذكور فى المصدر الثانى ومضادّ له . وعلى كل فان الاسطورة التى تشتمل على الحياة المستغربة (وقد نقل الكاتب شئونا فى سيرته من كاثا) لا تدلنا على حياة زردشت دلالة واضحة ، ولا تهدينا السبيل الى معرفته معرفة تاريخية ، بسبب ما نجد فيها من غموض لا ندرك معناه

وأخذ الكاتب يسرد المصنفات التى وضعت فى هذا العصر عن حياة زردشت وقال : إن مولده لم يعين بعد ، والشهادات على ذلك يناقض بعضها

بعضا . والعهد الذى كان فيه زردشت مجهول كذلك ، فالمؤرخون من اليونان اختلفوا فيه اختلافا شديدا ، كما اختلف علماء عصرنا فى تعيين عهده ، وانتهى كاتب ترجمته فى دائرة المعارف البريطانية الى القول بأننا لا نعلم زمن زردشت ألبتة ونجهله جهلا تاما

وخلاصة ما نعلمه عن حياة زردشت أنه ولد فى مقاطعة أذربيجان ، ونشر دعوته فى بلخ وأطرافها ، وأن الملك هشتاسب دخل فى دينه ، ثم ظهرت على يده معجزات ، وقد تزوج وولد له أولاد ثم توفى . فهل يظن أحد أن هذه المعلومات عن حياة رجل صاحب دعوة تكفى لأن يتخذ من حياته أسوة ، وأن يقتدى به فى جميع مراحل الحياة فيكون للناس سراجاً يستضيئون بنوره فى تصرفاتهم وسلوكهم ؟

ومن أكثر الأنبياء ذكراً وأوضحهم حياة موسى عليه السلام . ترى ماذا تقول أسفار التوراة الخمسة عن حياته ؟ ذلك ما نستعرضه بلا أى نقد لما فيه من روايات ضعيفة ، وغير متعرضين الآن لذكر صحتها أو سقمها ، بل نوردها مفترضين صحتها

لا نجد فى هذه الأسفار الخمسة من التوراة عن حياة موسى إلا أنه بعد ولادته تربى فى قصر فرعون ، ولما بلغ مبلغ الرجال نصر قومه بنى إسرائيل على ظلم فرعون مرة أو مرتين ، ثم هرب من مصر الى (مَدْيَن) من بلاد العرب وتزوج فيها وأقام هناك برهة من الزمن ، ثم رجع منها الى مصر ، وبينما هو فى طريقه اليها أوحى اليه من ربه ، وبعث الى قومه نبيا داعيا ، ثم لقى فرعون وأراه آيات بينات ، واستأذنه فى الخروج ببنى اسرائيل من مصر فلم يأذن له بذلك ، فخرج بهم على حين غفلة من فرعون ، ووجد فى البحر طريقا باذن الله ، وتبعه فرعون فأدركه الغرق . أما موسى فقصد بقومه الى بلاد العرب ، ودخل بهم أرض الشام ، وجاهد من كانوا على الشرك من أهلها وما زال يقاتل ويجاهد إلى أن هرم وبلغ من العمر عتيا وأرعشه الكبر ،

فجاءه الموت وهو على ربوة . وقد اختتم سفر التثنية بهذه الفقرات (٣٤ : ٥ — ١٠) :

« إن عبد الله موسى مات باذن الله فى أرض موآب ، ودفنـــه الله فى الجواء فى أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم . وكان موسى ابن عشرين ومائة سنة حين جاءه الموت . . . ولم يقم بعدُ نبي فى إسرائيل مثل موسى »

هــذه الفقرات نقلناها من سفر التثنية وهو السفر الخامس من التوراة الموحى الى موسى عليه السلام . ولا يخفى على ناظر هذا السفر أن الكلمات التى نقلناها لم ينطق بها موسى عليه السلام ، وهذا يدل على أن هذا السفر كله ، أو جزءه الاخير على الأقل ، ليس لموسى ، وإن الدنيا تجهل كاتب هذه السيرة لموسى

ومما يلفت نظر القارئ قول القائل فى هذا السفر « ولم يعرف انسان قبره (أى قبر موسى عليه السلام) إلى اليوم » وقوله « ولم يقم بعدُ نبى فى إسرائيل مثل موسى » . إن هاتين الفقرتين تدلان على أن هذا الجزء الأخير من سيرة موسى عليه السلام قد أضيف إلى كتاب حياته بعد أيام طويلة ذهبت فيها يد الدهر بآثار هذا المزار العظيم والمشهد الكبير حتى عمى محــله عن الأجيال التالية ونسوه ، بل أضيف هــذا الجزء من سيرة موسى الى سفر التثنية بعد زمان طويل كان يرجى فيه أن يقوم فى إسرائيل نبى يسدّ فراغ موسى ، فنوّه كاتب السفر بأنه لم يقم بعدُ مثله

إن موسى عليه السلام عمّر طويلا ، وقد نسأ الله فى أجـله حتى عاش عشرين ومائة سنة ، فما الذى نعرفه عن حياته الطويلة ، وبأى الأعمال شغل فراغ حياته المباركة ، وما هى النواحى التى نعلمها واضحة مفصلة من سيرته الحافلة بكثير مما كان ينبغى أن يعلم لتحسن به الأسوة ؟ إننا لا نعلم إلا مولده وشبابه وهجرته وزواجـه وبعثته ثم قتاله المشركين الى أن لقيناه مرة أخـرى وهو

يرتعش من الكبر وقد أدركه الهرم وبلغ من العمر عشرين ومائة سنة . وهل يغنينا ذكر ما يتعلق بحياته الخاصة مما يمس بكل إنسان فى حياته وبيئته العادية ؟ إن الأمور التى كان يحتاج البشر الى معرفتها من حياة موسى الاجتماعية هى الأخلاق والعادات والهدى ، وكل ذلك لا نجده فى سيرته . أما ذكر أسماء الرجال وأنسابهم وأماكنهم وبلادهم وعددهم فما لا يهمنا علمه فى مقام القدوة والاسوة والهداية ، مع أنه هو الذى نراه مفصلا فى التوراة . وكذلك نرى فيها شيئا كثيرا من القوانين والمبادئ والأصول ، لكن هذه الأمور والتى سبقتها مهما تكن أهميتها عند علماء الجغرافيا والانساب والحقوق فانها لا تعنينا نحن من جهة الاسوة والقدوة فى الحياة ولا تسد الخلل الواقع فى سيرة موسى عليه السلام من هذه الناحية التى لا يكمل بيانها إلا بذكر أخلاقه وشئون حياته وأحواله فى معاشرته ، وهو مالا بد منه ليتخذه البشر مثالا يعمل به

ومن أقرب الأنبياء عهداً بالاسلام عيسى عليه السلام الذى يزيد عدد المنتسبين اليه بحسب إحصاءات الاوربيين على عدد المنتسبين الى الديانات الاخرى ، وإن المرء ليستغرب حين يعلم أن شئون حياته وأحوال معيشته أخفى من غيره وأغمض ، وقد أسدل الزمان عليها حجاباً أكثف مما نراه فى حياة العظماء الآخرين من الرسل الذين يعدّون من أصحاب الأديان المشهورة . وإن أوربا المسيحية قد حملها حافز البحث والكشف على أن تستثير بطون الصحارى وقلل الجبال واطراف الصخور والاطلال الدارسة ومظانّ الآثار ومجالات الحوادث التى مرت عليها الأحقاب الطويلة ، فكتب المستشرقون التاريخ القديم لبابل وأثور والعرب والشام ومصر وإفريقية والهند وتركستان وأخذوا يلائمون بين الحوادث القديمة المجهولة الزمن ويعرضونها على الناس واضحة نقية منسقة مرتبطا بعضها ببعض ، وطفقوا يعثرون على الصفحات المفقودة من كتاب التاريخ القديم للبشر ، إلا أنهم قد أعياهم البحث والفحص فلم يجدوا الصفحات المفقودة عن حياة نبيهم . وقد استفرغ العلامة رينان

جهده ولقى من العناء والنصب مبلغا عظيما ليقف على حياة عيسى كاملة تامة ، ومع ذلك فان شئون عيسى عليه السلام وأحواله لا تزال سراً مكنونا فى ضمير الزمن لم يبح به لسانه بعد

إن عيسى عليه السـلام عاش فى هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة كما يروى الإنجيل ، والأناجيل الموجودة فى الأيدى — على مافى رواياتها من ضعف ولبس — مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث سنوات من أواخر حياته وحسبُ ، فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد ، وجيء به الى مصر ، وأراه الله آية أو آيتين فى صباه ، ثم غاب عن الناس وظهر لهم وهو فى الثلاثين من عمره ، فنراه قائما يعظ الملاحين وصيادى السمك على الشواطيء وفى بعض الربوات ، فصحبه جماعة من حوارييه ، وقد جادل اليهود وناظرهم فى بعض الأحيان ، إلى أن حمل اليهودُ الحكامَ الروميين على القبض عليه ورفع أمره الى محكمة يرأسها قاض من الروم فقضى عليه بالصلب ، وبعد ثلاثة أيام وجد قبره خاليا من جسده عليه السلام

أين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة على الاقل من حياته؟ وفيمَ قضاها؟ وبأى الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئا ولن تعلم . والسنوات الثلاث الأخيرة ماذا نجد فيها؟ آيات ومعجزات معدودات ، وبعض العظات ، ثم قيل انه صلب فانطوت صحيفة حياته

من الشروط المحتمة التى لابد منها لكل من يرجى أن تكون سيرته وهدايته أسوة للبشر : الكمال ، والتمام ، والجمع . والمراد بالكمال والتمام والجمع أن الطوائف الانسانية المتفرقة ، والطبقات البشرية المختلفة تحتاج إلى أمثلة كثيرة ومتنوعة تتخذها منهاجا لحياتها الاجتماعية . وكذلك الافراد فى المجتمع البشرى هم فى حاجة إلى مثل عليا يقتدون بها فى مناحى حياتهم البيتية لتتوثق الروابط بين الافراد ، وتحسن العلاقات بين شتى الطوائف فى داخل

الأسرة وخارجها . لذلك ينبغى أن تكون تلك المثل كلها واضحة فى حياة الانسان العظيم الذى يتخذ مثالاً فى الحياة . وإذا صحت هذه النظرة ـ وهى صحيحة ـ لم نجد فى سالف الايام قدوة واضح الحياة غير محمد خاتم النبيين عليه وعليهم السلام . والدين هو طاعة المخلوق للخالق ، وبالدين يتعلم المرء ما فرضه الخالق على خلقه من فرائض وما أوجبه من واجبات ، فيؤمن بها ويحققها بالعمل . وإذا أردنا أن نعبر عن الدين بعبارة أخرى قلنا هو القيام بحقوق الله وحقوق خلقه ، إذن فيجب على كل متبع لدين أن يتعرف هذه الحقوق والفرائض والواجبات من سيرة نبيه والأحوال التى كان عليها صاحب ملته ثم يقتدى بها ويفرغ حياته فى قالبها . وإذا نظرنا الى سير الانبياء هذه النظرة وحاولنا معرفة حقوق الله وحقوق خلقه كاملة تامة من سيرتهم ، لم نجد ذلك إلا فى سيرة محمد ﷺ المبعوث الى الناس كافة

والديانات إذا تأملناها يبدو لنا أنها على نوعين : نوع لا نجد فيه ذكر الله تعالى البته ، ومن هذا النوع دين بوذا ودين الصين ، فليس فيهما ذكر لله تعالى ولا لصفاته ، وليس فيهما فرائض وواجبات على الانسان ، ومن باب أولى ليس فيهما ذكر للحب فى الله وتوحيده والاخلاص له ، فالذى يبحث فيهما عن هذه الأمور لا يخرج من بحثه بشئ

ونوع آخر ورد فيه ذكر الله عز وجل ، وسلموا فيه بوجوده على وجه ما ، وآمنوا به إيمانا بالجملة ، لكنك لا ترى فى سير أنبيائه أو فى تعاليم دعاته ما يعرف منه الانسان كيف يعتقد بربه ، وكيف يؤمن به ، وبأى الأوصاف يصفه ، وكيف كان هؤلاء يعتقدون بالله وإلى أى حد تأثروا بتلك العقائد فى أعمالهم وأخلاقهم ، وفى أى صورة من صور الاعمال تجلت عقائدهم وبرزت للوجود . كل هذا لا ترى له أثراً فى سير هؤلاء . اقرأ التوارة واستقص النظر فى فصولها وفقراتها وتدبر ذلك ما استطعت فانك لن تجد فيها إلا توحيد الله وشرائط القربان وشيئا من الأحكام ، أما إذا أردت أن

تعرف من الأسفار الخمسة التي تتألف منها التوراة شيئا عما كان في قلب موسى عليه السلام من الحب لله والشوق للقائه ، وكيف كان يطيع الله ويعبده ، وكيف كان توكله على الله ويقينه به ، وكم أثرت الصفات الالهية على قلبه ، فانك لا تجد فيها شيئا من ذلك . ولو كانت الشريعة الموسوية وأحكامها عامة للبشر دائمة بدوام الدهر لكان واجباً على أتباع موسى عليه السلام أن يقيدوها بالحفظ والكتابة وأن يصونوها من عبث الدهر بها ، لكن الله عز وجل لما لم يرد أن تكون شريعته عامة خالدة لم يتح لها هذه العناية في الحفظ والتخليد

والانجيل مرآة صافية تجلت فيها حياة عيسى عليه السلام ، لكننا نجد فيه أن الله (تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيرا) هو أبو عيسى عليه السلام . أما كيف كانت رابطة الأبوّة بين هذا الولد المقدّس ووالده ، فان الولد يخبرنا بأن أباه كان يحبه حبا جما ، لكننا لم نعلم الى أى حد بلغ حب الولد لوالده وكيف كانت طاعة الابن لأبيه ، وهل كان يركع له ويسجد فى النهار أو فى الليل ، وهل سأله شيئا غير خبز يومه ، وهل دعا أباه بدعوة فى ليلة من الليالى قبل الليلة التى اعتقل فى نهارها ؟ إننا لا نعلم هذا ولا ذاك

ولو أن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام المذكورة فى الانجيل تحتوى على بيان العلاقة بين المخلوق وخالقه وتهدى المرء الى ذلك هداية تامة لما احتاج أول ملوك المسيحية أن يعقد مجلساً شهده ثلاثمائة حبر من أحبار الكنيسة بعد ثلاثة قرون ونصف قرن من المسيح ، ليبتوا الحكم فى أمر المسيحية . ومع ذلك بقى أمر سيدنا عيسى عليه السلام سراً من أسرار الزمان ، وسيبقى سراً فى ضمير الزمان لا يعرب عنه لسان البحث

هذا فيما يتعلق بحقوق الله ، أما حقوق الخلق فلا نراها مفصلة أحكامها ، محكمة أصولها وأركانها ، فى سيرة أحد من الانبياء وتعاليمهم ، غير محمد ﷺ

أما بوذا فانه منذ هجر أهله وعياله الى الصحارى والغابات لم يرجع قط الى حليلته التى كانت حبيبة الى قلبه ، ولم ير ولده الوحيد مرة أخرى ، وترك

خلانه وأحباءه ، فخفف عن كاهله أعباء الحكم ، وارتضى الموت آخر وسيلة له الى النجاة ، فكان الاجل المحتوم الغاية القصوى للحياة البشرية عنده . فمن ذا الذى يرضى بأن يتخذ من حياة بوذا اسوة فى هذه الدنيا التى لا بقاء لها ولا عمران الا بالحياة الاجتماعية والروابط العمرانية والأواصر الانسانية ، ولا بد فيها من راع يرعى رعيته ، وصديق يألف صديقه ، ووالد يشفق على ولده ، وأم تحنّ على فلذة كبدها . وهل فى حياة بوذا شئ من ذلك يكون به أسوة للجميع : من الرهبان الذين انقطعوا للآخرة ، الى الآباء ذوى العيال وأصحاب الضياع والمزارع والمصانع والأموال ؟ كلا ثم كلا ، لم تكن سيرة بوذا قط أسوة للهناء العائلى ، ولا لأهل الصناعات والمتاجر ، ولو اتخذ أتباع بوذا قدوة لهم من حياة بوذا لما قامت لهم هذه الدول فى الصين واليابان وسيام وتبت وبُرما ، ولما عمرت للتجارة فى بلادهم سوق ، ولا دبت الحياة فى صناعاتهم ومصانعهم . ولو اختار أهل تلك البلاد سيرة متبوعهم سيرة لهم وساروا عليها لأقفرت الأرض العامرة وتحولت الى صحارى قاحلة ، ولاصبحت المدن خراباً أو أرضا جرداء

وأما موسى عليه السلام فلا نعلم عن حياته - حسب الاسفار الخمسة من التوراة - إلا قتاله وقيادته فى الحرب وبسالته فيها . أما النواحى الأخرى من حياته كالحقوق فى أمور الدنيا والفرائض والواجبات فلا نتبينها بوضوح وجلاء ، لذلك يتعذر على المرء أن يتخذ منها أسوة فى أعماله . ومن يحاول أن يقف على ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الزوج وزوجه ، والولد ووالده ، وشروط الصداقة بين الصديقين ، وأساليب الهدنة بين الفريقين المتقاتلين ، وكيف ينفق المرء أمواله وفيم ينفقها ، وكيف يعامل اليتامى والفقراء والمساكين ، فان من يحاول معرفة ذلك من سيرة موسى عليه السلام فسيرى أن صحيفة حياته قد خلت من ذكر هذه الامور ، مع أن موسى كان له زوج وإخوة وأقارب ، ولا ريب أن موسى كان يعاشرهم أحسن معاشرة

فكان خير زوج لأهله وأفضل أخ لإخوته وأوفى صديق لأصدقائه ، والاسوة به فى ذلك كله مرغوب فيها محمود أثرها ، لكن كتبهم التى استعرضت سيرته خالية من ذلك . والتاريخ لم يطرق سمعه شيء عن هذه الأنباء من حياة موسى ليتسنى للناس أن يتخذوا منها أسوة فى الحياة

وكان لعيسى عليه السلام أم ، والانجيل يخبرنا بأنه كان له أخ وأخت بل أنه كان له والد أيضاً كما يكون لعامة الأبناء آباء وأمهات ، لكن قصة حياته لا تدلنا على كيفية معاملته لذويه وكيف كان يعاشرهم ، مع إن الدنيا معمورة بالإخوة والخلان وذوى القربى ، وستبقى حافلة بهم ، وقد اعتنت الديانات بحقوق هؤلاء وأولئك وفرضت كثيراً من فرائضها المتعلقة بحقوق الأسرة والعائلة ، وحثت على القيام بتلك الفرائض

إن عيسى عليه السلام عاش عيشة المغلوبين المحكومين ، فلا غرو إذا لم نجد فى حياته مثالا من واجبات الحاكم الغالب . ولم يكن له عليه السلام زوجة لذلك لا نرى فى حياته مثالا لما ينبغى أن يتبادله الزوج والزوجة من واجبات وحقوق ، خصوصاً وان الذى بين الزوجين من الصلة أوثق وأشد من الذى بين الأولاد وآبائهم كما جاء فى سفر التكوين من التوراة (١) أن هذه الدنيا معظم سكانها يعيش عيشة الزواج والمناكحة فليس له فى حياة عيسى عليه السلام مثال . وإن العالم الذى يحتاج سكانه فى حياتهم الى أسوة تامة ليعلموا كيف تكون الرابطة بين الزوج وزوجه ، وبين الصديق وأصدقائه ، والأب وبنيه والمقاتل وأعدائه ، والهدنة بين المتحاربين وكيف تنعقد لا يستطيع أن يجد له أسوة فى حياة من لا يجد لهذه الأمور ذكراً فى سيرته . ولو أن الناس فى أيامنا هذه آثروا التأسى بحياة عيسى عليه السلام وأرادوا أن يعيشوا كما عاش لخربت الدنيا واستحال عمرانها خرابا يبابا ولأصبحت القرى مقابر تتردد

---

(١) لعل المؤلف يشير الى ما جاء في سفر التكوين (١ : ٢٧ و ٨ : ١٥ — ١٩)

فى أنحائها أصوات البوم . أما الحضارة وتقدمها فسرعان ما يعتريهما الزوال ويمحى اسمها ، وأوربا المسيحية لن تبقى بعد ذلك يوماً واحداً

إن الحياة المثالية لن تكون أسوة للناس مالم تكن أعمال صاحبها - الذى يؤسس ديناً ويدعو الناس اليه - مثالاً وأنموذجا لما يدعو اليه ، ولا يتطرق الشك الى الناس بأن ما يدعو إليـه هو مما يعمل به . ومن السهل أن يدعو الداعى إلى فلسفة تحظى باعجاب الناس ، وإلى فكرة يستحسنونها أو نظرية جديدة فى الحياة تروق لهم ، وكل ذلك مما يقدر عليه كثير من النـاس متى شاءوا وأين شاءوا . أما الذى لا يستطاع دائما فهو عمل الدعاة بما يدعون اليه . وليست الأفكار الصحيحة والنظريات الشائقة والأقوال الحسنة هى التى تجعل الانسان انسانا كاملا وتجعل من حياته أسوة للناس ومثلا أعلى فى الحياة بل أعمال الداعى وأخلاقه هى التى تجعله كذلك . ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين الخير والشر ، ولما تميز المصلح عن غيره ، ولامتلأت الدنيا بالثرثارين والمتفيهقين الذين يقولون مالا يفعلون

وهنا ينبغى لنا توجيه السؤال الى العالم أجمع : من ذا الذى تعد حياته أسوة للبشر ، وفيها المثل الأعلى للبشر ، من بين مئات الألوف من الرسل والأنبياء وعظماء المصلحين ممن شرعوا للانسانية دياناتها وسنوا السنن للناس ؟

« تحب الربَّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . أحبب أعداءك . من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر أيضاً . من سخّرك ميلا فاذهب معه ميلين . من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . اذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء . واعفُ عن أخيك سبعين مرة . يعسر أن يدخل غنى الى ملكوت السماوات »

إن هذا وأمثاله لا شك أنه من الموعظة الحسنة المحببة الى النفوس ، لكنها لا تعد سيرة مالم يقترن بها العمل . نعم انها قول لين وحديث لذيذ ، ولكن

الذى لا يغلب عدوه كيف يتسنى له العفو ، ومن لا يملك ومن لا يكون له مال كيف يتصدق على الفقراء والمساكين واليتامى ، وكيف يقضى لهم حاجاتهم ؟ ومن لا زوج له ولا ولد ولا أهل كيف تكون حياته أسوة للازواج وذوى البنين والمتأهلين وهم هم الناس الذين تعمر الدنيا بهم ؟ ومن لم يتفق له أن يصفح عن أحد فى حياته كيف يقتدى به من كان شديد الغضب سريع البادرة ؟

الحسنات قسمان : قسم سلبى ، وآخر إيجابى . وأنت إذا اعتزلت الدنيا فى غار بسفح جبل تعبد فيه ربك ولم تبرحه طول حياتك ، تصرف فيه أوقاتك بالتبتل الى الله ، فان أحسن ما يقال فى مدحك انك اتقيت الشر ولم تقترف سيئة تذم عليها . وذلك من الحسنات ، إلا أنها حسنات سلبية . ولكن ماذا فعلت من الناحية الإيجابية من خير : هل حملت كلاً ، أو نصرت مظلوما ، أو كسبت معدما ، أو أطعمت جائعاً ، أو كسوت عاريا ، أو ساعدت فقيرا ، أو ذدت عن ضعيف ، أو هديت ضالا ؟ إن الاخلاق الحسنة ومكارمها من العفو والسماحة والقرى وبذل المال والصدع بالحق والحمية فى قمع الباطل والجهاد فى أداء الواجب لا تعد مكارمَ أخلاق لأجل ترك الدنيا والتبتل فى عزلة عن المجتمع . وليست الحسنات من الأمور السلبية فحسبُ ، بل معظم الحسنات ترجع الى العمل الايجابى الذى يقوم به المرء ، ولا يكفى فيها ترك المعاصى واجتناب السوء . وهذا كله يدل على أن حياة العظيم لا تكون فيها الأسوة للناس مالم تصدر عن صاحبها الاعمال الايجابية المحمودة والأخلاق النافعة الكريمة مما يوافق الحياة المثالية Idial life ، وأى عمل يعمله المتأسى إن لم ير لمن يأتسى به أعمالا إيجابية تتم بها الحياة الصالحة فى شتى أطوارها . إن الانسان ينشد مثالا يقتدى به فى كل عمل يقدم عليه فى غناه وفقره وفى سلمه وحربه ، ويتحرى السبيل الذى يسلكه إذا تزوج أو بقى عزَباً ، ويريد أنموذجاً عالياً يأتمُّ به إذا عبد ربه أو عاشر الناس ، ويحاول أن يلم بالقوانين التى ينبغى العمل بها بالنسبة الى الراعى والرعية والحكام والمحكومين . جميع

هذه الأمور ينبغى للمرء أن يتخذ لنفسه القدوة فيها ، لأن الأمم قد التوت عليها هذه المسألة فأهمها التماس الطريق الموصل الى حل هذه المعضلات وتذليل هذه المصاعب . ومعظم الشعوب تشعر بالحاجة الشديدة الى المثل العليا فى ذلك لتخفف عن الانسانية آلامها وتأسو جراحها ، وهى متلهفة على مثال لذلك من الأعمال ، لا على مثال عليه من الأقوال

ولست بمبالغ إذا قلت : إن التاريخ أصدق شاهد على أنه ليس فى الدنيا أحد يصح أن تكون للانسانية اسوة من سيرته وحياته غير سيرة محمد ﷺ وحياته

وليكن على ذكر منكم ما تحدثت به اليكم من قبل ، وهو أن حياة العظيم التى يجدر بالناس أن يتخذوا منها قدوة لهم فى الحياة ، ينبغى أن تتوفر فيها أربع خصال :

١ — أن تكون « تاريخية » ، أى أن التاريخ الصحيح الممحص يصدّقها ويشهد لها

٢ — أنَ تكون «جامعة» أى محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شئونها

٣ — أن تكون « كاملة » ، أى أن تكون متسلسلة لا تنقص شيئا من حلقات الحياة

٤ — أن تكون « عملية » أى أن تكون الدعوة إلى المبادئ والفضائل والواجبات بعمل الداعى وأخلاقه ، وأن يكون كل ما دعا اليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به فى حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية ، فأصبحت أعماله مثلا عليا للناس يأتسون بها . وأنا لا أقول إن الانبياء صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدة وجودهم فى الحياة الدنيا ، بل أقول ان سيرتهم التى توجد الآن بين أيدى الناس لا تنصّ على هذه الأمور ، ويخيّل إلىّ أن الحكمة الإلهية فى ذلك ترجع إلى أن أولئك الأنبياء إنما بعثوا لأزمانهم وشعوبهم ، فكان الموفقون للخير من شعوبهم فى أزمانهم يرون سيرتهم فيأتسون بها ،

ولم يكن هنالك حاجة إلى أن تبقى سيرتهم معلومة للأجيال التالية بعدهم لأن النبوّات ستختم برسالة محمد ﷺ الكاملة الى الناس كافة فى كل زمان ومكان ، فمست الحاجة إلى أن تكون سيرته ﷺ معلومة على حقيقتها فى كل زمان ومكان الى يوم القيامة ، ليتيسر التأسى بها لجميع أمم الأرض . وهذا من أصدق البراهين على كون محمد ﷺ خاتم النبيين ولا نبى بعده ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين ﴾ الأحزاب : ٤٠

المحاضرة الثالثة

السيرة النبوية ، من الناحية التاريخية

أيها السادة . قلنا فيما سبق إن الحياة المثالية جدير بها أن تكون مشتملة على خصال أربع . وسننظر الآن إلى سيرة محمد ﷺ من هـذه النواحى ، وأولها أن تكون سيرة « تاريخية »

لقد شهدت الدنيا أصدق شهادة ، ثم ازداد ذلك ثبوتا على الأيام ، بأن الاسلام لم يقتصر على حفظ سيرته ﷺ ، بل توسع فى ذلك إلى ما يتعلق بها من كل النواحى ، وصان هذه الأمانة القدسية فلم تلمسها يد الضياع ، ولم تعبث بها عوامل الدهر ، الى درجـة أن العالم كله يقف من ذلك موقف العجب والاستغراب . والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النبوى على حفظ أقوال النبى ﷺ ورواية أحاديثه وكل ما يتعلق بحياته أدوها الى من ضبطوها بعـدهم وكتبوها وصاروا يسمون « رواة الحديث » أو « المحدّثين » و « أصحاب السير » ، وهم طبقات متسلسلة من « الصحابة » و « التابعين » و « تابعى التابعين » حتى وافى القرن الرابع . فلما كملت هذه الذخيرة التاريخية جمعاً وكتابة وتدوينا جعل العلماء يكتبون سير هؤلاء الرواة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء الذين رووا شيئا مما يتعلق بحياة رسول الله ﷺ ، فكتبوا أسماءهم وكناهم وأنسابهم ومنشأهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وبالجملة أحصوا شئون حياتهم كلها حتى أصبح ما كتبوا فى هذا الباب علماً مستقلا سمى فيما بعد « علم أسماء الرجال (١) »

---

(١) إن العالم الألماني المعروف الدكتور سپرنكر كان فى سنة ١٨٥٤ وما بعدها موظفا فى ديوان من دواوين المعارف فى ايالة البنغال وأمين السر للجمعية الاسيوية فيها . وقد عني =

وقد بلغ عدد الصحابة رضى الله عنهم فى آخر حياة النبى ﷺ — عندما حج حجة الوداع — مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابى مذكورة أسماؤهم وأحوالهم فى كتب التاريخ التى أفردت لتدوين أحوالهم خاصة . وإن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد منهم حفظ شيئا من أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته

لقد توفى رسول الله ﷺ سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقى فريق من كبار الصحابة بعده الى سنة ٤٠ ، وبقى بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحداثا فى حياة النبى ﷺ عدد غير قليل . فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل سراج أوقد بنور النبوة . وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التى ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم :

آخر الصحابة موتا	المدن التى توفوا فيها	سنة الوفاة
١ - أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ - عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦
٣ - عبد الله بن أبى أوفى	الكوفة	٨٧
٤ - السائب بن يزيد	المدينة	٩١
٥ - أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وأنس بن مالك هذا الذى كان آخر من بقى من الصحابة كان الخادم الخاص لرسول الله ﷺ ، استمر فى خدمته عشر سنوات متوالية

= بكتاب المغازى للواقدي ، ونشر بعناية فان كرامر وتصحيحه سنة ١٨٥٦ ، وبعنايته طبع كتاب الاصابة فى أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى . وقد ادعى أنه أول أوربى كتب فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم معتمدا على المصادر العربية الأولى ولم يعتمد فى تأليفه إلا عليها . ومع أنه — فى الحقيقة — لم يكتب كتابه دفاعاً عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم بل كان متحاملا عليه ومخالفا له ، إلا أنه قال فى مقدمته بالانجليزية على كتاب الاصابة المطبوع فى كلكته سنة ١٨٥٣ — ١٨٦٤ : « لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة ، أتت فى علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هذا العلم العظيم الخطر الذى يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم »

أما التابعون الذين هم تلاميذ الصحابة فيبدأ تاريخ طبقتهم من السنة الأولى للهجرة ، ومنهم من ولد فى عهد النبي ﷺ لكنه لم يتشرف برؤيته ، أو كان فى العهد النبوى صغير السن فلم يحظ بالصحبة ولم يقدر له أن ينال قبسا من مشكاة النبوة ، كعبد الرحمن بن الحارث المولود سنة ٣ ، وقيس بن أبى حازم المولود سنة ٤ ، وسعيد بن المسيب المولود سنة ١٤ . وهؤلاء التابعون الذين ينزلون المنزلة الثانية بعد الصحابة فى نشر الاسلام وتبليغ دعوته قد حملوا الرسالة المحمدية الى الانحاء النائية والبلاد المترامية الأطراف ، ولم يكن لهم هم فى الدنيا إلا حفظ الدين ونشر أحكامه ، وتبليغ الاسلام وتعميم سننه وآدابه ، والتعريف بسيرة الرسول ﷺ وهديه . وقد ذكر ابن سعد فى الطبقات ١٣٩ من التابعين أهل الطبقة الاولى الذين كانوا فى المدينة وأدركوا كبار الصحابة وسمعوا منهم أحاديث النبى ﷺ ورووها عنهم . وذكر ١٢٩ من الطبقة الثانية الذين لقوا عامة الصحابة ورووا عنهم . أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظى الواحد منهم برؤية صحابى واحد أو عدة من الصحابة ، وعدد هؤلاء ٨٧ ، فمجموع عدد التابعين ٣٥٥ فى مدينة واحدة وهى مدينة الرسول ﷺ ، فقيسوا على ذلك عدد الذين أخذوا عن الصحابة فى بقية المدن الاسلامية التى انتشر الصحابة فيها من مكة الى الطائف والبصرة والكوفة ودمشق واليمن ومصر وغيرها . وهؤلاء — كما علمتم — لم يكن لهم هم إلا نشر رسالة الاسلام وتبليغ أقوال النبى ﷺ وهديه وسيرته . وانظروا إلى اهتمام المؤرخين باستيعابهم واستقصاء أحوالهم فى إحصاء الأحاديث المروية عن الصحابة . واليكم أسماء بعض الصحابة الذين امتازوا بكثرة ما يحفظونه من الحديث النبوى وعدد ما روى عنهم منه :

أسماء الرواة من الصحابة	عدد مروياتهم	سنة وفاتهم
١ — أبو هريرة	٥٣٧٤	٥٩
٢ — عبد الله بن عباس	٢٦٦٠	٦٨
٣ — عائشة الصديقة	٢٢١٠	٥٨

٤ — عبد الله بن عمر	١٦٣٠	٧٣
٥ — جابر بن عبد الله	١٥٦٠	٧٨
٦ — أنس بن مالك	١٢٨٦	٩٣
٧ — أبو سعيد الخدرى	١١٧٠	٧٤

وعلى هؤلاء يعتمد فى نقل السنة النبوية ، وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى حفظ الرسالة المحمدية . وإن رواياتهم هى التى تدل على النبوة الواضحة والمحجة البيضاء ، فاذا نظرنا إلى اعوام وفاتهم بدا لنا أن الله عز وجل قد نسأ فى آجالهم وأطال حياتهم وأخّر موتهم ، حتى تسنى لكثير من الناس أن يتلقوا عنهم ما حفظوه من أمانات الحديث النبوى ، ويعوا أقوالهم ، وينشروا رواياتهم . ولم يكن العلم يومئذ إلا معرفة هذه الأمور . وبه كانوا ينالون شرف الدين وعزة الدنيا . فكان الآلاف من الصحابة يبلغون الى الجيل الذى بعدهم ما رأوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم من أحوال النبى ﷺ وأقواله وتشريعه ، لأنه ﷺ هو الذى أمرهم بذلك فقال : « بلغوا عنى » و « ليبلغ الشاهد الغائب » ، فكانوا يعلمون أولادهم وإخوانهم وأصحابهم وأقرباءهم من الدين والعلم كل ما كانوا يعلمونه ، فكان ذلك شغلهم وهمهم أناء الليل وأطراف النهار وفى الغدو والآصال ، فتعلم النشء الاسلامى الاول حقائق رسالة الاسلام وتفاصيل حياة الرسول منذ ترعرعوا فى بيئاتهم التى كانت ساحات للعلم ومدارس يتقلبون فى حجرها ، وما لبثوا أن قاموا مقام الصحابة وسدّوا مسدّهم فى حفظ هذه الأحاديث ووعى هذه المرويات ، فكان هؤلاء التابعون يحفظونها كلمة كلمة ، ويعيدون روايتها بألفاظها دون أن يخرموا منها كلمة . وكما كان رسول الله ﷺ يحرّض الصحابة على أن يبلغوا عنه ويفقهوا تشريعه وينشروا دعوته وأحكامه ، كان ينهى الناس عن أن يتقوّلوا عليه مالم يقل ، أو ينسبوا إليه مالم يفعل ، وكان ينذر من يتعمد الكذب عليه بأنه سيتبوّأ نار جهنم ، لذلك كان كبار الصحابة ترتعد فرائصهم وتمتقع وجوههم عند رواية أحاديث الرسول خوفاً من أن يكذبوا عليه أو ينحلوه مالم يقل .

وكان عبد الله بن مسعود إذا قال « قال رسول الله ﷺ » استقلته الرعدة وقال « هكذا » أو « نحوذا » أو « قريب من ذا »

ومن المعلوم أن ذاكرة العرب كانت قوية ، وكانوا يحفظون آلافاً من الشعر ، وينشدونها عن ظهر قرب بلا زيادة ولا نقص . ومن طبيعة البشر أنهم اذا أكثروا استعمال قوة من قواهم تزداد هذه القوة قوة وحيوية . وقد مرن الصحابة والتابعون على حفظ الاحاديث حتى بلغوا فى ذلك شأوا بعيدا ، وكانوا إذا سمعوا حديثا وعوه وحفظوه كما يحفظ الصبيان سورة الفاتحة فى هذه الأيام . والمحدّثون كانوا يحفظون ألوفا من أحاديث الرسول بل مئات الألوف ويكتبون بعد ذلك ما كانوا يسمعون ويحفظون ، لكنهم لا يبلغون منزلة الاجلال والاكرام بين العلماء وعند الناس إلا بما يحفظونه من المرويات عن ظهر قلب ، ولذلك كانوا يخفون كراريسهم وصحائفهم عن الناس ويكتمونها لئلا يظن الناس بهم أنهم يعتمدون فى علمهم على هذه الصحائف ولا يحفظون محتوياتها فى صدورهم

سادتى . إن بعض المستشرقين ودعاة المسيحية ـ وفى مقدمتهم السر وليم ميور وغولد زيهير ـ أرادوا أن يشككوا الناس فى رواية الحديث بما زعموه من أن تدوين السنّة بدأ بعد وفاة النبي ﷺ بتسعين سنة ، وقد ذكرت لكم فيما سلف كيف كان الصحابة والتابعون يعنون بالأحاديث ويحفظونها ويحتاطون فى روايتها حتى لا يبقى مجال للشك فى صحتها وصدقها

والذى دعا الصحابة الى أن لا يقيدوا الأحاديث بالكتابة ثلاثة أمور : أولها أن رسول الله ﷺ نهاهم فى بداية الأمر عن أن يكتبوا عنه غير القرآن لكيلا يلتبس القرآن بغيره ، فلما حفظ القرآن فصار معروفا ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أذن للصحابة بأن يكتبوا ما يسمعون منه ، ومع ذلك بقى الصحابة يحتاطون فى ذلك احتياطاً شديداً وكان معظمهم يتحرّجون من كتابة الحديث . وثانيها أن الصحابة كانوا يخشون أن يعتمد النـاس فى

الحديث على الكتابة فيقصرون فى حفظها وتدبرها مرتكنين على أنها مكتوبة عندهم ويمكنهم الرجوع اليها عند الحاجة . وقد وقع الذى ظنوه ، فانه كلما ازداد الاهتمام بالكتابة والتدوين قلت العناية بالحفظ . وكذلك كان الصحابة يخشون أن يدعى كل من تكون الأحاديث المكتوبة فى متناول يده بأنه عالم ، وقد وقع ما كانوا يحذرون . وثالثها أن العرب كانوا يعدون الاعتماد على الكتابة اعترافا بنقص مواهبهم وضعف حفظهم وفى ذلك غض من شرفهم ، فكانوا يعتمدون على حفظهم ، واذا كتبوا شيئا مما يحفظون كتموا أمره

كان المحدثون يرون أن الحفظ فى الصدور أصون من التدوين فى السطور لأن ما يتناقله الناسخون بالكتابة معرّض للتحريف ، وأما ما يتلقاه الحافظون الضابطون عن الحافظين الضابطين فانه لا يتطرق اليه الخطأ ولا يصيبه أى تحريف .

وإنى أكشف القناع لأول مرة فى ناديكم هذا بان من زعم أن الأحاديث النبوية لم تدوّن الى مائة سنة أو تسعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه . والسبب فى هذا الخطأ ظنهم أن أول كتاب فى الحديث النبوى كتاب الموطأ لمالك بن أنس ، وأول كتاب فى السيرة كتاب المغازى لابن اسحاق ، وهذان الامامان الجليلان كانا متعاصرين وتوفى الأول سنة ١٧٩ والثانى سنة ١٥١ ، فاعتبروا العقود الاولى من القرن الثانى بداية تدوين الأخبار والسير . والأمر ليس كذلك ، فان بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالماً جليلا ولى إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ وقد عهد الى القاضى أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم - الذى كان إماماً فى الحديث والخبر - أن يبدأ فى تدوين سنن النبى ﷺ وأخباره ، لأنه خاف على العلم أن يرفع شيئا فشيئا وخاف دروس العلم وعفاءه ، وقد ذكر هذا فى تعليقات البخارى والموطأ لمالك والمسند للدارمى . فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار

والسنن فى القراطيس ، وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ونسخت فى الصحف والكتب وبعث بها الى البلاد الاسلامية وكبريات المدن يومئذ[١] . فأبو بكر هذا الذى علمتم مكانته من العلم والفضل وكان قاضيا بالمدينة المنورة ، هو الذى اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه وفضله ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلاميذ أم المؤمنين عائشة ، وكان ما روته خالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز اليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته وقد اختصها بالذكر فى كتابه اليه

كتابة الحديث فى العهد النبوى

وإنى لا أعدو الحقّ إذا قلت : إن كتابة الحديث والسنن والأخبار والسيرة قد بدئ بها فى عهد النبى ﷺ ، فقد جاء فى باب كتابة العلم من صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ أمر فكتبت خطبته التى خطبها يوم فتح مكة إجابة لسؤال صحابى من اليمن يدعى أبا شاه . وقد أرسل رسول الله ﷺ رسائله الى الملوك التى يدعوهم فيها الى الاسلام وكلها كانت مكتوبة . والكتاب الذى أرسله الى المقوقس ملك مصر قد وجد ملصقاً بدفة كتاب فى احد الاديرة المسيحية فى مصر ، ويغلب على الظن أنه هو أصل الكتاب المرسل من النبى ﷺ وخطه عربى قديم وعبارته وترتيب كلماته التى فى الخاتم هى عين ما يروى فى الأحاديث ، وهذا من أصدق الأدلة على صدق الاحاديث المروية وصحتها . ويقول أبو هريرة : ما من أحد أحفظ منى لحديث رسول الله ﷺ ولا أكثر منى رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبى ﷺ ولم أكن أكتب (صحيح البخارى : باب كتابة العلم). وفى سنن أبى داود ومسند الامام أحمد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله ﷺ يقول فى الغضب والرضا !

(١) مختصر جامع بيان العلم للحافظ ابن عبد البر ص ١٣٨ طبع مصر

فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال « اكتب . فوالذى نفسى بيده ما خرج منه الا حق » وأومأ باصبعه الى فيه حين قال ذلك[١] . وسمى عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفته هذه (الصادقة)[٢] وكان يقول : لقد حبب الحياة إلى أمران : أحدهما هذه « الصادقة » . . . ثم قال : وأما الصادقة فهى صحيفة ما كتبت فيها إلا ما سمعت أذناى من رسول الله ﷺ ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتابا ، فسألته : ما هذا ! فقال : هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس فى ذلك بينى وبين رسول الله ﷺ أحد[٢]

وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ أمر بعد هجرته الى المدينة أن يحصى له كم عدد الذين يلفظون بالاسلام فأحصوا فكان عددهم خمسمائة وألفا . وأمر ﷺ فكتبت أحكام الزكاة وما تجب فيه ومقادير ذلك فكتبت مشروحة مفصلة فى صفحتين ، وبعث بصورة ذلك الى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة فى بيت أبى بكر الصديق وأبى بكر بن عمرو بن حزم[٣] . وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة . وكان عند على رض صحيفة فى قراب سيفه كتبت فيها أحاديث تتعلق بالأحكام ورآها الناس لما سألوه عن ذلك (صحيح البخارى ٢ : ١٠٨٤ و ١٠٢٠) . وفى هدنة الحديبية التى كانت بين المسلمين ومشركى قريش أمر رسول الله ﷺ عليا فكتب كتاب الهدنة فى نسختين أعطى المشركين نسخة منها وبقيت النسخة الأخرى عند النبى ﷺ (ابن سعد فى المغازى ص ٧١) . ولما ولى رسول الله ﷺ عمرو بن حزم اليمن وبعثه اليها أعطاه أحكاما مكتوبة فى الفرائض والصدقات والديات

---

(١) مسند أحمد ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ وسنن أبى داود ٢ : ٢٢ وجامع بيان العلم ١ : ٧١
(٢) طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٢٥
(٣) الدارقطنى فى كتاب الزكاة ٢٠٩

(كنز العمال ٣ : ١٨٦) . وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله ﷺ فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبرانى ص ٢١٧) . ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع الى بلاده حضر موت ناوله رسول الله ﷺ كتابا فيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبرانى فى الصغير ص ٢٤٢) . ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال الى أصحاب رسول الله ﷺ إن كان عند أحد منهم سنة عن النبى ﷺ فى نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان فقال : نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ يبين فيه ذلك (الدارقطنى ٢ : ٤٨٥)

وكتب عمر بن عبد العزيز فى خلافته الى المدينة يسأل عن كتاب رسول الله ﷺ فى أحكام الصدقات فوجدت نسخته عند آل عمرو بن حزم (الدارقطنى ٤٥١)

وكان مروان قد خطب فى الناس فذكر مكة وحرمتها ، فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس : والمدينة حرم حرمها رسول الله ﷺ ، وهو مكتوب عندنا فى أديم خولانى إن شئت أن نقرئكه فعلنا . فناداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك (مسند الامام أحمد بن حنبل ٤ : ١٤١) . وأرسل الضحاك بن قيس كتابا الى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التى كان رسول الله ﷺ يقرأها فى صلاة الجمعة غير سورة الجمعة فكتب اليه يقول كان يقرأ « هل أتاك » (صحيح مسلم) . وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة ابن فرقد كتاباً ذكر فيه أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) . وقد ثبت عندى بالدلائل الواضحة أن كبار الصحابة رضى الله عنهم أرادوا أن يدونوا السنن والاحكام ، بل قد فعل ذلك بعضهم ، وقد جمع أبو بكر فى خلافته الاحكام والسنن فى كتاب ثم بدا له أن يمحوه (تذكرة الحفاظ للذهبى) ، وعزم عمر بن الخطاب أيام خلافته على جمع السنن ثم بدا له الا يفعل ، وقد ذكرنا آنفا أن عبد الله بن عمرو بن العاص جمع باذن رسول

الله ﷺ ما كان يسمعه منه فى صحيفة وكان الناس يقصدونه ليرووها فيطلعهم عليها (سنن الترمذى ٥٨٦) وأتى عبد الله بن عباس بسجل فيه فتاوى على ابن أبى طالب (مقدمـــة صحيح مسلم) وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة ، وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرووها عنه (العلل للترمذى ص ٦٩١) . وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمى ٦٩) . وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب (سنن الترمذى ٦١ و ١١٣) وكانوا يضعفون عمرو ابن شعيب لأنه يروى من الصحيفة وكان ينبغى له أن يروى من حفظه . وجمع وهب التابعى روايات جابر بن عبد الله وكانت عند اسماعيل بن عبد الكريم وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ١ : ٣١٦) . وروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند ابيه صحيفة فيها أحاديث . وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) . وجمع همام بن منبه روايات أبى هريرة ، وهو أكثر الصحابة رواية وأوعاهم حفظا لاحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد أوردها الامام أحمد بن حنبل فى الجزء الثانى من مسنده (ص ٣١٢ — ٣١٨ الطبعة الأولى) . وكذلك بشير بن نهيك كتب مروياته عن أبى هريرة فى كتاب وقرأه عليه (كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ . والدارمى ص ٦٨ [١]) وذكر ابن حجر فى كتابه فتح البارى أن أبا هريرة جاء برجل الى بيته وأراه أوراقاً وقال : هذه رواياتى . وقال الذى روى ذلك انها لم تكن مكتوبة بيده (فتح البارى ١ : ١٨٤ — ١٨٥) . وكان أنس بن مالك - وهو معروف بكثرة الرواية - يقول لأولاده : يابنى اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمى ص ٦٨) . وكان تلميذه أبان يكتب رواياته بين يديه

---

(١) والسنن الكبرى للبيهقى ١٠ : ٢٨١

(الدارمى ص ٦٨) . وروى عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملى أبا رافع خادم رسول الله ﷺ ما كان ﷺ يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ٢ / ٢ : ١٢٣) . والواقدى وهو من متقدمى المصنفين فى السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذى أرسله رسول الله ﷺ الى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) . وفى تاريخ الطبرى أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان فى غزوة بدر مفصلا الى عبد الملك الخليفة الأموى (الطبرى ١٢٨٥)

وكان عبد الله بن مسعود ـ وهو الذى كان يكثر الدخول على رسول الله ﷺ ليلا ونهاراً حتى خيل الى الناس أنه من أهل البيت ـ يشكو الناس أنهم يكتبون منه عن رسول الله ﷺ ، لأنه كان لا يستحل أن يكتب غير القرآن الحكيم حرصاً منه على القرآن أن يلتبس به غيره (الدارمى ص ٦٧) . ويقول سعيد بن جبير التابعى كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه فى الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، فاذا أصبحت كتبته واضحاً (الدارمى ص ٦٩) . وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته (الدارمى ص ٦٩) . وكان نافع ـ وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة ـ يملى على الناس (الدارمى ص ٦٩) . وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أخرج كتاباً وقال : وايم الله هذا ما كتبته يد ابن مسعود (جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ١٧) . وقال سعيد بن جبير : كنا نختلف فى بعض الأمور فنكتب ذلك ثم نأتى عبد الله بن عمر فنعرضه عليه ونخفى عنه ما كتبنا ولو علم به لكانت الفيصل بيننا وبينه . أى انه لا يأذن لهم بحضور مجلسه (جامع بيان العلم ٣٣) ويقول الأسود التابعى : وقعت أنا وعلقمة على صحيفة جئنا بها الى ابن عمر فمحاها (جامع بيان العلم ٣٣) . وان زيد بن ثابت ـ وهو من كتبة الوحى ـ كان لا يرى كتابة شئ إلا القرآن ، فاحتال مروان على أن أجلسه بين يديه وأجلس كاتبا من وراء الستر يكتب ما يقول . وفعل مثل ذلك معاوية بن أبى

سفيان رضى الله عنه فاستملاه حديثا ، ولكن زيد بن ثابت فطن لذلك ، فألحَّ بمحوه حتى محى (مسند أحمد ٥ : ١٨٢)

سادتى . لعلكم سئمتم سماع الأسماء ، وضجرتم بهـذه الأخبار ، ومللتم ما اقتبسته لكم من هذه النصوص ، فمعذرة وعفواً . ولكننا قد بلغنا الى حيث يتبين لنا الطريق واضحا ، وتبدو لنا الحقيقة جلية

لقد حاولت أن أثبت لكم هذه الحقيقة الراهنة ، وهى أنه اذا كان لا يوثق إلا بما كتب ودوّن ، فأصحاب النبى ﷺ كتبوا بأيديهم فى عهده ﷺ ، وجمعوا من أحاديثه فى حياته ، وتركوا ذلك لمن بعدهم ، والذين جاءوا بعدهم أدخلوا ذلك فى كتبهم . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن التابعين رضى الله عنهم جمعوا جميع المرويات فى عهد الصحابة ، وكتبوا فى حياتهم ما وصل الى علمهم من الأخبار والشئون ، وبحثوا عن ذلك بحثا طويلا ، وبذلوا فيه جهودهم ، وسافروا له ، وطرقوا أبواب العلماء والمحدّثين ، حتى لقد كانوا يطوون لاجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة . ومن أشهرهم محمد بن شهاب الزهرى ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقيس بن أبى حازم ، وعطاء بن أبى رباح ، وسعيد بن جبير ، وأبو الزناد وغيرهم . إن علماء التابعين - وكانوا يعدّون بالمئات - جابوا البلاد ، وجالوا خلال الديار وطووا الصحارى والمفاوز وشـدّوا الرحال الى أصحاب النبى ﷺ ، وكذلك فعل تلاميذهم ، ليرووا أحاديث رسول الله ﷺ ، فجمعوا لنا هذه الذخيرة العلمية ، وربما سافروا وقطعوا مئات الأميال لحديث واحد . وإن محمد بن شهاب الزهرى - وهو الامام فى الحديث والسيرة - كتب كل ما سمع مما يتعلق برسول الله ﷺ ، حتى قال عنه أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام وكان الزهرى يكتب كل شىء (جامع بيان العلم ص ٣٧) . ويقول طاوس بن كيسان : كنت أنا والزهرى رفيقين فى طلب العلم ، فقلت : لا أكتب إلا السنن ، فكتبت ما يتعلق برسول الله ﷺ ، وقال الزهرى :

أكتب هذا وكل ما يتعلق بأصحاب النبي ﷺ فانه من السنة . فقلت : ليس ذلك من السنة ، ولم أكتب ذلك وكتبه الزهرى ففاز وخسرت (طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٣٥) . وهذا قطرة من بحر . وإن المئين من التابعين كانوا يكتبون الأحاديث والأخبار ، والزهرى واحد منهم ، وإن ما كتبه الزهرى وحده بلغ فيما رواه معمر أن الدفاتر من علم الزهرى حملت على الدواب بعد قتل الوليد وكانت فى خزانته

ولد الزهرى سنة ٥٠ للهجرة وتوفى سنة ١٢٤ ، وهو قرشى نسباً ، وقد بذل جهده فى جمع الروايات عن سيرة النبي ﷺ وهديه وأحاديثه حتى لقى فى طلب العلم عناء ونصبا ، كما يدل عليه قول المؤرخين : انه كان يطوف على بيوت الأنصار فى المدينة ، ويغشى كل بيت منها ، ويسأل عن أحاديث النبي ﷺ وهديه وسيرته كل من يلقاه من نساء ورجال وشيوخ وشباب ، حتى كان يسأل العواتق فى خدورهن عن أحوال النبي ﷺ وأقواله ويكتبه (تهذيب التهذيب . فى ترجمة الزهرى) . وكان لا يزال بعض الصحابة أحياء فى حياة الزهرى . ثم تلقى عن الزهري كثير من تلاميذه العلماء ويبلغ عددهم المئات ، ولم يكن لهم شغل إلا جمع الأحاديث وأقوال الصحابة وتعليم الأمة الاسلامية الدين ونشر السنة ، وقد انقطعوا كلهم لهذا العمل وفرّغوا أنفسهم له

ومن أعظم الخطأ فى تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة ، وذلك تبعاً لخطأهم فى تحديد زمن التابعين . فانه لما بلغهم أن التدوين بدأ فى عهد التابعين ، وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد بهم العمر الى أواخر المائة الاولى للهجرة ، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة ، فذهبوا إلى أن التدوين بدأ بعد المائة . وهذا كله خطأ . والحق أن عنوان « التابعين » يطلق على الذين لم يدركوا النبي ﷺ أو ولدوا فى أواخر عهده فلم يروه وإنما رأوا أصحابه وأخذوا عنهم ، وعلى أقل تقدير يعدّ تابعيا من ولد بعد وفاة النبي ﷺ (ربيع الأول سنة ١١) ، وأعمال التابعين التى تنسب

سفيان رضى الله عنه فاستملاه حديثا ، ولكن زيد بن ثابت فطن لذلك ، فألحّ بمحوه حتى محى (مسند أحمد ٥ : ١٨٢)

سادتى . لعلكم سئمتم سماع الأسماء ، وضجرتم بهذه الأخبار ، ومللتم ما اقتبسته لكم من هذه النصوص ، فمعذرة وعفواً . ولكننا قد بلغنا الى حيث يتبين لنا الطريق واضحا ، وتبدو لنا الحقيقة جلية

لقد حاولت أن أثبت لكم هذه الحقيقة الراهنة ، وهى أنه اذا كان لا يوثق إلا بما كتب ودوّن ، فأصحاب النبى ﷺ كتبوا بأيديهم فى عهده ﷺ ، وجمعوا من أحاديثه فى حياته ، وتركوا ذلك لمن بعدهم ، والذين جاءوا بعدهم أدخلوا ذلك فى كتبهم . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن التابعين رضى الله عنهم جمعوا جميع المرويات فى عهد الصحابة ، وكتبوا فى حياتهم ما وصل الى علمهم من الأخبار والشئون ، وبحثوا عن ذلك بحثا طويلا ، وبذلوا فيه جهودهم ، وسافروا له ، وطرقوا أبواب العلماء والمحدّثين ، حتى لقد كانوا يطوون لاجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة . ومن أشهرهم محمد بن شهاب الزهرى ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقيس بن أبى حازم ، وعطاء بن أبى رباح ، وسعيد بن جبير ، وأبو الزناد وغيرهم . إن علماء التابعين - وكانوا يعدّون بالمئات - جابوا البلاد ، وجالوا خلال الديار وطووا الصحارى والمفاوز وشدّوا الرحال الى أصحاب النبى ﷺ ، وكذلك فعل تلاميذهم ، ليرووا أحاديث رسول الله ﷺ ، فجمعوا لنا هذه الذخيرة العلمية ، وربما سافروا وقطعوا مئات الأميال لحديث واحد . وإن محمد بن شهاب الزهرى - وهو الامام فى الحديث والسيرة - كتب كل ما سمع مما يتعلق برسول الله ﷺ ، حتى قال عنه أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام وكان الزهرى يكتب كل شىء (جامع بيان العلم ص ٣٧) . ويقول طاوس بن كيسان : كنت أنا والزهرى رفيقين فى طلب العلم ، فقلت : لا أكتب إلا السنن ، فكتبت ما يتعلق برسول الله ﷺ ، وقال الزهرى :

أكتب هذا وكل ما يتعلق بأصحاب النبي ﷺ فانه من السنة . فقلت : ليس ذلك من السنة ، ولم أكتب ذلك وكتبه الزهرى ففاز وخسرت (طبقات ابن سعد ٢ / ٢ : ١٣٥) . وهذا قطرة من بحر . وإن المئين من التابعين كانوا يكتبون الأحاديث والأخبار ، والزهرى واحد منهم ، وإن ما كتبه الزهرى وحده بلغ فيما رواه معمر أن الدفاتر من علم الزهرى حملت على الدواب بعد قتل الوليد وكانت فى خزانته

ولد الزهرى سنة ٥٠ للهجرة وتوفى سنة ١٢٤ ، وهو قرشى نسباً ، وقد بذل جهده فى جمع الروايات عن سيرة النبى ﷺ وهديه وأحاديثه حتى لقى فى طلب العلم عناء ونصبا ، كما يدل عليه قول المؤرخين : انه كان يطوف على بيوت الأنصار فى المدينة ، ويغشى كل بيت منها ، ويسأل عن أحاديث النبى ﷺ وهديه وسيرته كل من يلقاه من نساء ورجال وشيوخ وشباب ، حتى كان يسأل العواتق فى خدورهن عن أحوال النبى ﷺ وأقواله ويكتبه (تهذيب التهذيب . فى ترجمة الزهرى) . وكان لا يزال بعض الصحابة أحياء فى حياة الزهرى . ثم تلقى عن الزهري كثير من تلاميذه العلماء ويبلغ عددهم المئات ، ولم يكن لهم شغل إلا جمع الأحاديث وأقوال الصحابة وتعليم الأمة الاسلامية الدين ونشر السنة ، وقد انقطعوا كلهم لهذا العمل وفرّغوا أنفسهم له

ومن أعظم الخطأ فى تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة ، وذلك تبعاً لخطأهم فى تحديد زمن التابعين . فانه لما بلغهم أن التدوين بدأ فى عهد التابعين ، وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد بهم العمر الى أواخر المائة الاولى للهجرة ، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة ، فذهبوا إلى أن التدوين بدأ بعد المائة . وهذا كله خطأ . والحق أن عنوان « التابعين » يطلق على الذين لم يدركوا النبى ﷺ أو ولدوا فى أواخر عهده فلم يروه وإنما رأوا أصحابه وأخذوا عنهم ، وعلى أقل تقدير يعدّ تابعيا من ولد بعد وفاة النبى ﷺ (ربيع الأول سنة ١١) ، وأعمال التابعين التى تنسب

اليهم يبدأ عهدها من سنة ١١ ، وليس من المحتم أن لا ينسب إلى التابعين إلا ما صدر عنهم بعد وفاة آخر الصحابه بقاء على قيد الحياة ، فآخر الصحابة بقاء على قيد الحياة امتد زمنه الى أواخر المائة الأولى للهجرة ، وأعمال التابعين ـ ومنها البدء بتدوين الحديث ـ ينبغى أن تنسب إلى زمنهم الذى يبدأ من بعد سنة ١١ التى انتقل فيها النبى ﷺ الى الرفيق الأعلى

والحق أن جمع الاحاديث والاحكام والأخبار وتدوينها عند المسلمين له ثلاثة أطوار : الطور الأول هو الذى جمع فيه الرجال ما عندهم من العلم . والطور الثانى هو الذى قام فيه أهل كل مصر من الأمصار الاسلامية بتدوين ما عند علماء ذلك المصر من العلم فى كتب خاصة بأهل مصرهم . والطور الثالث هو الذى جمعت فيه علوم الدين الاسلامى كلها من جميع الامصار ، ودونت فى الدواوين الكبرى والمصنفات الجليلة وهى التى صارت الينا ، ولا تزال بين أيدينا

والطور الاول استمر الى سنة ١٠٠ ، وامتد الطور الثانى الى سنة ١٥٠ ، وبدأ الطور الثالث من سنة ١٥٠ الى القرن الثالث للهجرة أو بعده بقليل . وإن الطور الاول هو الذى كان فيه الصحابة وكبار التابعين . والطور الثانى هو الذى كان فيه صغار التابعين وتابعو التابعين . والطور الثالث هو عهد المحدثين وأئمة السنة كالامام محمد بن اسماعيل البخارى ، والامام مسلم صاحب الجامع الصحيح ، والامام الترمذى ، والامام أحمد بن حنبل وغيرهم من المحدثين . وما جمع فى الطور الأول دوّن فى كتب الطور الثانى ، وما دون فى الطور الثانى جمع ونظم فى كتب الطور الثالث . ونرى أمامنا أكثر ما جمع فى الطورين الثانى والثالث مدونا فى كتب كثيرة تشتمل على آلاف من الأوراق هى فى الواقع من أثمن الذخائر العلمية فى العالم ، بل لا يوجد فى جميع ذخائر الدنيا العلمية أوثق منها سندا وأصح تاريخا ورواية . ولقد صدق الاستاذ العلامة الكبير الشيخ شبلى النعمانى حين قال : « لما أرادت الأمم

الأخرى من غير المسلمين أن تجمع فى أطوار نهضتها أقوال رجالها ورواياتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضى وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ولاتواريخ ولادتهم ، فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ويلائم بيئتهم وينطبق على مقاييسهم . ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودة كالحقائق التاريخية المدونة فى الكتب وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت أكثر الكتب الأوربية مما يتعلق بالأمم الخوالى وشئونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها . أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون اليها وأصولا متقنة يتمسكون بها : أولها وأعلاها أن لا تروى واقعة من الوقائع إلا عن الذى شهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل خبرها عن الذى شهدها ثم تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذى نقله عمن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنها الى زمن وقوعها ، والتثبت من أمانة هؤلاء الرواة وفقههم وعدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذى يروونه ، واذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبيينه أيضا . وهذه المهمة من أشق الامور ، ومع ذلك فان مئات من المحدثين تفرغوا لها ووقفوا أعمارهم على تحرى ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ، ورحلوا بين الأقطار ، باحثين دارسين لأحوال الرواة وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم ، واذا اطمئنوا الى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة التى كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمى العظيم علم مستقل من العلوم الاسلامية أطلق عليه فيما بعد عنوان (أسماء الرجال) فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها ، وهنالك علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم ، وإن له أصولا محكمة وقواعد متقنة اتخذوها لنقد المرويات وتمييز صحيحها من سقيمها وغثها من السمين والراجح من المرجوح . وقد تحرّى علماء السنة فى هـذا الامر الحق وحده وتمسكوا فيه بالمحجة البيضاء وكل ما يؤدى اليه الصدق ، فكان عملهم هذا من مفاخر الاسلام . وأنت تعلم أن ممن تحمل الرواية رجالا من الولاة والحكام والأمراء الذين يخشى جانبهم ويحذر الناس بطشهم وجبروتهم ، فكان المحدّثون يلتزمون فيهم قول الحق وينزلونهم فى المنازل التى يستحقونها ، ولا يبالون ما ربما يصيبهم من مكروه بسبب هذه المصارحة بما يرضى الله ويصون أمانات الاسلام . وكان وكيع محدّثا كبيراً ، وكان أبوه عاملا للدولة على بيت المال ، فكان اذا روى عن أبيه شيئا عضده برواية راو آخر ، فاذا انفرد ابوه برواية خبر توقف وكيع عن الأخذ بذلك حتى تعضده رواية أخرى . فهل رأيت مثل هذا الاحتياط ومثل هذه المبالغة فى التثبت عند أهل ملة أخرى غير ملة الاسلام ؟ ويقول الامام معاذ بن معاذ رأيت المسعودى فى سنة ١٥٤ [١] يطالع الكتاب . يعنى أنه قد تغير حفظه [٢] ، ومما يثير العجب والاستغراب ان الامام معاذ ابن معاذ تقدم اليه رجل بألف دينار على أن لا يكتب فى كتابه شيئا عن رجل سماه فلا يوثقه ولا يجرحه بل يسكت عنه ، فرفض الامام ذلك المال بشدة وقال إنى لا أكتم الحق [٣] فهل يعرف أحـد فى تاريخ البشر مثالا للاحتياط فى العلم والامانة للحق والاستقامة على منهج الصدق أعلى من هذا المثال ؟ على أن جميع مرويات السنة لا تزال محفوظة كما هى الى زماننا هذا ، وان قواعد النقد الموضوعة ، وأحوال الرواة الممحصة ، قد يسرت لكل من شاء

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود . توفى سنة ١٦٥

(٢) تهذيب التهذيب ٦ : ٢١١ (٣) تهذيب التهذيب

حتى فى زماننا هذا وفى كل زمان أن يميز بها بين الصحيح والسقيم والغث والسمين والراجح والمرجوح والقوى والضعيف

سادتى . لقد شغلت شطراً من وقتكم الثمين بايراد هذه الأمور العلمية التى قلما يستطيبها السامعون ، لكننى فيما أظن قد استعرضت لكم أنحاء مختلفة من السيرة النبوية ومثلت أمامكم جوانبها التاريخية المتنوعة . وأريد أن ألفت انظاركم الى المصادر التى أخذت عنها سيرة النبى ﷺ وهديه ، وكيف دونت تلك المصادر وجمعت . وإن أهم مافى سيرته ﷺ وأوثقها وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد ، وهو الذى لم يشك فى صحته العدو اللدود فضلا عن الحبيب الودود . والقرآن يقص علينا جميع مناحى السيرة النبوية وطرفاً من حياته ﷺ قبل النبوة ، فيذكر لنا يتمه وفقره وتحنثه ، كما يذكر لنا شئونه بعد النبوة من هبوط الوحى الالهى عليه وتبليغه اياه والعروج به وعداوة الاعداء له وهجرته وغزواته ، وفى القرآن الكريم ذكر أخلاقه ﷺ ، كل ذلك تراه مذكوراً فى القرآن ببيان واضح وأسلوب متين رائق ، ومن ذلك تعلمون أنه لم تطرق أذن التاريخ سيرة رجل بأحسن ولا أصح ولا أوثق من سيرة محمد ﷺ

والمصدر الثانى من مصادر السيرة النبوية كتب الحديث ، وهى كتب حفظت لنا من أقوال النبى ﷺ وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث ، وقد امتاز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع ، والقوى منها عن غير القوى . ومن الكتب المصنفة فى الحديث الكتب الستة الصحاح التى محص العلماء كل ما ورد فيها وذكروا شواهده ومتابعاته حتى لم يتركوا فى النفوس منزع ظفر لمحقق منصف بل ولا لمدقق جائر . ويتلو الكتب الستة كتب المسانيد ، وأعظمها مسند الامام أحمد بن حنبل فى ستة مجلدات كبار كل مجلد منها يحتوى على نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير بحروف دقيقة . وقد

تضمن هذا المسند مرويات كل صحابى مجموعة ومذكورة على حدة ، وفى هذه المجموعات جميع تعاليم الرسول ﷺ وأحواله وسيرته غير مرتبة على المواضيع

والمصدر الثالث كتب المغازى ، ومعظم ما فيها ذكر الغزوات النبوية ، وقد تتضمن أموراً أخرى . ومن المصنفات القديمة فى المغازى مغازى عروة ابن الزبير المتوفى سنة ٩٤ ، ومغازى الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ ، ومغازى موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ ، ومغازى ابن اسحاق المتوفى سنة ١٥٠ ، ومغازى زياد البكائى المتوفى سنة ١٨٢ ، ومغازى الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ وغـــيرهم .

والمصدر الرابع كتب التاريخ الاسلامى العام التى تبتدئ بالسيرة النبوية ومن أوثقها وأصحها وأطولها وأضخمها طبقات ابن سعد ، وتاريخ الرسل والملوك للامام أبى جعفر الطبرى ، والتاريخ الصغير والتاريخ الكبير لمحمد بن اسماعيل البخارى ، وتاريخ ابن حيان ، وتاريخ ابن أبى خيثمة البغدادى المتوفى سنة ٢٩٩ وغيرهم

والمصدر الخامس الكتب التى ألفت فى المعجزات ، وتسمى بكتب الدلائل ومنها دلائل النبوة لأبى اسحاق الحربى المتوفى سنة ٢٥٥ ، ودلائل النبوة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ، ودلائل النبوة للامام البيهقى المتوفى سنـــة ٤٣٠ ، ودلائل النبوة لابى نعـيم الاصفهانى المتوفى سنة ٤٣٠ ، ودلائل النبوة للمستغفرى المتوفى سنة ٤٣٢ ، ودلائل أبى القاسم اسماعيل الأصفهانى المتوفى سنة ٥٣٥ ، وأضخمها وأبسطها كتاب الخصائص الكبرى للجلال السيوطى المتوفى سنة ٩١١

والمصدر السادس كتب الشمائل ، وهى مقصورة على ذكر أخلاق النبى ﷺ وعاداته وفضائله ، وما كان يعمل فى يومه من الصباح إلى المساء ، وفى ليله من المساء الى الصباح . وأشهر هذه الكتب وأولها (كتاب الشمائل)

للحافظ الترمذى . وقد كتب كبار العلماء زيادات عليه أهمها وأضخمها وأطولها (كتاب الشفا فى حقوق المصطفى) للقاضى عياض ، وقد شرحه الشهاب الخفاجى وسماه نسيم الرياض ، وصنف فى هذا الموضوع علماء آخرون ، منها كتاب (شمائل النبى ﷺ) لأبى العباس المستغفرى المتوفى سنة ٤٣٢ ، و(النور الساطع) لابن المقرى الغرناطى المتوفى سنة ٥٥٢ ، و (سفر السعادة) لمجد الدين الفيروز ابادى المتوفى سنة ٨١٢

يضاف إلى ما ذكرناه الكتب التى صنفها بعض العلماء المتقدمين فى أحوال مكة المعظمة والمدينة المنورة وذكروا فيها مافى هذين البلدين الطيبين من بقاع وأماكن وأودية وجبال وخطط ، وذكروا من تولى إمارتهما بادئين بكل ماله علاقة بالنبى ﷺ . وأقدم كتاب فى هذا الموضوع (أخبار مكة) للازرقى المتوفى سنة ٢٢٣ و (أخبار المدينة) لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٨ ، ثم أخبار مكة للفاكهى وأخبار المدينة لابن زبالة

سادتى . لقد عرضت عليكم أسماء الكتب فى السيرة النبوية وذكرت لكم مما صنف فى هذا الباب من قديم الزمان ، ومنه يعلم القارىء مكانة السيرة المحمدية من التاريخ ، وأن هؤلاء المحدثين والخلفاء الاسلاميين لم يقتصروا على حفظ الروايات عن ظهر قلب وتقييدها بالكتابة وحسب ، بل اتخذ الولاة والخلفاء معاهد لكبار العلماء والأئمة يتولون التدريس فيها ، وأقاموا المبانى فى المساجد ليشتغل فيها المعلمون والمدرسون من كبار العلماء بتعليم المغازى ، وكان عاصم بن عمر المتوفى سنة ١٢١ - وهو حفيد قتادة الصحابى - يدرس فى المسجد الجامع بدمشق بأمر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

والذى ألفه الناس فى سيرة النبى ﷺ من عهد الرسالة الى يومنا هذا فى مختلف الأوطان الاسلامية والاجنبية فى معظم لغات العالم يعد بالألوف ، واعتبر ذلك بما صنف باللغة الأوردية الحديثة وحدها فى موضوع السيرة

النبوية ، مع أن الاوردية لم تصر لغة تأليف إلا منذ قرنين على الأكثر ، وفى تقديرى أن ما صنف بها وحدها فى السيرة النبوية يبلغ ألفا إن لم يزد عليه.

ودع عنك المسلمين وما صنفوا فى سيرة نبيهم ﷺ فانهم يحبونه حبا عظيما ويقدمون ذلك بين يدى الله فرطا وذخرا لهم يوم القيامة . وتعال ننظر الى من ألف فى سيرته ممن لا يؤمنون بنبوته ، ولا يوقنون برسالته ، فاننا نجد فى الهند نفسها على اختلاف مللها : من الهنادك والسيخ والبرهمو سماج كثيراً من علمائهم قد ألفوا فى سيرته ﷺ ، أما الأوربيون الذين لا يدينون بالاسلام ولا يؤمنون بالرسالة المحمدية فقد صنف منهم فى سـيرة النبى ﷺ حتى المبشرون من دعاة النصرانية والمستشرقون ، عناية منهم بالتاريخ وإرواء لظمأهم العلمى ، ويعد ما ألفوه فى ذلك بالمئات . وكنت قرأت فى مجلة المقتبس التى كانت تصدر فى دمشق قبل نحو أربعين سنة إحصاء لما صنف فى السيرة النبوية بمختلف اللغات الاوربية فبلغ نحو ثلاثمائة كتاب وألف كتاب ، ولو أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الاوربية فى السيرة النبوية خلال الاربعين سنة بعد ذلك الاحصاء الذى نشرته مجلة المقتبس لأربى على ذلك كثيرا . وإن مرجليوث الذى كان استاذاً للغة العربية فى جامعة أوكسفورد أصدر فى سنة ١٩٠٥ كتابه (محمد) وجعله حلقة فى سلسلة « عظماء الأمم » وهو لم يكتب كتابه هذا ليثنى فيه على رسول الله محمد ﷺ ، بل لعله لم يؤلف كاتب بالانجليزية كتابا أشد تحاملا على النبى ﷺ مما جاء فى هذا الكتاب ، وقد حاول مرجليوث أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة الشريفة وأن يشكك فى أسانيدها ولم يأل جهدا فى نقض ما أبرمه التاريخ ومعارضة ما حققه المحققون من المنصفين ، لكنه مع كل هذا لم يتمالك عن الاعتراف فى مقدمة كتابه بأن الذين كتبوا فى سيرة محمد ﷺ لا ينتهى ذكر أسمائهم ، وأنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلسا بين الذين كتبوا فى السيرة المحمدية

The biographers of the Prophet Mohammad form a long series it is impossible to end, but in which Would be honourable to find a place

وقد كتب جون ديون پورت فى سنة ١٨٧٠ كتابا بالانجليزية فى السيرة المحمدية عنوانه (اعتذار من محمد والقرآن Apology for Md. and Quran) والذى يقرأه يخيل إليه أنه كتبه بنزعة الاخلاص والانصاف ، ويقول فى مقدمته : لا ريب أنه لا يوجد فى الفاتحين والمشرعين والذين سنوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيلا وأشمل بيانا مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ وأحواله

وألقى ريورند باسورث سميث Basworth Smith عضو كلية التثليث فى أوكسفورد سنة ١٨٧٤ محاضرات عن (محمد والمحمدية) فى الجمعية الملكية لبريطانيا العظمى طبعت فيما بعد فى كتاب ، وقد قال فى احدى هذه المحاضرات وأحسن فيما قال وأجاد « كل ما يقال فى الدين يغلب فيه الجهل ببدايته ، ومما يؤسف له أن هذا يصح إطلاقه على الديانات الثلاث[١] وعلى أصحابها الذين نعدهم تاريخيين لأننا لا نعلم لهم وصفا أحسن من هذا الوصف ، فاننا قلما نعلم عن الذين كانوا فى طلائع الدعوة ، والذى نعلمه عن الذين جاءوا بعدهم واجتهدوا فى نشر عقائدهم أكثر من الذى نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين . فالذى نعلمه من شئون زردشت وكونفوشيوس أقل من الذى نعلمه عن سولون وسقراط . والذى نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس Ambrase وقيصر . ولا نعلم من سيرة عيسى إلا شذرات تتناول شعبا قليلة من شعب حياته المتنوعة والكثيرة . ومن ذا الذى يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شئون ثلاثين عاماً هى تمهيد واستعداد للثلاثة الأعوام التى لنا علم

---

(١) يريد ديانات بوذا وكونفوشيوس وزردشت

بها من حياته . إنه بعث ثلث العالم من رقدته ، ولعله يحيي أكثر مما أحيا .
وحياته المثالية بعيدة عنا مع قربها منا . وانها تتراوح بين الممكن والمستحيل .
بيد أن كثيراً من صفحاتها لا نعلم عنها شيئا أبدا ، وما الذى نعلمه عن أم المسيح ، وعن حياته فى بيته ، وعيشته العائلية . وما الذى نعلمه عن أصحابه الأولين ، وحوارييه ، وكيف كان يعاملهم ، وكيف تدرجت رسالته الروحية فى الظهور ، وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته ، وكم وكم من أسئلة تجيش فى نفوسنا ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها إلى يوم القيامة ؟ !

« أما الاسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سرّ مكتوم عن أحد ، ولا غمّة ينبهم أمرها على التاريخ . فى أيدى الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد كالذى يعلمونه من أمر لوثر وملتن . وإنك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاماً ولا مستحيلات . وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، والأمر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رأد الضحى يتبين تحت أشعة نورها كل شئ »

لقد ألف المسلمون فى السيرة النبوية ألوف الكتب بل أكثر من ذلك ، ولا يزالون ماضين فى التأليف فيها ، وكل كتاب فى السيرة المحمدية مهما كان لا ريب أنه أوضح بياناً وأوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتبه الناس فى قصص النبيين وسيرهم عليهم السلام . والكتب الأولى فى السيرة المحمدية تلقاها عن أصحابها مئون وآلاف من تلاميذهم وأتقنوها فهما وأحكموها فقها ولم يتركوا فيها كلمة غامضة ولا عبارة معضلة إلا أوضحوا مبهمها وحلوا معضلها . وأول كتاب عندنا فى الحديث النبوى كتاب الموطأ للامام مالك بن أنس وقد سمعه من مؤلفه ستمائة من تلاميذه فيهم الخلفاء والولاة والعلماء والفقهاء والأدباء والزهاد والنساك . والجامع الصحيح لابى

عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى تلقاه ستون ألفا من أهل العلم عن تلميذ واحد من تلاميذه وهو الامام الفربرى ، فهل فى العالم دين احتاط أهله مثل هذا الاحتياط واهتموا مثل هذا الاهتمام فى كل ما يتعلق بأمر نبيهم وهدايته ، وهل ألف فى هذا الباب تأليف أكثر صحة وأعظم ثقة وتثبتا ، وهل نال مثل هذه الصحة التاريخية دين غيره ، وهل حفظ التاريخ من تفاصيل حياة نبى من الانبياء عليهم السلام مثل الذى حفظه من سيرة محمد ﷺ ؟

المحاضرة الرابعة

فى السيرة المحمدية من ناحية كمالها وتمامها واحاطتها بشئون الحياة البشرية

سادتى وإخوانى . موضوع كلامنا اليوم فى أن السيرة المحمدية هى السيرة التامة الكاملة الشاملة لجميع أطوار الحياة . وما من حياة أحد - مهما بلغت من صحة التاريخ وثبوت الرواية - يصح أن يكون منها للناس اسوة تتبع ومثال يقتدى به إلا اذا كانت متصفة بالكمال ، ولا تكون حياة أحد كاملة ومنزهة عن العيوب والمثالب إلا اذا كانت معلومة للناس بجميع أطوارها ومتجلية لهم دخائلها من كل مناحيها . وحياة محمد ﷺ من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا عهده ، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ، وهو فى حياته لم يحتجب عن عيون قومه إلا مدة يسيرة ليعد عدته للمستقبل وليهىء الأسباب لحياته القابلة . إن جميع شئونه وأطوار حياته - من ولادته ورضاعه وطفولته الى أن صار يافعاً وشاباً - كل ذلك ظاهر أمره معلومة تفاصيله . وقد علم التاريخ عن هذا النبى ﷺ باشتغاله فى التجارة وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه فى صداقته وفى وفائه للناس قبل النبوة ، واتصلوا به حين اتخذوه أمينا وأقاموه حكما فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الاسود فى موضعه من الكعبة ، ثم وقفوا على أمره حين حبب الله اليه الخلوة فاعتزلهم فى غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحى من رب العالمين ، وحين بدأ أمر الاسلام يظهر للوجود فأخذ يدعو الناس اليه ويبلغ ما أنزل عليه . وقد رأى التاريخ كيف خالفوه وعاندوه . وهل غاب عن التاريخ مالقى ﷺ فى نشر الاسلام من جهد وعناء ، وما قابله به أهل الطائف حين سار اليهم ينهاهم عن عبادة الأوثان ويأمرهم بعبادة الرحمن . وهل نسى التاريخ حين أخبر أهل مكة - وهم أقلية قليلة من المسلمين وأكثرية ساحقة من المشركين - بخبر

العروج به الى السماء ، ثم هل خفى عن التاريخ أمر هجرته ومع من هاجر ، والغزوات التى غزاها ، والاسباب الباعثة عليها ، وموقفه من الهدنة إذا هادن وعهوده إذا عاهد ، وما صلح الحديبية بسر . والذين طالعوا كتب السيرة النبوية يعلمون ما ذكرنا وما لم نذكر ، وقد وقفوا على كتبه ﷺ الى الملوك والاقيال والولاة يدعوهم فيها إلى دين الله ، دين السلام والوئام ، وعرفوا جهاده فى سبيل الحق وما بذله فى تبليغ دعوة الاسلام الى الناس ، إلى أن أكمل الله للانسانية دينها ، وحج ﷺ حجة الوداع ، وتوفاه الله اليه . فهل فى شىء من ذلك ما يجهله التاريخ ، وهل فيما يتعلق بهذا الرسول الاعظم ورسالته ما أسدل عليه ستار من خفاء ؟ إن كل ما ينسب اليه ﷺ أو يعزى اليه من حق أو باطل وصدق أو كذب وصحيح أو فاسد معلوم بالتفصيل وواضح أمره للناقدين . وقد يخطر ببال سائل أن يسأل : ما بال المحدثين حفظوا موضوعات الأحاديث وضعافها ، وهلا اكتفوا بالصحيح وأهملوا غيره ؟ والذى ينعم النظر فى ذلك يبدو له من المصلحة أن لا يوجه القادحون اللائمة الى المسلمين بأن هنالك مرويات قضوا عليها وأخباراً نبذوها ليخفوا من أمر نبيهم ما فيه مغمز . كما يطعن الطاعنون فى هذه الأيام على الأخبار المسيحية لأجل ذلك . أما المحدثون الكرام من علماء المسلمين فقد جمعوا كل ماله علاقة بالنبى ﷺ صحيحا كان أو سقيما حقا أو باطلا وجعلوا لنقده قواعد وأصلوا لتحقيقه أصولا يرجع اليها فى تمييز الصحيح من الفاسد والغث من السمين . وهم قد حفظوا شئون حياة النبى ﷺ وأحواله وأخباره كلها ولم يتركوا أمراً من أموره ولا شأنا من شئونه إلا ذكروه . حتى لقد وصفوه فى قيامه وجلوسه ونهوضه من النوم وهيئته فى ضحكه وابتسامه وعبادته فى ليله ونهاره ، وكيف كان يفعل إذا اغتسل وإذا أكل ، وكيف كان يشرب ، وماذا كان يلبس ، وكيف يتحدث الى الناس إذا لقيهم ، وما كان يحب من الألوان ومن الطيب ، وما هى حليته وشمائله ـ ووصفوا جسده الطاهر وصفا كاملا كأنك

تراه . ووصفوا حياته العائلية من معاشرة الرجل أهله وحليلته وأتبعوا ذلك بذكر الطهارة من الغسل فوصفوا ذلك كما وصفوا الوضوء للصلاة

وأستعرض لكم فهرسة أقدم كتاب فى الشمائل للترمذى لتعلموا كيف ضبط المسلمون أحوال النبى ﷺ وأحصوا أخباره جليلها ودقيقها خطيرها وحقيرها كثيرها وقليلها : (١) باب ما جاء فى حلية النبى ﷺ ، (٢) فى ذكر شَعره ، (٣) فى ترجُّله ، (٤) شيبه ، (٥) خضابه ، (٦) كحله ، (٧) لباسه ، (٨) عيشه ، (٩) خُفه ، (١٠) نعله ، (١١) خاتمه ، (١٢) صفة سيفه ، (١٣) درعه ، (١٤) مغفره ، (١٥) عمامته ، (١٦) إزاره ، (١٧) مشيته ، (١٨) تقنعه ، (١٩) جلسته ، (٢٠) فرشه ووسادته ، (٢١) ما جاء فى اتكائه ، (٢٢) صفة أكله ، (٢٣) خبزه ، (٢٤) إدامه ، (٢٥) وضوؤه ، (٢٦) ما يقوله قبل الطعام وبعده ، (٢٧) قدحه ، (٢٨) فاكهته ، (٢٩) شرابه ، (٣٠) صفة شربه ، (٣١) تعطره وتطيبه ، (٣٢) كيف كان كلامه ، (٣٣) إنشاده الشعر ، (٣٤) مسامرته وقصصه ، (٣٥) نومه ، (٣٦) عبادته ، (٣٧) ضحكه وتبسمه ، (٣٨) مزاحه ، (٣٩) صلاته بعد طلوع الشمس ، (٤٠) تطوعه فى بيته ، (٤١) صومه ، (٤٢) تلاوته القرآن ، (٤٣) بكاؤه وخشوعه ، (٤٤) فراشه ، (٤٥) تواضعه ، (٤٦) أخلاقه ، (٤٧) أسماؤه الكريمة ، (٤٨) معاشرته ، (٤٩) سنه ، (٥٠) وفاته ، (٥١) ميراثه ، (٥٢) حجامته

ذلك مما يتعلق بنفسه الشريفة وشخصه الكريم . وهنالك أحاديث عن كل طور من أطوار حياته وناحية من نواحيها ، كل ذلك فى وضوح وجلاء بحيث لم يبق شىء من حياته مخفيا أمره مكتوما سره ، فاذا دخل بيته فهو بين أهله وعياله وأولاده ، وان خرج منه فهو بين أصحابه ورفقائه ، وكل ذلك محفوظ مذكور مشهور

إخوانى . إن أعظم الناس وأجلهم ، إذا انقلب الى بيته كان فيه رجلا من الرجال وواحداً كآحاد الناس . ولقد صدق فولتير فى كلمته المشهورة :

« ان الرجل لا يكون عظيماً فى داخل بيته ، ولا بطلا فى أسرته » يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس اليه ، لاطلاعه على دخيلته فى مباذله . وهذا الحكم يشذ عنه أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فيقول باسورث سمث إن ما قيل عن العظماء فى مباذلهم لا يصح - على الاقل - فى محمد رسول الاسلام ، واستشهد بقول كبن « لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه ، إنه قبل أن يتقدم الى الناس جميعا ، تقدم الى الذين عرفوه إنساناً المعرفة الكاملة فطلب من زوجته وغلامه وأخيه وأقرب أصدقائه إليه وأحب خلانه أن يؤمنوا به نبيا مرسلا . فكل منهم صدّق دعواه وآمن بنبوته . وإن حليلة المرء أكثر الناس علما بباطن أمره ودخيلة نفسه وألصقهم به ، فلا يوجد من هو أعرف منها بهناته ونقائصه ، أليس أن أول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التى عاشرته خمسة عشر عاما ، واطلعت على دخائله فى جميع أموره وأحاطت به علما ومعرفة ، فلما ادعى النبوّة كانت أول من صدّقه فى نبوته

إن أعظم الناس لا يأذن لزوجه - وإن كانت له زوج واحدة - بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها ، وأن تعلن كل ما شاهدته من أحواله . لكن رسول الله ﷺ كانت له فى وقت واحد تسع زوجات ، وكانت كل منهن فى إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه فى خلواته ، وهن فى حل من أن يخبرن الناس فى وضح النهار كل ما رأين منه فى ظلمة الليل ، وأن يتحدثن فى الساحات والمجامع بما يشاهدن منه فى الحجرات . فهل عرفت الدنيا رجلا كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ويعتمد عليها الى هذا الحد ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لأنه أبعد الناس عن السوء . هذا ما يتعلق بذات الرسول ، وأما ما تحلت به نفسه من دماثة الخلق ورجاحة العقل وحصافة الرأى وكرم النفس وعلو الهمة ورحابة الصدر فان كتب الحديث ملأى بتفاصيله . وأحسن كتاب فى ذلك كتاب (الشفا) للقاضى

عياض الأندلسي . وقد قال لى يوماً وأنا فى فرنسا مستشرق اسمه ماسنيون : يكفى لتعرف أوربا محاسن رسول الله ﷺ ومحامده أن ينقل كتاب (الشفا) للقاضى عياض إلى إحدى اللغات الاوربية

إننى بوّبتُ فى الجزء الثانى من السيرة عند ذكر شمائله ﷺ هـذه الأمور : خلق رسول الله ﷺ ، وحليته ، وخاتم النبوة ، وشعره ، ومشيته ، وكلامه ، وضحكه وتبسمه ، ولباسه ، وخاتمه ، ومغفره ، ودرعه ، وطعامه ، وصفة أكله ، وسنن طعامه ، وشارته ، واللون المحبب اليه ، واللون الذى كان يرغب عنه ، وتعطره ، وحبه للنظافة والطهارة ، وركوبه . وذكرت فى أشغاله : ما كان يعمله فى نهاره من الصباح الى المساء ، ثم نومه ، وتهجده ، ووظائفه فى الصلوات ، وأسلوب خطبته ، وأعماله فى السفر ، وأعماله فى الجهاد ، وسنته فى عيادة المرضى ، وتعزيته أهل الميت ، وسنته فى لقاء الناس وعامة أشغاله . وإليكم ما ذكرت عن مجلسه ﷺ : مجالس الارشاد ، آداب المجلس ، أوقات جلوسه مع الناس ، مجالسه الخاصة بالنساء ، طريقة هديه وإرشاده ، لقاؤه الناس بالبشاشة والبشر ، تأثير صحبته فيمن يصحبه وأسلوب كلامه معهم ، وأنواع خطبه النبوية وأثرها فى السامعين . ومن العناوين التى وردت فيما ذكرته عن عبادته : دعاؤه ، صلاته ، صومه ، زكاته وصدقاته ، حجه ، مداومته ذكر الله ، شوقه إلى لقاء الله ، ذكره الله عز وجل فى مواقف القتال ، خشيته من الله ، بكاؤه ، محبته لله ، توكله عليه ، صبره ، شكره لمفيض النعم جل جلاله . ومما جاء فى كتابى المذكور عن أخلاقه ﷺ : أخلاقه بالتفصيل ، مواظبته على العمل ، مكارم أخلاقه ، حسن معاملته للناس ، عدله ، جوده وكرمه ، إيثاره ، ضيافته وقراه ، كراهته سؤال الناس إباؤه لأموال الصدقة ، قبوله الهدية ، ترفعه عن فضل الغير ومنته ، تنزهه عن الفظاظة ، وموقفه من التقشف ، وكرهه للهجاء والمدح ، التزامه عـدم التكلف فى الحياة ، وبعده عن التأنق فى المشرب والمأكل ، اجتنابه الرياء

والخيلاء ، مساواته ، تواضعه ، كرهه للمبالغة فى التعظيم والإطراء ، حياؤه ، عمله بيده ، عزيمته ، شجاعته ، صدقه فى القول ، وفاؤه بالوعد ، زهده فى الدنيا ، قناعته ، حلمه ، عفوه عن الناس ، صفحه عن أعدائه ، إحسانه إليهم ، معاملته للكافرين والمشركين ، معاملته لليهود والنصارى ، حبه الفقراء والمساكين ، عفوه عن أشد أعدائه ، دعاؤه لأعدائه بالخير ، شفقته على الصبيان ، معاملته للنساء ، رحمته بالحيوان ، ما فطر عليه من الرحمة والمحبة بوجه عام ، لين قلبه ورقته ، عيادته للمرضى ، سجاحة خلقه ودماثته ، محبته لأولاده ، معاشرته لأزواجه الطاهرات ، هديه فى المراسلة ، معالجته لأمراض النفس وأمراض البدن

وقد استقصى الحافظ ابن القيم فى كتابه (زاد المعاد) كل ما ينبغى معرفته عن النبى ﷺ وأحواله فاستوعب ذلك أكثر من غيره من المؤلفين . واليكم فهرس ما ورد فيه عن أحواله الخاصة ﷺ وشئونه اليومية : هديه فى إرسال الكتب والرسائل ، هديه فى الاكل وذكر كيفيته ، هديه فى النكاح ومعاشرة الأهل ، هديه فى نومه وانتباهه ، هديه فى ركوب الدواب ، هديه فى العبيد والإماء ، هديه فى البيع والشراء والتعامل مع الناس ، هديه عند قضاء الحاجة هديه فى أمور الفطرة ، هديه فى قص الشارب ، هديه فى كلامه وسكوته وضحكه وبكائه ، هديه فى خطبته ، هديه فى وضوئه ، هديه فى مسح الخفين ، هديه فى التيمم ، هديه فى الصلاة ، هديه فى الجلسة بين السجدتين ، هديه فى السجود ، كيفية توركه فى القعدة الأخيرة بعد السجدة ، هديه فى جلوسه وإشارته بالتشهد ، هيئة تسليمه عند الخروج من الصلاة ، دعاؤه بعد التسليم ، هديه فى سجدة السهو ، هديه فى السنن الرواتب وصلاة التطوع فى الحضر والسفر وفى المسجد والبيت ، هديه فى قيام الليل (التهجد) ، اضطجاعه بعد سنة الفجر ، صلاته فى الليل ووتره . صلاته جالساً بعد الوتر ، قنوت الوتر ، هديه فى قراءة القرآن وترتيله ، هديه فى صلاة الضحى ، هديه فى سجود الشكر ،

هديه فى سجدات القرآن ، هديه فى الجمعة ، هديه فى عبادات الجمعة ، هديه فى خطبة الجمعة ، هديه فى العيدين ، هديه فى صلاة الخوف وصلاة الكسوف ، هديه فى الاستسقاء ، هديه فى السفر والتطوع فيه ، هديه فى الجمع بين الصلاتين ، هديه فى تلاوة القرآن والاستماع له ، هديه فى عيادة المرضى ، هديه فى الجنائز والاسراع بها ، هديه فى تسجية الميت ، هديه فى السؤال عن الميت اذا حضرت جنازته ، هديه فى الصلاة على الجنازة ، هديه فى الصلاة على جنازة الصغير ، هديه فى تركه الصلاة على قاتل نفسه والغال ، هديه فى المشى أمام الجنازة ، هديه فى الصلاة على الميت الغائب ، هديه فى قيامه للجنازة إذا مرت به ، هديه فى التعزية ، وزيارة القبور ، هديه فى الاكثار من العبادة فى رمضان ، هديه فى الصوم عند رؤية الهلال ، والافطار لرؤية الهلال ، هديه فى قبول الشهادة لرؤية الهلال ، هديه فى الافطار فى السفر ، الافطار يوم عرفة ، صومه أيام الجمعة والسبت والاثنين ، هديه فى صوم الوصال ، هديه فى صوم التطوع وإفطاره وترك قضائه ، كراهيته تخصيص الجمعة للصوم ، هديه فى الاعتكاف ، هديه فى الحج والعمرة ، اعتماره مرتين فى سنة واحدة ، أداؤه الحج وهديه فى التضحية بيده ، هديه فى تضحية البدنة ، هديه فى العقيقة ، أذانه فى أذن المولود ، وتسميته ، وختانه ، هديه فى تسمية الناس وتكنيتهم ، احتياطه فى الكلام وتخير الالفاظ ، هديه فى الذكر والدعاء ، هديه فى دخول البيت ، هديه فى لبس الثياب ، هديه فى الذهاب الى الخلاء والرجوع منه ، هديه فى الدعاء عند الوضوء ، هديه فى ترديد كلمات الأذان ، هديه فى الدعاء لرؤية الهلال والدعاء قبل الطعام وبعده وهديه فى الطعام ، وفى السلام ، وأن لا يدخل أحد على الناس فى بيوتهم الا بعد الاستئذان ، هديه فى الدعاء فى السفر ، وعند النكاح ، هديه فى كراهية بعض الكلمات ، هديه فى الغزو والجهاد ، معاملته لأسرى الحرب والعبيد ، وهديه فى معاملة الجواسيس إذا أسروا ، هديه فى عقد الصلح ،

وتأمين المحارب ، وضرب الجزية ، ومعاملته أهل الكتاب والمنافقين

لقد أجملت لكم فيما تقدم ما جاء فى أحوال النبى ﷺ خاصة ، ليتبين لكم أنه إذا كانت هـذه الامور الدقيقة قد عنى المسلمون بحفظها فما ظنكم بالأمور الجليلة العظيمة الخطر ، وكم بذل رواة الشريعة من عنايتهم فى إحصاء أمهات السنن وأصول الرسالة ، وإحصائها ، وضبطها مفصلة . ويظهر لكم من ذلك أن جميع وجوه الحياة النبوية ومناحيها وألوانها قد صينت وحفظت من أن تعبث بها أيدى الدهر

إخوانى . حسبكم الآن أنكم قد علمتم ما أردته فى أول هذه المحاضرة من وصف السيرة المحمدية بالكمال والتمام والاحاطة ، وقد تبين لكم صدق ما ادعيته لها من أنه ما من أحد من الرسل قد حفظت سيرته وأحصيت أخباره وأحواله كما حفظت سيرة محمد ﷺ وأحصيت أخباره وأحواله

إن الوقت ضيق ، والذى أريد أن أفضى به اليكم متنوع ومترامى الاطراف وكثير المناحى ، فأنا أجمل لكم فى القول ما استطعت ، وأرجو منكم أن تستمعوا له . ان النبى ﷺ أذن لأصحابه ولمن يحضر مجالسه أن يبلغوا عنه لمن غاب عنها ، وهذا الاذن عام لما يكون عنه فى بيته وبين أهله وعياله ، أو ما يصدر عنه فى حلقته مع أصحابه ، أو مايقفون عليه من أعماله وأقواله عند تعبده فى مسجده ، أو قيامه على منبره خطيبا ، أو جهاده فى ساحة الحرب تجاه أعدائه وهو يسوّى صفوف المجاهدين فى سبيل الله . أو إذا خلا الى ربه فى حجرة منعزلة فى بيته يعبد الله ويتضرع اليه ، فكان أزواجه وأصحابه يتحدثون جميعا بكل ما يصدر عنه من قول أو عمل . ثم انه كان تجاه مسجده صفة يأوى اليها فقراء الصحابة الذين لم تكن لهم بيوت يأوون اليها ، فكانوا يتناوبون الخروج الى ما بعد بنيان المدينة يحتطبون من أشجار الصحراء والجبل ويبيعون ما يأتون به ليقتاتوا جميعا بثمنه ، ولم يكن لسائرهم عمل غير صحبة

النبي ﷺ ولزوم مجالسه ليحفظوا عنه مايقول وما يعمل ثم يروونه للناس بعناية وأمانة ، وقد بلغ عدد أهل الصفة هؤلاء سبعين رجلا كان منهم أبو هريرة الذى لم يكن صحابى أكثر منه حديثا عن رسول الله ﷺ ، وهؤلاء السبعون كانوا كأنهم جواسيس الحكومة وعيونها فى نشاطهم وإخلاصهم لما يسرهم الله له من حفظ كل ما يستطيعون حفظه مما يدخل فى موضوع الحديث النبوى لا يفترون عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار ، وقد استمر الحال بهم على ذلك يوميا مدة عشر سنوات متواليه ، واذا ارتحل عن المدينة فى غزو أو حج كانوا معه ، وكذلك غيرهم من الصحابة ، حتى لم تخف عنهم خافية من أمره ، ولم يغب عنهم معنى من معانى رسالته ، ولما كان فتح مكة كان معه من أصحابه عشرة آلاف ، ولما سار الى تبوك كان فى معسكره ثلاثون ألفاً ، ولما حج حجة الوداع حج معه فى تلك السنة مائة ألف مسلم ينطبق عليهم عنوان الصحابة ، وما منهم الا من يحرص على الوقوف على شىء من هداية نبيه ﷺ أو أى أمر من أموره فيتحدث عنه . بل هو الذى أمرهم أن يبلغوا عنه ما يسمعون منه أو يرون من تصرفاته ، فما ظنكم به بعد ذلك هل يخفى عن التاريخ وجه من وجوه حياته أو ناحية من نواحيها . هذا من جهة أصحابه ، وأما أعداؤه فانهم أفرغوا جهدهم ، واستنفدوا سعيهم ليقفوا على دخيلة من دخائله وليؤاخذوه بحقيقة يعلمونها عنه فلم يستطع أحد منهم أن يجد له ناحية ضعف ولا ما يندد به . وأقصى ما استطاع أعداؤه فى كل زمان ومكان أن يقولوه عنه انه سل سيفه للقتال وانه كان كثير الازواج . وقد تبين لكم مما سلف أن حياته الطاهرة التى فصلنا حقيقتها تفصيلا ، وأحطنا بجوانبها علما ، هى حياة العصمة من كل نقص ، البريئة من كل عيب ، فأين هذا من حياة لا نعلم عنها شيئاً ، ولا تزال نواحيها ووجوهها سراً فى ضمير الزمن !

إخوانى . أريد أن ألفت أنظاركم الى أمر آخر : إن الرسول ﷺ لم يقض حياته كلها بين أحبابه وأصحابه ، بل قضى أربعين سنة من عمره فى مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها من مشركى قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم فى أمور الحياة ليل نهار ، وهى الحياة اليومية وما تنطوى عليه من أخذ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء فيتبين للناس فسادها وصلاحها ، وهى عيشة طويل طريقها كثيرة منعطفاتها وعرة مسالكها ، تعترضها وهدات مما قد يصدر عن المرء من خيانة وإخفار عهد وأكل مال بالباطل ، وعقبات من الخديعة والخبابة وتطفيف الكيل وبخس الحقوق وإخلاف الوعد . وإن الرسول ﷺ اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة وخلص منها سالما نقيا لم يصبه شىء مما يصيب عامة الناس ، حتى لقد دعوه « الأمين » ، وإن قريشا بعد بعثته وادعائه النبوة كانوا يودعون عنده ودعائهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمتم أنه ﷺ لما هاجر من مكة خلف فيها عليا ليرد ماكان لديه من الودائع الى أهلها . فقريش خالفوه أشد الخلاف فى دعوته ولم يتركوا سبيلا الى ذلك إلا سلكوه ، فقاطعوه وعاندوه وصدوا عن سبيله وألقوا عليه سلى جزور وهو يصلى ورموه بالحجارة وأرادوا قتله وكادوا له كيدهم وسموه ساحرا ودعوه شاعرا وفندوا آراءه وسخفوا حلمه ، لكنهم لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئا فى أخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب اليه الكذب فى القول أو إخلاف الوعد أو إخفار الذمة أو نقض العهد . وان من ادعى النبوة وقال ان الله يوحى إليه فكأنه ادعى العصمة والبراءة من جميع المفاسد ومساوىء الاعمال . ألم يكن يكفى قريشا فى ردهم على الرسول أن يذكروا أموراً عمل فيها الرسول بغير الحق وأن يشهدوا عليه بأنه أخلفهم وعدا أو خانهم فى أموالهم أو كذبهم فى شىء مما قاله لهم ؟ إن قريشا أنفقوا أموالهم وبذلوا نفوسهم فى عداوة الرسول وضحوا بفلذات أكبادهم فى قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنهم لم يستيطعوا أن

يدنسوا ذيله الطاهر ولا أن يصموه بشيء فى عظيم أخلاقه . وكانت أحوال الرسول وشئونه وهديه ظاهرة لجميع الناس معلومــة لهم ، استوى فى ذلك أحبابه وأعداؤه ولم يخف عليهم شيء من أمره

كان عظماء قريش مجتمعين ذات يوم فى ناديهم فجرى ذكر الرسول ﷺ وفيهم النضر بن الحارث وكان رجلا داهية محنكا وعالما بالأخبار فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد أعياكم أمر محمد ، وعجزتم عن أن تدبروا فيه رأيا لما أصابكم به . إن محمداً قد نشأ فيكم حتى بلغ مبلغ الرجال ، وكان أحب النـاس اليكم وأصدقهم فيكم واتخذتموه أمينا ، فلما وخطه الشيب وعرض عليكم هـذا الأمر قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون . تالله لقـد سمعت كلامه فليس فيه شيء مما ذكرتم

وأبو جهـل كان أشد الناس عداوة للرسول ، وقد قال له ذات يوم : يا محمد ، إنى لا أقول انك كاذب ، لـكنى أجحد الذى جئت به وما تدعو اليه . فأنزل الله هذه الآية ﴿ قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهــم لا يكذبونك ولـكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ الانعام

ولما تلقى الرسول ﷺ أمر ربه بأن يدعو ذوى قرباه الى الاسلام وينذر عشيرته الأقربين صعد الجبل ونادى : يا معشر قريش . فلما اجتمعوا قال : هل كنتم مصدّقىّ إن قلت إن جيشاً قد بلغ سفح هذا الجبل ؟ قالوا : ما جرّبنا عليك كذبا قط (صحيح البخارى : سورة تبت)

ولما أرسل النبى ﷺ كتاب الدعوة الى هرقل عظيم الروم دعا هرقل أبا سفيان ليسأله عن هذه الدعوة وصاحبها . وأنتم تعلمون أن أبا سفيان كان يومئذ على العداوة للاسلام ورسوله مدة ست سنوات متوالية انقضت بحشد المقاتلة واستنفار المشركين لحرب المسلمين . وانظروا الى هذا الموقف يدعى فيه عدو ليسأل عن عدوه اللدود الذى يتمنى لو استطاع أن يقتله ويمحو اسمه ويخفض من شأنه ، ثم يدعى الى مجلس رجل عظيم صاحب سلطان ليشهد عنده

فى عدوه . فسأله هرقل عن النبى ﷺ :

— كيف نسبه فيكم ؟ قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب
هل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟ « لا
هل كان من آبائه من ملك ؟ « لا
فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ « بل ضعفاؤهم
أيزيدون أم ينقصون ؟ « بل يزيدون
فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ « لا
فهل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ « لا
فهل يغدر ؟ « لا . ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعل فيها
ماذا يأمركم ؟ « يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة (١)

فهل تجدون شهادة أعظم من هذه الشهادة ؟ ان الموقف حرج ، والسائل ملك ذو شوكة وقوة ، يسأل رجلا ملأ الضغن صدره عن أمر الرسول فلا يقول فيه إلا الصدق والحق . فهل تجدون رسولا كاملا أعظم من محمد ﷺ ، وأى شهادة أصدق من هذه الشهادة ؟ إن تاريخ الرسل أعجز من أن يأتى بمثلها عن غيره

سادتى . أريد أن ألفت أنظاركم إلى أمر آخر جدير بأن تهتموا له وتعنوا به ، ذلك أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ أولا لم يكونوا من صيادى الشواطئ ولا من الذين استعبدهم فرعون مصر ، بل كان الذين آمنوا بمحمد أولا رجالا من أمة عريقة فى الحرية ذات عقول ناضجة وفطنة ولهم حماسة وحمية ، لم تلن

---

(١) البخارى ك ١ ب ٦

قناتهم لحكومة قاهرة ، ولا ذللت أنفتهم دولة قوية منذ فجر التاريخ ، وكانت لهم تجارة واسعة النطاق تصدر فيها وترد سلعهم وأمتعتهم بين بلاد وبلاد ، وكانت مملكة فارس وبلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى مضطربهم وموارد تجاراتهم ، ولاحتكاكهم بالأمم المتمدنة ولقائهم الرجال من مختلف الأمم تفتقت آراؤهم واتسعت عقولهم وازدادت تجاريبهم . يدل على ذلك ما أثر عنهم من الاحكام وما وصل الينا فى صفحات التاريخ من الأخبار . وكان من هؤلاء من قاد الجيوش وانتصر بها فعدّ من أعظم القادة الفاتحين ، وكان منهم من ساس البلاد وحكم الناس فأحسن الاحسان كله فى سياسته وحكمه حتى عد من أعدل الولاة وأحكم الحكام سياسة وتدبيرا . وهل يسوغ فى العقل أن من أوتى مثل هذا العقل الراجح والمواهب العظيمة والرأى الحصيف يخفى عليه شىء من أمر هذا الرسول ﷺ أو ينخدع به ! هؤلاء الرجال هم الذين نقلوا عنه ما شهدوه بأنفسهم وسمعوه بآذانهم وكانوا يرون الاقتداء به سعادة لهم ، والاهتداء بهديه شرفاً لهم فى الدنيا وذخراً لهم فى الآخرة ، فاقتفوا آثاره ، وسلكوا سبيله ، واستنوا بسنته . وهذا دليل واضح على أنه الرسول الكامل وأنه على الحق ، مما لا يرده ولا يجادل فيه إلا مكابر

إن رسول الله محمداً ﷺ لم يحاول أن يخفى عن الناس أمراً من أموره ، ولا أن يكتمهم حالة من حالاته ، لذلك عرفوه كما كان فى الواقع ، وهو الآن فى أذهان عارفيه كما كان فى أعين مشاهديه . تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وقد عاشرته زوجة مدة تسع سنين : لا تصدقوا من يزعم أن محمداً رسول الله قد كتم شيئا مما أوحى اليه فلم يبده للناس إذ يقول الله تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[1] ﴾ المائدة

---

(١) صحيح البخارى ،فى تفسير هذه الآية

إن من طباع الناس — ولا سيما من يقوم لهم بالاصلاح والهداية والتهذيب — أنهم لا يحبون أن يظهر للناس من نفوسهم ما يؤاخذون به أو يعاب عليهم . وفى القرآن الحكيم عدة آيات نبه الله فيها رسوله على بعض خطأه ، فكان الرسول يتلو هذه الآيات كلها على الناس ، ويدعوهم الى حفظها والى تلاوتها فى الصلاة وفى المساجد ، ولا تزال هذه الآيات — كاخواتها — تتلى بألسنة أتباع محمد رسول الله ﷺ ، فحيثما يبلغ انتشار الدين المحمدى ويدين به كثير أو قليل من الناس تتلى هذه الآيات ، ولولا أن هذه الأمور ذكرت فى القرآن لما انتشر العلم بها هذا الانتشار ، وهكذا السيرة الطاهرة والحياة الكاملة هى التى تتضح للجميع بمثل وضح النهار أو أشد

كان العرب فى الجاهلية ينكرون نكاح الرجل مطلقة متبناه ، وقد تزوج الرسول زينب التى كانت من قبل زوجا لمتبناه زيد بعد أن طلقها ، فوردت هذه القصة فى القرآن ببيان صريح ، وإن أم المؤمنين عائشة تقول : لو كتم رسول الله ﷺ شيئا من القرآن لكتم هذه الآية (أى قصة طلاق زيد لزوجه زينب وزواج النبى ﷺ بها) لكيلا يسئ فهمها الجهلاء وضعاف العقول ، لكن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك . أليس هذا مما يدل على أنه ﷺ لم يكتم من أمره شيئا ولا خفى على الناس شئ من سيرته

وجدير بالذكر شهادة شهدها الفاضل الانجليزى باسورث سميث اذ يقول : « ترى الشمس ها هنا بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شئ وتصل الى كل شئ . لا شك ان فى الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئا ، ولا نتبين حقيقتها أبدا ، أو تبقى منها أمور مجهولة . بيد أن التاريخ الخارجى لمحمد (ﷺ) نعلم جميع تفاصيله من نشأته الى شبابه ، وعلاقته بالناس ، وروابطه ، وعاداته ، ونعلم أول تفكيره ، وتطوره ، وارتقاءه التدريجى ، ثم نزول الوحى العظيم عليه نوبة بعد نوبة ، ونعلم تاريخه الداخلى بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته ، وإن عندنا كتابه (القرآن) لا مثيل له فى حقيقته وفى كونه محفوظا مصونا وفى

عدم التزام الترتيب فى معانيه ، وإنه لم يستطع أحد أن يشك فى قيامه على أساس الصدق شكا يعتد به ، فهو عندنا يمثل لروح عصره ومرآة لبيئته ، فهو لذلك برىء من كل تصنع أو تكلف . وإنه بعدم التزام الترتيب فيه ، وفى تحدثه عن الشىء وضده ، معتب لنا ، غير أنه عامر بالأفكار العظيمة . فترى منه نفساً ملأى بتلك الروحانية ، مرتبطة بها ، مقصورة عليها ، ممتلة بأمر الله مع الضعف الانسانى الذى لم يدع أنه برىء منه ، بل أكبر دليل على عظمة محمد أنه لم يدع قط أنه برىء من ذلك (ص ١٥) . ويقـــول جيبّن : « لم ينجح فى الامتحان العسير رسولٌ من الرسل الأولين من بداية أمره كما نجح محمد ﷺ حين عرض نفسـه بادىء ذى بدء ـ بصفته رسولا يوحى إليـه ـ على الذين عرفوا ضعفه البشرى وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم ، فعرض رسالتـه على زوجه وعبده العنيد وابن عمه وصديقه القديم الذى لم يتحول عنه ولم يخذله وهؤلاء هم الذين سبقوا الناس إلى الايمان بنبوته . إن نصيب الأنبياء انقلب فى حق محمد وتغير عما كان عليه فيمن مضى من الرسل ، فلم يكن محمد غير محبوب إلا من الذين لم يعرفوه » . فهذه الشهادات على أن من كان أعرف النـاس برسول الله ﷺ وأقربهم إليه كان أشدهم إيمانا برسالته ، وأما الرسل الآخرون فكان الأجانب والغرباء الذين لم يعرفوهم إلا قليلا هم الذين سبقوا إلى الإيمان بهم ، وتأخر عن الإيمان بهم وتلكأ ذووهم وأهل بيوتهم والذين كانوا أكثر معرفة بهم . وهكذا كان المؤمنون برسالة محمد ﷺ هم أعرف الناس بحقيقته وأكثرهم اطلاعا على أخلاقه وسننه وهـديه ، وقد بلى كل منهم فى سبيل هذا الايمان بلاء عظيما وامتحن امتحانا شـديداً ، حتى ان خديجة زوج النبى ﷺ قضت معه ثلاث سنوات محصورة فى شعب أبى طالب تقاسى معـــه الجوع والظمأ والفاقة المنهكة . وأبو بكر صحب النبى ﷺ يوم ضاقت به أرض مكة ، فخرج معه مرتديا ظلام الليل خائفاً يترقب ، والعدو فى أثرهما يتعقب مواطىء أقدامهما ، فقام أبو بكر بحق الصحبة ، وكان الوفىّ بعهد الصـداقة . أما على فبات على فراش الرسول الذى كان المشركون قد بيتوا الفتك به . وعبده زيد

حل من النبي الكريم محل الولد بعطفه عليه ورأفته به ، فلما جاء أبوه الذى ولد من صلبه يطلب رد ابنه عليه خيره رسول الله ﷺ بين أن يصحب أباه أو يبقى تحت جناحين من عطف الرسول ورأفته ، فاختار صحبة النبي ﷺ على الرجوع مع أبيه إلى قبيلته . يقول هيجنس فى كتابة (الاعتذار عن محمد Appologey for Mohammad) : إن أتباع عيسى (عليه السلام) ينبغى لهم أن يجعلوا على ذكر منهم أن دعوة محمد (ﷺ) أحدثت فى نفوس أصحابه من الحمية ما لم يحدث مثله فى الأتباع الأولين لعيسى (عليه السلام) ، ومن بحث عن مثل ذلك لا يرجع إلا خائباً، فقد هرب الحواريون وانفضوا عن عيسى حين ذهب به أعداؤه ليصلبوه فخذله أصحابه وصحوا من سكرتهم الدينية وأسلموا نبيهم لأعدائه يسقونه كأس الموت . أما أصحاب محمد فالتفوا حول نبيهم المبغىّ عليه ودافعوا عنه مخاطرين بأنفسهم إلى أن تغلب بهم على أعدائه (انظر الترجمة الأوردية ص٦٦ - ٦٧ عن مطبوعة برلين سنة ١٨٧٣)

وحين كرّ مشركو قريش يوم أحد على المسلمين فاختلت صفوفهم وتفرق جمعهم نادى الرسول ﷺ : من يفديني ؟ فخرج من الأنصار سبعة دافع كل واحد منهم عن الرسول وما زال يقاتل دونه حتى قتل ، وقد قتل لامرأة من الأنصار فى هذه الحرب ثلاثة رجال من بيتها : أبوها وأخوها وزوجها . وتتابع إليها نعى الثلاثة واحداً بعد واحد ، فكانت تسأل أولا عن الرسول ﷺ : كيف هو ؟ فيقولون لها : انه سالم . ثم لما رأت وجهه ﷺ سُرى عنها ولم تتمالك أن صاحت قائلة : « كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله »

إن الذين دافعوا عنه وقتلوا دونه وفدوه بأنفسهم قد عرفوه حق المعرفة وعلموا سنته وهديه وخلقه ، ولولا أن حياة الرسول ﷺ كانت عظيمة كاملة ونفسه كانت أحب النفوس اليهم ، وأعظمها فى أعين أصحابه وأحبابه ، لما فدوه بأنفسهم . ومن أجل ذلك كانت حياة النبي ﷺ أسوة لأصحابه ومحبته ذريعة لمحبة الله ، فقال الله عز وجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم

الله ﷺ . فجمل اتباع الرسول فى أخلاقه وأعماله والاقتداء بسنته وهديه ، من علامات حبهم لله ، ومن السهل أن يبذل الانسان نفسه حمية لدينه لأمر يعرض له فجأة ، ولكن من العسير أن يقتدى المرء مدة حياته كلها فى جميع أطوارها وشعبها ومناحيها بهدى شخص وسنته اقتداء كاملا لا يحيد عنه ولا يعدل إلى شىء غيره ، أما أصحاب محمد رسول الله ﷺ فانهم اتبعوه فى جميع أخلاقهم وأعمالهم وسائر نواحى حياتهم وطرقها واقتفوا أثره وامتحنوا فى ذلك امتحانا شديداً وبلوا فيه بلاء عظيما ثم خرجوا من هذا الامتحان فائزين . وإن الولع الشديد بالرسول والمحبة الصادقة له قد حمل الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، ثم المحدثين ومؤلفى السير والمؤرخين ، على أن يعنوا عناية كبرى بجمع كل ما يتعلق بالرسول ﷺ من قول وعمل ، وأمر ونهى ، وحديث وخلق ، وأن يبلغوا ذلك للذين يأتون بعدهم ، فأحسنوا كل الاحسان ووفوا هذه المهمة حقها ، ليعمل بهذه الهداية كل مسلم ما استطاع . ولولا أن حياة محمد ﷺ كانت كاملة وعظيمة فى عيون أصحابه لما اعتبروا اتباعه شرفا لهم وكمالا ولما عدوا الاقتداء به ملاك السعادة وأصل الهناء وقوام الخير .

فالاسلام قرر أن حياة محمد هى المثل الكامل لجميع المسلمين ، وينبغى بيان جميع نواحيها وشعبها ووجوهها للناس كافة . وقد حقق المسلمون ذلك وحرصوا على تعرف ذلك وبيانه ، فلم تخف منه خافية ، ولم تفقد ولا حلقة واحدة من سلسلة الحياة النبوية المباركة ، فجميع أحواله وشئونه مسطورة فى كتب التاريخ ، ومن ذلك يستدل على أنها كانت حياة كاملة طاهرة بريئة من كل نقص ، ولا تكون حياة بشر أسوة للناس إلا إذا كانت واضحة ناصعة معلومة من كل وجوهها ونواحيها جامعة لجميع المحامد شاملة لأكرم الأخلاق وأحسن التعاليم

لقد كانت لبلاد بابل والهند والصين ولمصر والشام واليونان والرومان حضارات زاهرة ومدنيات عظيمة وثقافات عالية ، وقد كانت لأهالى تلك البلاد سنن فى الأخلاق اتخذوا منها أصولا وضوابط للثقافة ، وآدابا للمعاشرة : فى النهوض والقعود والكلام والطعام والشراب ، واختاروا مناهج خاصة بمعيشتهم ، ووضعوا آداباً لهم فى الزى والشارة وأوضاعا فى الملابس ، وكان لهم هدى فى نومهم ويقظتهم وحدود فى لقاء الناس والتعامل معهم ، وسنوا لأنفسهم سننا فى الزواج ، ورسموا رسوما للتهنئة والتعزية وتكفين الموتى ودفنهم ، ولم يتركوا حالا من أحوال الانسان ـ من عيادة المريض ومصافحة الاخوان ولقاء الخلان والاستحمام ـ إلا اتخذوا لها السنن والرسوم والآداب ـ فنشأت من ذلك أصول وقواعد لمدنيتهم وثقافتهم . وبديهى أن هذه السنن والآداب لم تتم لهم الا فى قرون متطاولة ، ثم درست آثارها ومحيت رسومها وطمست معالمها ، فكان قيامها واكتمالها فى زمان طويل وزوالها فى مدة قليلة .

أما مدنية الاسلام وثقافته فان قيامهما واكتمالهما وظهور بهائهما فى سنوات قليلة ولا تزال مدنية الاسلام وثقافته مستمرة ومعمولا بها فى الدنيا منذ أربعة عشر قرناً بين أمم شتى وأقوام مختلفة يستوى فى ذلك العربى والهندى والشرقى والغربى ، لأن المسلمين اقتبسوا ذلك من مشكاة نبيهم ﷺ ، وتأسوا فيه بحياته الكريمة ، فاستنارت بهذا النور حياة الصحابة ، وانعكست أضواؤها على حياة التابعين ومن جاء بعدهم ، فنشأت عن ذلك بيئة صالحة زكية ، وكان منها للعالم الاسلامى كله أسوة حسنة فى رسومه الفاشية وآدابه القويمة ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى : إن الحياة المحمدية كانت مركز الدائرة ، فجاء الصحابة فخطوا حول نقطة المركز خطوطاً تمت بها تلك الدائرة والتف المسلمون بعد ذلك من حولها . وإذا كانت المدنية الاسلامية لم تبق اليوم فى مثل كمالها الاول وجمالها الأسنى فان آثارها لا تبرح باقية تلمع ، والمسلمون يقتفون تلك

الآثار الى يومنا هذا . وقد علمنا أن حياة محمد ﷺ كانت فى بادىء الامر قدوة لجميع الصحابة فى حياتهم ، فكانوا يهتدون بهديه ، ويستنون بسنته ، ثم كان لسائر المسلمين أسوة حسنة بها يتخذونها مثالا كاملا لهم ولا تنفك صورتها معروفة لهم باقية فيهم . ولو أن قبيلة من وثنيي الهند أو إفريقية تنصرت ودخلت فى دين المسيح عليه السلام فانها تأخذ مسيحيتها من الاناجيل ، أما مدنيتها ومنهاج حياتها فى مظاهرها وأوضاعها فان تلك القبيلة تأخذه عن مدنية أوربا وثقافتها ومنهاج حياتها ، وليس ذلك من المسيحية فى شىء . أما الاسلام فاذا دخل فى هدايته قوم جدد لم يكونوا مسلمين من قبل ، فانهم كما يقتبسون دينهم مما كان يدعو اليه النبى ﷺ ، فانهم من هديه ومن سنته أيضا يتعلمون آداب المعاشرة ومنهاج الحياة الاجتماعية وطرق المعيشة . وإن تعاليم الرسول ﷺ - من أدب وخلق ومعاشرة - هى التى تؤثر فى أخلاق المسلمين فتصاغ فى هذه البوتقة حتى تسبك بها فى أزكى قالب . وقد قال يهودى مرة لأحد الصحابة وهو يعرض بالاسلام : ان رسولكم يعلمكم كل شىء ، حتى بعض الأمور الحقيرة ، فأجابه الصحابى وهو مغتبط : نعم ، إن رسولنا يعلمنا كل شىء حتى آداب الخروج الى الخلاء

وكذلك نحن لا نزال نقدم للناس تلك السيرة الكاملة التى هى لنا سراج وهاج فى جميع شئون الحياة البشرية ، فكأن السيرة المحمدية مرآة صافية للدنيا كلها يرى فيها كل انسان صورته وروحه ، ظاهره وباطنه ، قوله وعمله ، خلقه وأدبه ، هديه وسنته ، وفى استطاعته أن يصلح أخلاقه ويثقف عوجه بحسب ما يراه فى تلك المرآة الصافية

لأجل ذلك لا ترى أمة مسلمة تبحث - فى خارج دينها وبمنأى عن سيرة نبيها - عن أصول وضوابط تقوم بها اعوجاجها وتثقف منآدها وتصلح زيغها ،

لأنها فى غنى عما هو أجنبى عنها ، وعندها فى هدى سيرة نبيها ﷺ الميزان القويم والقسطاس المستقيم ، الذى تتبين به مافى العالم من خير وشر وتميز به الحق من الباطل . وفى الحق إن العالم كله لفى حاجة شديدة الى سيرة بشر كامل تتخذ من حياته الاسوة العظمى ، وليس فى الدنيا إنسان كامل يعرف التاريخ سيرته على التفصيل كما يعرف تفاصيل حياة محمد ﷺ خاتم النبيين . فالناس كلهم فى أمس الحاجة إلى أن يتخذوا من السيرة المحمدية منهاج حياتهم ، ففيها الاسوة الطاهرة ، وهى الحياة المثالية للناس جميعاً . صلى الله وسلم عليه

المحاضرة الخامسة

فى السيرة المحمدية من ناحيتها الجامعة

﴿قل إن كنتم تحبون
الله ، فاتبعونى يحببكم الله﴾

سادتى . إن جميع الأديان والنحل حثّت الناس على اتباع أصحاب هذه الأديان ، وأن يقتفوا آثارهم ، ويعملوا (بأقوال) أنبيائهم ، لينالوا بذلك رضاء الله ومحبته

أما الاسلام فقد اختار طريقاً آخر خيراً من ذلك ، وهو أنه قدّم للناس (أعمال) نبيه ، وعرض عليهم التأسى به فى سيرته كاملة ليس فيها خرم . وجعل اتباعهم لتلك السيرة وتأسيهم بصاحبها وسيلة لهم فى الحصول على رضاء الله ومحبته . لأجل ذلك ترى فى الاسلام مرجعين : كتاب الله ، وسنة نبيه . فأحكامه تعالى قد جاءتنا فى كتابه وهو القرآن الحكيم ، وفى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . والسنة فى اللغة : الطريقة . والمراد بها فى اصطلاح الشريعة الاسلامية الطريقة التى اختارها الرسول وسلكها عاملا بأحكام الله . فمعنى السنة إذن الاسوة النبوية وسيرة الرسول الطاهرة التى أثرت عنه وبلغتنا كاملة فى كتب الحديث الصحيحة ، والمسلم لا ينجح فى دينه ولا يكمل فى اسلامه إلا باتباع السنة النبوية وحدها

وليس من الممكن أن يكون جميع الداخلين فى دين من الأديان من طائفة بشرية واحدة ، أو أن يكونوا من شعب انسانى واحد ، لأن الدنيا قد قام بنيانها على التنوع فى الأعمال والاختلاف فى الافعال ، ولولا أن الناس مختلفون فى مهنهم ومكاسبهم وأشغالهم ومعايشهم ، وهم يتعاونون ويساعد

بعضهم بعضا ، لخربت الدنيا . ولا بد للعالم من ملك أو رئيس جمهورية أو وال يتولى أمورهم العامة وحاكم يحكم بينهم فيما يختلفون فيه . وكذلك لا تخلو الدنيا من رعية يرعى أمورهم رئيس ، ومن محكومين يحكم فيهم حاكم ، ومن خصوم يقضى بينهم قاض بالعدل ، ليسود الأمان ويستتب السلام . وكذلك الأمم تحتاج إلى أن يكون لها جنود يدافعون عن كيانها ، وأن يكون على الجنود ضباط وقادة . وتجد فيهم الفقراء الذين يعانون الشدة والبؤس كما تجد فيهم الأغنياء من أهل الترف والسرف . وفيهم عباد الله يقومون بطاعته فى جوف الليل ، وزهاد تحرروا من متع الدنيا وزخارفها ، ومجاهدون فى سبيل الله يقارعون الباطل ويقيمون الحق فى الأرض . وكذلك ترى فى الدنيا العائلين الذين يكدحون لمن يعولونهم ، وترى فيها لفيف الأصدقاء المتحابين ، وطوائف التجار والمحترفين ، وأصحاب المصانع والمعامل . وهكذا الدنيا لا تخلو من قادة الأمم وساسة الشعوب وزعماء الأحزاب . وعلى شتى الطوائف ومختلف الفرق قام نظام هذه الدنيا ، وكل منهم يحتاج فى عمله الى حياة مثالية وأسوة كاملة يقتدى بها ليكون سعيدا فى الحياة . والاسلام دعا جميع هذه الفرق والطوائف والأحزاب لأن يتبعوا سنة محمد ﷺ ويقتفوا آثاره ويسلكوا طريقه . ومن تتبع ذلك يتبين له أن السنة المحمدية تكفى جميع شعوب البشر وطوائفهم وفرقهم اذا اتخذوا منها الأسوة والقدوة ، ففيها النور الذى يستضاء به فى ظلمات الحياة الاجتماعية ، وكم من ظلمة حالكة فى الحياة !

ومن هنا تعلم أن سيرة محمد رسول الله ﷺ جامعة تجد فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذى تقتدى به ، والأسوة التى تأتسى بها . ومن الظاهر الواضح أن حياة المحكوم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة الحاكم ، كما أن حياة الحاكم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة المحكوم . وكذلك الفقير المعدم لا يتسنى له أن يسير فى معيشته على ضوء من حياة الغنى المثرى . ومن ثم مست الحاجة الى أن تكون الحياة المحمدية جامعة يجد فيها الناس كلهم على

اختلاف طوائفهم الاسوة الكاملة فى جميع ألوان الحياة وأطوارها . وإن مثلها كمثل الباقة الجامعة لكل أصناف الزهور والورود بجميع ألوانها : ففيها الأحمر القانىء والأبيض الناصع والاخضر الناضر والأصفر الفاقع

وفى البشر طوائف مختلفة وفرق شتى تحتاج كلها الى حياة مثالية تكون نموذجا لها فى حياتها ومعيشتها . ولكل إنسان من هذه الطوائف أعمال وأحوال تتقلب عليه بتقلب الظروف : بين قيام وقعود ومشى وأكل وشرب ونوم ويقظه وضحك وبكاء وارتداء الملابس وخلعها وأخذ وعطاء وتعلم وتعليم ، وقد يموت حتف أنفه أو يقتل ، ويكون محسنا لغيره أو محتاجاً لاحسان الآخرين اليه ، وقد يكون فى عبادة ربه أو فى معاملة الناس ومعاشرتهم ، وقد ينزل على غيره ضيفا أو يستقبل الضيف ويقوم له بحق القرى . هذه الاحوال وغيرها تطرأ على الانسان وتعرض له فيما يتعلق بجسمه وجوارحه فيحتاج فى كل حال منها الى هداية نافعة وأسوة كاملة

وأعظم من الأسوة فى أعمال الانسان الظاهرة ، الأسوة فيما يتعلق بخطرات القلوب ومجالات الفكر ونزعات العواطف ، فنحن نشعر بين كل حين وآخر بنزعات وعواطف تخالج قلوبنا وأفكارنا ، فنرضى ونسخط ، ونفرح ونحزن ، وتعترينا السكينة والطمأنينة أو القلق والضجر . وتترتب على هذه الأحوال عواطف مختلفة ونوازع متعددة . وليس الخلق الحسن إلا التعديل بين هذه الاحوال وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القوية والنوازع الثائرة . ولا يحظى بنصيبه من مكارم الأخلاق الا الذى يعرف كيف يكبح النفس عند جموحها ويحسن التصرف فيها وقت ثورتها . ومع ذلك فلا بد للانسان من إمام تكون له فيه الاسوة التامة فى هذه الأمور فيأتم به فى قهر هذه القوى الثائرة والعواطف المتوثبة الى أن تسكن ثورة نفسه ويسلك فى ذلك مسلك قدوته الاعظم وهو النبى ﷺ الذى كان يحمل بين جنبيه قلبا زكيا ونفسا طاهرة وروحا عالية نزيهة

وهكذا المرء فى كل خلة من خلال العزيمة والشجاعة والشكر والتوكل والرضا بالقدر والصبر على النوائب والتضحية والقناعة والاستغناء والايثار والجود والتواضع والمسكنة ، وسائر ما يطرأ على البشر فى منفسح حياتهم ومدى عيشهم ، وما ربما يعترى هذه الخصال فى ساعات مختلفة من مضطرب حياة الانسان ، فانه يحتاج فى كل ذلك الى أسوة وهداية بمن سبق له العمل بذلك ، وأنّى لنا هذه الاسوة الكاملة والهداية التامة إلا فى حياة محمد رسول الله ﷺ

إن حياة موسى عليه السلام تمثل لنا القوة البشرية العظيمة والبطش الشديد ، ولكننا لا نعرف فى المأثور عنه ما تكون لنا فيه الاسوة من ناحية دماثة الخلق وخفض الجناح وسجاحة النفس وسماحتها.

وفيما نعرفه من حياة المسيح نماذج لسماحة النفس ورقة الطبع ودماثة الخلق ولين الجانب ، لكننا لا نجد فيما وصل الينا من أخلاقه وأعماله تفاصيل عن شئون حياته وسيرته تحرك ساكن القوى وتثير كوامن النفس وتنبه القوى المتراخية . والانسان فى حياته محتاج الى هذا وهذا ، فكما يحتاج الى ما يهدىء ثائر قواه ويسكن جائشها يحتاج كذلك الى ما يثير الكامن من هذه القوى ويهيج ساكنها وينبه المتراخى منها . انه فى حاجة الى حياة يتخذها قدوة له فى هاتين الحالتين المختلفتين ، على أن يكون بيد صاحبها ميزان العدل بالقسط تستوى كفتاه ، ولن تجد الجمع بين هاتين الخصلتين المختلفتين جمعا قويما عزيز الوجود إلا فى حياة محمد ﷺ ، فانه هو الذى مثلت حياته أعمالا كثيرة متنوعة بحيث تكون فيها الاسوة الصالحة والمنهج الأعلى للحياة الانسانية فى جميع أطوارها ، لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة والعواطف النبيلة المعتدلة والنوازع العظيمة القويمة

اذا كنت غنيا مثريا فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجرا يسير بسلعه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين . وان كنت فقيراً معدما فلتكن

لك أسوة به وهو محصور فى شعب أبى طالب ، وحين قدم الى المدينة مهاجراً اليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئا . وإن كنت ملكا فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب على آفاقهم ودان لطاعته عظاؤهم وذوو أحلامهم . وإن كنت رعية ضعيفا فلك فى رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوما بمكة فى نظام المشركين . وإن كنت فاتحا غالبا فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه فى بدر وحنين ومكة . وإن كنت منهزما ـ لا قدر الله ذلك ـ فاعتبر به فى يوم أحـد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح . وإن كنت معلما فانظر اليه وهو يعلم أصحابه فى صفّة المسجد . وإن كنت تلميذا متعلما فتصور مقعده بين يدى الروح الامين جاثيا مسترشدا . وإن كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا فاستمع اليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوى . وان أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا معين فانظر اليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ومع ذلك فهو يدعو الى الحق ويعلن به . وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته وقهرت عناده فظهر الحق على يدك وزهق الباطل واستتب لك الأمر فانظر الى النبى ﷺ يوم دخل مكة وفتحها . وإن أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر اليه ﷺ وقد ملك ضياع بنى النضير وخيبر وفدك كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها الى من أحسن القيام عليها . وإن كنت يتيما فانظر الى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا وابنهما صغير رضيع . وإن كنت صغير السن فانظر الى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية . وإن كنت شاباً ناشئاً فاقرأ سيرة راعى مكة . وإن كنت تاجرا مسافراً بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التى قصدت بصرى . وإن كنت قاضيا أو حكما فانظر الى الحكم الذى قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الاسود فى محله وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم ارجع البصر اليه مرة أخرى وهو فى فناء مسجد المدينة يقضى بين النـاس

بالعدل يستوى عنده منهم الفقير المعدم والغنى المثرى . وان كنت زوجا فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة . وإن كنت أبا أولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين . وأيا من كنت ، وفى أى شأن كان شأنك ، فانك مهما اصبحت أو أمسيت وعلى أى حال بت أو أضحيت فلك فى حياة محمد ﷺ هداية حسنة وقدوة صالحة تضئ لك بنورها دياجى الحياة ، وينجلى لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح ما اضطرب من أمورك ، وتثقف بهديه أوَدك ، وتقوم بسنته عوَجك . وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هى ملاك الأخلاق وجماع التعاليم لشعوب الأرض وللناس كافة فى أطوار الحياة كلها وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها . فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدى ، وإرشادها ملجأ لكل مسترشد

كان الواعظ الذائع الصيت الاستاذ حسن على رحمه الله يصدر فى (بتنه) قبل خمسين عاما مجلة (نور الاسلام) ، وقد قال فى جزء منها ان صديقا له من البراهمة قال له : إنى أرى أن رسول الإسلام أعظم رجال العالم وأكملهم. فقال له الاستاذ حسن على : وما هى منزلة المسيح عيسى بن مريم عندك من رسول الاسلام ؟ فأجابه : إن المسيح بن مريم عندى فى جانب محمد ﷺ كمثل ولد صغير يتكلم بكلام عذب ويتحدث حديثا حلوا عند أعقل أهل زمانه وأكثرهم حزما . ثم سأله حسن على : وبماذا كان رسول الاسلام عندك أكمل رجال العالم ؟ فاجاب : لأنى أجد فى رسول الاسلام خلالا مختلفة وأخلاقا جمة وخصالا كثيرة لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم لانسان واحد فى آن واحد : فقد كان ملكا دانت له أوطانه كلها يصرّف الأمر فيها كما يشاء وهو مع ذلك متواضع فى نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئا وأن الأمر كله بيد ربه . وتراه فى غنى عظيم تأتيه الابل موقرة بالخزائن إلى عاصمته ، ويبقى مع ذلك محتاجاً ولا توقد فى بيته نار لطعام فى الأيام الطوال وكثيراً ما يطوى على الجوع

ونراه قائدا عظيما يقود الجند القليل العدد الضعيف العدد فيقاتل بهم ألوفا من الجند المدجج بالأسلحة الكاملة ثم يهزمهم شر هزيمة. ونجده محبا للسلام مؤثرا للصلح ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن وجأش هادىء ومعه ألوف من أصحابه كل منهم شجاع باسل وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه ونشاهده بطلا شجاعا يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم، وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رءوف متعفف عن سفك قطرة دم. وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيتـــه وأزواجه وأولاده، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم. وبالجملة انه إنسان يهمه أمر العالم كله، وهو مع ذلك متبتل إلى الله، منقطع عن الدنيا، فهو فى الدنيا وليس فيها، لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضى الله. لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه، وكان يدعو لعدوه بالخير، ويريد لهم الخير، لكنه لا يعفو عن أعداء الله، ولا يتركهم، ولا يزال ينذر الذين قد صدوا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم. تراه زاهـــداً فى الدنيا عابداً، يقوم الليل لذكر الله ومناجاته. كما تتصور من شمائله أنه الجندى الباسل المقاتل بالسيف. وتراه رسولا حصيفا ونبيا معصوما فى الساعة التى تتصوره فيها فاتحا للبلاد ظافراً بالأمم. وانه ليضطجع على حصير له من خوص ويتكىء على وسادة حشوها من ليف حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب وننادى به ملكاً على بلاد العرب. ويكون أهل بيته فى فاقة وشدة عقب استقباله الاموال العظيمة آتية اليه من أنحاء الجزيرة العربية فتكون فى فناء مسجده أكواما، وتأتيه بنته وفلذة كبده فاطمة تشكو اليه ما تكابده من حمل القربة والطحن بالرحى حتى مجلت يداها وأثرت القربة فى جسمها، والرسول يومئذ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها، فلا تنال بنته من ذلك الا دعاءه لها بكلمات يعلمها كيف تدعو بها ربها. وجاءه ذات يوم صاحبه عمر،

فأجال بصره فى الحجرة فلم يجد إلا حصيراً من خوص قد اضطجع الرسول عليه وأثر فى جنبه ، وكل ما فى البيت صاع من شعير فى وعاء وعلى مقربة منه شن معلق على وتد . هذا كل ما كان يملك رسول الله يوم دان له نصف العرب . فلما رأى عمر ذلك لم يتمالك نفسه من دموع تذرفها عيناه ، فسأله رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : ومالى لا أبكى ، إن قيصر وكسرى يتمتعان بالدنيا ، وينعمان بنعيمها ، وإن رسول الله ﷺ لا يملك إلا ما أرى . فقال له الرسول سلام الله عليه : أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى وقيصر من نعيم الدنيا ، وتكون لنا الآخرة خالصة من دون الناس ؟ !

وعندما أحدق النبى ﷺ بجيوشه ليفتح مكة قام أبو سفيان إلى جانب العباس عم النبى ﷺ ينظران الى المجاهدين من المسلمين تتقدمهم الأعلام الكثيرة ، وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للاسلام ، فراعه ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى اليهم من القبائل المسلمة وأنهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف لا يصدّه صادّ ولا يمنعه شئ ، فقال لصاحبه : يا عباس ان ابن أخيك أصبح ملكا عظيما . فأجابه العباس وهو يرى غير الذى يراه أبو سفيان : ليس هذا من الملك فى شئ يا أبا سفيان ، هذه نبوّة ورسالة

وعدىّ الطائى ـ وهو ابن حاتم الذائع الصيت الذى تضرب به الأمثال فى الجود والسخاء ـ كان سيد طيء ، وحضر مجلس الرسول ﷺ ذات يوم وهو لا يزال على المسيحية ، فشاهد إعظام الصحابة للرسول ، وعليهم عدة الجهاد من الاسلحة واللامة للدفاع ، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السلطان ، وتساءل فى نفسه : أهذا ملك من الملوك أم رسول من رسل الله ؟ وفيما هو كذلك جاءت الى النبى ﷺ امرأة فقيرة من إماء المدينة وقالت له : أريد يا رسول الله أن أسرّ إليك شيئا . فقال لها : انظرى فى أى سكك المدينة شئت أخلو لك . ثم نهض معها وقضى لها حاجتها . فلما رأى ابن حاتم الطائى

هذا التواضع العظيم من الرسول العظيم وهو بين أصحابه فى مثل عظمة الملك ، انجلى عنه ظلام الباطل وتبين له الحق واضحا وأيقن أن هذا الأمر من رسالات الله ، فعمد إلى صليبه فنزعه عنه ودخل مع أصحاب رسول الله ﷺ فى نور الاسلام

وفى الجملة إن كل ما ذكرته آنفا ليس من الاطراء فى الثناء ولا من المبالغة فى المدح ، بل هو من حقائق الواقع التى سجلها التاريخ بأصح ما استطاع أن يسجل به حقائقه . ومما لا ريب فيه أنه لا يستحق إنسان أن يكون قدوة للعالم فى جميع مناهج الحياة إلا اذا اجتمعت فيه الخلال الشريفة كلها والخصال الانسانية الكاملة بأجمعها مما يحتاج اليه الناس فى معايشهم ، فتكون لهم فى سيرته أمثلة كثيرة ، وفى هديه أمور متنوعة ، تستنير بها كل طائفة من طوائف الناس ، وكل فرقة فى كل أمة من أممهم ، فيتخذون فى أنفسهم سنناً وآدابا ومناهج من حياته الشريفة لحياتهم الاجتماعية والعائلية . وبذلك يكون الشخص العظيم المقتدى به هاديا للناس بأعماله وأخلاقه وخصاله عند ما يكون فى حالات الغضب أو الرحمة أو الجود أو الفاقة أو الشجاعة أو رقة القلب فيهتدون به فى هذه الأحوال بدنياهم كما يهتدون به بصحة الاعتقاد وسلامة العبادة لآخرتهم . فهو يجمع إلى إسعاد الناس فى آخرتهم إسعادهم فى حياتهم الدنيا وأحداثها اليومية ، فييسر لهم خلافة الله على الأرض كما يدلهم على مقام الكرامة فى ملكوت السماء . وهو مع ذلك يسن لهم السنن ويشرع لهم الأحكام لينظموا حياتهم فى الأرض والسماء . وإن العفو والمسامحة واللين وخفض الجناح للأخيار من قوام الحياة الانسانية ، ولا يسعد الانسان إلا بلين القول والعفو عن الناس وخفض الجناح لهم ، ومن كان نصيبه وافراً من هذه الخصال كان المعلم العظيم والمحسن الكبير . وإنى أسائلكم فأجيبونى : هل هذه الخصال وحدها هى التى تكون فى الانسان ، أم تكون فيه أضدادها أيضا ؟ أليس فى خصال الانسان الغضب بجانب مافيه من رحمة ، والعداوة

بجانب الصداقة والخلة ، والطمع مع القناعة ، والشره مع العفة . أليس ينزع الى الثأر كما يميل إلى العفو ، أليس هذا كله مما تقتضيه جبلة الانسان وغريزته ؟ إن المعلم الكامل هو الذى يستطيع أن يعتدل بين هذه الاحوال والخصال المتضادة ، ويقيم الميزان فى هذه النزعات والعواطف حتى يكسر سورتها ويخفف من شدتها ويكون عادلا معتدلا ، فتكون له من سجاياه الطيبة مطية كريمة تبلغ به الغاية القصوى من الحق . أما الذين يزعمون أن ملاك أديانهم وقوام نحلهم العفو واللين فحسب ، وليس فى سيرة رسلهم إلا المسامحة وخفض الجناح ، فأنبئونى - بفضلكم - كم يوما عمل أتباعهم بهذه السيرة فى مجتمعهم ، وإلى متى استمروا على هذا الهدى فى حياتهم الاجتماعية بين زمن قسطنطين أول الملوك المسيحيين إلى يومنا هذا ، وأى ملك مسيحى عمل فى دولته بسيرة نبيه ؟

لقد قامت للامة المسيحية دول كثيرة فى بقاع الأرض ، فخبرونى أى دولة مسيحية سنت لرعيتها قوانين تلائم سيرة رسولها من العفو عن الجناة ، واللين لمن أغلظ ، وخفض الجناح لمن اشتد ؟ وإذا لم تكن فى سيرة رسول من رسل الله أسوة لأتباع ذلك الرسول أنفسهم فكيف يكون حالها ؟

وإذا رجعت إلى حياة نوح ترى الغيظ والحنق على الكفر وأهله وعلى الشرك ومن يدين به . وترى فى حياة ابراهيم جهاداً فى تحطيم الاصنام وإبطال عبادة الأوثان . وفى حياة موسى قتالا للمشركين بالله ، وقد سن للمؤمنين به سننا اجتماعية وقوانين ملكية . وترى المسيح عيسى بن مريم يعفو ويصفح ويلين للناس ويخفض لهم جناحه فتمتلىء نفسك إعجابا بعفوه وعفته . وأما سليمان عليه السلام فيعجبك بجلالته وسلطانه وأبهة ملكه . وتمثل لك حياة أيوب معانى الصبر على المكاره وشكر الله على الرغائب . ويملأك يونس إعجابا بإنابته إلى الله وندمه على ما فرط منه . ويوسف عليه السلام يهديك كيف يقوم الانسان بدعوة الحق وهو أسير عان وكيف يصون نفسه ويستمسك بعفافه حين تراوده امرأة ذات جمال وجلال ومال وعظمة . وفى حياة داود

درس عظمة وصحيفة عبرة إذ يبكى من خشية الله ويحمده ويدعوه متضرعا اليه . وفى سيرة يعقوب أسوة للمرء فيما يرجوه من رحمة الله والثقة به والتوكل عليه عندما تظلم الدنيا فى عينيه . أما سيرة محمد ﷺ فانها تجمع ذلك كله وتشتمل على جميع هذه الخصال وتعم الأخلاق الكريمة بحذافيرها وما تفرق منها فى سيرة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وسليمان وداود وأيوب ويونس ويوسف ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ، فكأن السيرة المحمدية بحر لجى تنصبّ فيه جميع الأنهار وتتصل به كل البحار من سير الانبياء والرسل وهديهم وسننهم

روى الخطيب البغدادى فى تاريخه باسناد لين أن نداء سمع عند مولد النبى ﷺ ان طوفوا بمحمد جميع البلاد واغطسوه فى قعر البحار ليعرف العالم كله ، ثم اذهبوا به إلى جميع الانس والطير والحيوان ، وأعطوه من خلق آدم ومعرفة شيث وشجاعة نوح وخلة ابراهيم ولسان اسماعيل ورضا إسحق وبلاغة صالح وحكمة لوط وشدة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وجهاد يوشع ولحن داود وحب دانيال ووقار الياس وعفة يحيى وزهد عيسى ، واغمسوه فى بحر أخلاق الرسل كلهم

والعلماء الذين رووا هذه الرواية فى كتبهم أرادوا بها أن يعربوا عن حقيقة سيرة الرسول وأنها كاملة جامعة ، وأن ما أعطى الرسل جميعا متفرقين قد أوتيه محمد ﷺ وحده ، وأن ما تفرق من مكارم الأخلاق فى الرسل قد اجتمع فيه ﷺ

تأملوا سيرة محمد ﷺ تجدوا فيها كل ما كانت به حياته المثالية كاملة . أليس الرسول المكى الذى خرج من بلده مهاجراً الى يثرب يشبه الرسول الاسرائيلى الذى خرج من مصر يريد مدين ؟ أليس الذى انزوى فى غار حراء يعبد ربه كالذى قصد جبل سيناء ليناجى ربه ؟ إن هذا يشبه ذلك مع فارق بينهما وهو أن عينى محمد كانتا مفتوحتين وعينا موسى كانتا مغمضتين ، وأن رسول الاسلام كان ينظر فى داخله ورسول بنى إسرائيل كان ينظر إلى خارجه

إن عيسى عليه السلام فى ذهابه إلى جبل الزيتون ليلقى عظته يشابه محمداً ﷺ وقد ارتقى جبل الصفا لينادي معاشر قريش . والذى قاتل مشركى بلاد العرب فى بدروحنين ويوم الاحزاب وتبوك يشبه موسى الذى قاتل المؤابيين والعمونيين والأموريين

وإن الرسول محمداً ﷺ دعا على سبعة رجال من أعيان مكة فهلكوا ، وموسى دعا على فرعون ومن التف حوله حين رأوا بأعينهم آية بينة من الله مرة بعد أخرى لكنهم لجوا فى عتو ونفور ولم يؤمنوا به فهلكوا مغرقين فى البحر الأحمر ، فتشابهت سنة الرسول محمد وسنة الرسول موسى عليهما الصلاة والسلام

إن محمداً نبيَّ الله دعا بالخير لمن أراد قتله من المشركين يوم أحد ، وإن عيسى عليه السلام لم يدع على أحد وما زال يبغى الخير لأعدائه ، أليس هدى محمد رسول الله ﷺ يشابه من هذه الناحية هدى عيسى رسول الله ﷺ ؟ وإن محمداً رسول الله ﷺ حين تراه فى فناء المسجد يقضى بين الناس بالحق ويحكم فيهم بالعدل ، أو فى ساحات الحرب يقاتل الكفار والمشركين ، فكأنك ترى موسى رسول الله وهو يجاهد أعداءه ويقاتل الذين يعبدون الأوثان . وحين ترى محمداً رسول الله يعبد ربه ويتضرع اليه فى خلوة عن الناس إما فى حجرة منفردة أو فى مغارة من الجبل وقد أرخى الليل سدوله فكأنك ترى عيسى وقد خلا بنفسه يوحد الله ويناجيه بالعبودية له

ولو رأيت نبى الاسلام وهو يذكر الله دائماً ويحمده ويسبحه فى البكور والآصال وفى كل حال - فاذا بدأ بالاكل بدأه باسم الله ، وإذا فرغ منه حمد الله ، وإذا جلس مع أحد كان التذكير بالله من عمله فى ذلك المجلس ، وإذا نام نام وهو يذكر ربه ويستعرض آلاءه عليه - فكأنك برؤية نبى الاسلام قد رأيت النبى صاحب الزبور فى ترتيله محامد الله ونعمه . وكأنك ترى سليمان فى جنوده وعليه جلال الملك وأبهة السلطان حينما ترى محمداً بين أصحابه وقد

فتح مكة ودخلها تحت رايات المجاهدين بأيديهم السيوف مصلتة لإقامة الحق ، والعوالى السمر مشرعة لتقويض دعائم الباطل . أما إذا رأيته وهو محصور مع ذويه فى شعب أبى طالب وقد مُنع دخول الطعام والشراب اليه من الخارج فكأنك ترى يوسف الصديق وهو فى سجن مصر يعانى شدائد الظالمين ويكابدها

إن موسى قد جاء بالأحكام ، وداود امتاز بدعاء الله والتغنى بمناجاته ، وعيسى بعث ليعلم الناس مكارم الأخلاق والزهد فى الدنيا . وأما محمد رسول الله ﷺ فقد جاء بكل ذلك : بالأحكام ، ودعاء الله ، والتوجيه إلى مكارم الاخلاق ، والحض على الزهد فى الدنيا وزينتها ، وكل هذا تجده فى القرآن الحكيم لفظا ومعنى ، وفى السيرة المحمدية قدوة وعملا

ساتى . وأحب أن ألفت أنظاركم الى ناحيـــة أخرى من نواحى السيرة المحمدية تدل على جامعيتها

إن فى الدنيا نوعين من المدارس : نوع يختص بفرع واحد من فروع المعرفة ، كالطب ، أو الهندسة ، أو التجارة ، أو الصناعة ، أو الفنون الحربية ، أو الزراعة ، أو الحقوق ، أو اللغة والآداب . ونوع يجمع هـــذه المعاهد العلمية كلها ، فمن قصده استطاع أن ينتسب إلى أى فرع شاء من فروع المعارف الانسانية . وهذا النوع الثانى هو الذى تهرع اليه طوائف الطلبة من جميع البلاد فيجد فيه كل منهم ما تميل نفسه الى التخصص فيه من العلوم ، وبهذا سميت مجموعة هذه المعاهد باسم (الجامعة) ، ومنها يتخرج قضاة المحاكم والأطباء والمهندسون وقادة الجند والناهضون بعلوم الزراعة أو الصناعة أو التجارة والمتخصصون بالآداب وعلومها والثقافة العليا وفنونها

ومن البين الواضح للمتأملين أن المجتمع الانسانى لا يتم كماله ولا تسعد حياته بضرب واحد من العلوم ، ولا بصنف خاص من أهل الحرف والصناعات بل يحتاج الى مجموع ذلك كله . وإذا استقصينا مايعرفه التاريخ من سير الأنبياء ،

ولاحظنا ما خلفوه من ثمرات أشجارهم ، عملا بقول المسيح « من ثمارهم تعرفونهم » ، فأننا نجد لهؤلاء المعلمين الربانيين والأنبياء والمرسلين تلاميذ ومهتدين ، فالواحد منهم يكون له عشرة تلاميذ ، وآخر منهم يكون له عشرون تلميذا ، ونرى لبعضهم ستين أو سبعين ، ومائة أو مائتين ، وألفا أو ألفين ، ونادراً ما يكون لاحد الانبياء من التلاميذ والأصحاب ما يبلغ خمسة عشر ألفا . أما المدرسة الأخيرة من مدارس النبوّة وهى مدرسة خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كان تلاميذها يعدون بمئات الألوف

وإذا أردت أن تعلم من هم تلاميذ المدارس النبوية الأخرى ، ومن أين جاءوا اليها ، وفى أى البلاد ولدوا ، وما مبلغهم من العلم . ثم كيف كانت أخلاقهم ، وكم أخذوا من أخلاق نبيهم وشمائله ، وكم كان تأثير تعليم نبيهم فيهم ، وما هى سيرتهم وهديهم ، وكم صلحت أعمالهم باصلاح رسولهم لهم ، فانك لن تجد لأسئلتك هذه أجوبة عليها إلا فيما يتعلق بآخر مدارس النبوّة ، فانك تجد لها جوابا على كل سؤال من هذه الأسئلة كلها بالتفصيل ، وتستطيع أن تقيد فى دفترك أسماء تلاميذ هذه المدرسة ، وأماكن ميلادهم ، ووصف ما تعلموه منها ، ومبلغ تأثرهم بأخلاق نبيهم ، ومعرفتهم بأحواله وشئونه - كل ذلك تجده مسجلا مدونا مضبوطا بوضوح وجلاء .

وهلم بنا نعرّج على جهة أخرى : إن جميع أصحاب الملل والنحل يدّعون أن أبوابهم مفتحة للجميع . فتعالوا نرى مَن منهم كانت دعوته عامة لجميع الناس ، وأبوابه مفتحة لمختلف الأمم والطوائف البشرية بلا استثناء . ومَن منهم كانت حلقته فى عهده مقصورة على رجال من أمة واحدة ، وعلى طائفة خاصة من تلك الأمة . إن جميع أنبياء بنى إسرائيل لم تتجاوز دعوتهم بلاد العراق أو بلاد الشام أو بلاد مصر ، أى أنهم لم يخرجوا من الأرض التى كانوا يسكنونها ، ولم يوجهوا دعوتهم إلا لأمتهم من بنى إسرائيل . ولذلك لا ترى فى مدارس عيسى عليه السلام رجلا غير إسرائيلى ، لأنه إنما كان

ينشد الغنم الضالة من بنى إسرائيل (متى ٧ : ٢٤) ، وإنما اقتصر على بنى اسرائيل لئلا يلقى رغيف الصبيان الى الكلاب (الانجيل) . وأصحاب الأديان فى الهند لم يكن يخطر ببالهم أن يخرجوا من أرض الأمة الآرية المقدسة (پاك أريه ورت) . نعم لقد نشر ملوك البوذية دينهم فى خارج الهند ، وبلغوا دعوة بوذا الى الأمم الأخرى ، لكن ذلك جاء بعد زمن الدعوة من أتباعها المتأخرين عنها، كما فعل الذين نشروا المسيحية فيما بعد خارج دائرة إسرائيل . أما أصحاب الدعوة الأولون فقد خلت صحائف حياتهم من تعميم الدعوة حتى تشمل جميع بنى آدم

والآن تعالوا نشاهد مدرسة الرسول العربى الأمى : أى طالب هذا ؟ هذا أبو بكر ، هذا عمر ، ذاك عثمان ، وذلك على . وهذان طلحة ، والزبير . ومَن هؤلاء ؟ هؤلاء تلاميذ من قريش البطاح بطاح مكة وذانك من غير قريش ، انهما أبو ذر وأنيس من تهامة من قبيلة غفار . وهذان أبو هريرة وطفيل جاءا من اليمن من إحدى قبائلها وتسمى دوس . ومَن هذان ؟ هذا أبو موسى وذاك معاذ بن جبل قدما من اليمن من قبيلة أخرى . وهذا ضماد ابن ثعلبة من قبيلة الأزد القحطانية . وهذا خباب بن الأرت أخو تميم : ومن أى قبيلة هؤلاء القوم ؟ منقذ بن حبان ومنذر بن عائذ من قبيلة عبد القيس استجابا لهذه الدعوة ووفدا اليها من البحرين على الخليج الفارسى . وفيهم عبيد وجعفر من سادة عمان . وفيهم فروة من معان فى بلاد الشام . ومن هؤلاء الغرباء ؟ هذا بلال من بلاد الحبشة ، وهذا الابيض يدعى صهيبا الرومى ، وهذا اسمه سلمان الفارسى من إيران ، وهذا أخو الديلم يدعى فيروز الديلمى ، وهذا سيخب ومَرُكبود من الأمة الفارسية. فها أنتم ترون نماذج لمن تتلمذ على نبى الانسانية النبى الأمى العربى خاتم المرسلين ، لقد كانت حلقة هدايته مفتوحة لكل الأمم من شتى طوائف البشر

إن صلح الحديبية الذى اتفق عليه المسلمون والمشركون فى سنة ٦ للهجرة

كان من شرائطه أن يكف كل من الفريقين عن القتال ، وذلك ما يدعو اليه الاسلام لأنه دين السلام والوئام ، وللمسلمين أن يبلغوا دينهم أينما أرادوا

وماذا فعل رسول الاسلام بعد هذه الهدنة العظيمة الخطر الكبيرة الاثر ؟ إنه ﷺ أرسل فى نفس تلك السنة كتبا إلى ملوك البلاد المجاورة دعاهم فيها إلى الاسلام ، وبلغهم رسالة الله التى بعث بها إلى الأمم . فبعث ﷺ دحية الكلبى الى هرقل قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمى إلى خسرو برويز ملك الفرس ، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عزيز مصر ، وعمرو بن أمية الى النجاشى ملك الحبشة ، وشجاع بن وهب الاسدى الى الحارث الغسانى سيد قومه فى الشام ، وسليط بن عمرو الى رؤساء اليمامة . أرسلهم ﷺ إلى هؤلاء الملوك والأقيال بكتب يدعوهم فيها إلى الاسلام ويبلغهم أنه أرسل الى جميع الناس بالهداية العامة الشاملة

سادتى . لقد تبين لكم أن مدرسة محمد رسول الله كانت جامعة للناس من جميع الطوائف وكانت عامة للأمم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبقاتهم فى الثقافة والمجتمع ، وأنه لم يكن هناك أى قيد يمنع أى انسان من الالتحاق بها ، فكأنها مأدبة كريم يدعو الجفلى . فتعالوا نلق نظرة أخرى على هذه المدرسة لنصدر حكمنا الصحيح على حقيقتها ومكانتها ومنزلتها من معاهد الهداية والحكمة ، ولنرى إن كانت خاصة بعلم دون غيره من العلوم ، أم هى جامعة كبرى يجد فيها طلاب المعارف أجمعون كل ما ينشدونه ويتعطشون إلى معرفته من حقائق الوجود ليختاروا منها ما يوافق أذواقهم ويلائم طباعهم ويروى ظمأهم . انظروا الى مدرسة موسى عليه السلام تجدوا فيها عدداً من قادة الجيش أو قضاة المحاكم أو طائفة قليلة من ذوى المناصب الدينية ، وابحثوا عن تلاميذ عيسى سلام الله عليه تجدوا فيهم طائفة من الزهاد والنساك يتنقلون بين سكك فلسطين ويتجولون فى شوارع مدنها . أما الذين دخلوا فى الاسلام واتبعوا محمداً ﷺ فتجدون فيهم أصحمة النجاشى ملك الحبشة وفروة

عظيم معان وذا الكلاع رئيس حمير وفيروزاً الديلمي ومركبود من سادة اليمن ورؤسائها وعبيداً وجعفراً من ولاة عمان . انظروا مرة أخرى تجدوا فيما يقابل هؤلاء الملوك والولاة والرؤساء بلالا وياسرا وصهيبا وخبابا وعمارا وابا فكيهة من العبيد والرقيق والضعفاء وسمية ولبينة وزنيرة ونهدية وأم عبيس من الاماء والضعيفات . وترون كذلك في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ذوى العقول الراجحة والفكر الثاقب والرأى الحصيف وأهل الحنكة والتجربة ممن عرفوا دخائل الأمور وجربوا شئون العالم ووقفوا على أسرار الدنيا وأداروا شئون الملك وساسوا البلاد كأبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية ، فهؤلاء حكموا الأمم فاحسنوا ، وأقاموا شرع الله في أرض الله بين مشرقها ومغربها فاتسعت دائرة حكومتهم إلى شمال إفريقية وثغور الهند ، ونسخوا بعدلهم ورحمتهم سلطان عظماء الملوك وقوانين الروم والفرس ، ونزلوا من قلوب الناس أكرم منزلة بعدلهم وإنصافهم ، ومن صفحات التاريخ الصادق المرتبة التي لم يبلغها فيه أحد غيرهم لا قبلهم ولا بعدهم

وإلى جانب الخلفاء الراشدين والملوك العادلين والسلاطين المنصفين من أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ترى طائفة غير قليلة من رؤساء الجند وقادة الجيوش من أصحاب الرسول كخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ممن دوّخوا الشرق والغرب وقوّضوا دولتين عظيمتين كانتا سبّة على الانسانية ووصمة في جبينها بحكمها الجائر واضطهادهما لرعاياهما ، فكان هؤلاء القواد من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم من أكبر الفاتحين في العالم ومن أصلب المحاربين عوداً وأشجعهم قلوبا وأعلمهم بأمر القتال وتعبئة الجيوش وإدارة رحى الحروب ، وإن أسماءهم لا تزال رمزاً للمهابة والجلال في التاريخ العسكري . فسعد بن أبي وقاص هو الذى فتح العراق واقتحم مملكة فارس وانتزع فيها التاج عن مفرق كسرى الظالم وألقى به تحت قدمى الاسلام . وخالد وأبو عبيدة هما اللذان أخرجا دولة الروم وجيوشها

من ديار الشام وطهَّرا منهم أرض إبراهيم وجعلاها فى أيدى الوارثين لها من المسلمين . وعمرو بن العاص هو الذى انتزع مصر وأرض النيل من أيدى الروم الظالمين وقذف بهم إلى البحر ، وسار على أثره عبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبى سرح متوغلين فى شمال افريقيا فتحا وهداية وإصلاحا . هؤلاء هم فاتحو الممالك وقادة الجيوش الذين اعترف لهم بالكفاءة أعداؤهم وشهد التاريخ بعظمتهم وعلو كعبهم وجلال مجدهم

وبجانب هؤلاء القادة الفاتحين الباسلين ترى طائفة أخرى من ولاة المدن وحكام الاقطار من أصحاب رسول الله ﷺ مثل باذان بن ساسان فى اليمن وخالد بن سعيد فى صنعاء والمهاجر بن أمية فى كندة وزياد بن لبيد فى حضرموت وعمرو بن حزم فى نجران ويزيد بن أبى سفيان فى تيماء والعلاء ابن الحضرمى فى البحرين وغيرهم من أتباع الرسول حكموا الامصار وتولوا الولايات فسعد بهم الناس وذاقوا حلاوة عدلهم وانتشر بهم السلام وساد بفضلهم الوئام بين الناس

وبجانب هؤلاء الولاة العادلين الأبرار والحكام المنصفين الأخيار ترى فى أصحاب رسول الله ﷺ ثلة من العلماء الربانيين والفقهاء المتألهين كعمر بن الخطاب وعلىّ بن ابى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عمرو بن العاص وأمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة وأبىّ بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد بن ثابت وابن الزبير رضى الله عنهم ، الذين وضعوا فقه الاسلام وسنوا للناس قوانين أنزلتهم من واضعى القوانين للعالم منزلة سامية

وهناك جماعة خامسة ممن اعتنوا بالرواية وحفظ الوقائع والحوادث كأبى هريرة وأبى موسى الأشعرى وأنس بن مالك وأبى سعيد الخدرى وعبادة ابن الصامت وجابر بن عبدالله والبراء بن عازب وغيرهم من أصحاب الرسول الذين رووا سنن الاسلام وأحكامه وحفظوا أوامره ونواهيه وأحصوا الوقائع والأخبار

وبجانب أولئك جماعة سادسة يبلغ عددها سبعين صحابيا من أصحاب الصفة الذين لم يكن لهم بيت يأوون اليه إلا فناء المسجد ، ولم يكن لهم من متاع الدنيا إلا ما على أجسادهم من أسمال بالية ، فكانوا يخرجون إلى الصحراء يحتطبون منها ويبيعون ما يجمعونه فى السوق ويقتاتون بثمنه ، وإذا بقى فى يدهم شىء أنفقوه فى سبيل الله وفرغوا للدين وانقطعوا لتعلم أحكامه وعبادة ربهم

ثم ارجعوا البصر إلى هؤلاء الأصحاب تروا فيهم زاهداً ناسكاً متوكلا على الله كأبى ذر الغفارى الذى لم تظلّ السماء ولم تقل الأرض مثله فى صدق اللهجة وكلمة الحق ، وكان لا يدّخر الطعام لغده ويعد ادخاره منافيا للتوكل على الله ، ولذلك لقبه الرسول ﷺ بمسيح الاسلام. وفيهم سلمان الفارسى الزاهد الورع والتقى الصالح . وفيهم عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى قضى ثلاثين حولا كاملا فى عبادة الله وعرضت عليه الخلافة فأباها قائلا : لا أتولى خلافة تسفك فيها قطرة من دم المسلمين . وفيهم مصعب بن عمير الذى كان يلبس قبل اسلامه الديباج الثمين والحرير الفاخر ونشأ فى حجر النعيم والشرف وتقلب فى بحبوحة العيش ورغده ، ثم لبس فى الاسلام المسوح والخشن من الثياب المرقعة ، ولما استشهد فى سبيل الله لم يكن له ثوب ضاف يستر جسده كله فاضطروا عند دفنه الى أن يغطوا قدميه بالحشيش . وفيهم عثمان بن مظعون الذى دعى فيما بعد بأنه أول ناسك فى الاسلام . وفيهم محمد بن مَسْلمة الذى قال أيام الفتن : لو دخل على مسلم بيده سيف مسلول يريد قتلى لم أكن لأقاتله دفاعاً عن نفسى . وأما أبو الدرداء وما أدراك من أبو الدرداء ، فهو القاضى العالم الذى كان يقضى نهاره صائما وليله قائما

إن من أصحاب رسول الله ﷺ من قصصت عليك ومنهم من لم أقصص عليك . ومن ذا الذى يستطيع أن يوفى البيان حقه ؟ ! فتعال أرك منهم جماعة من مديرى أمور الأمة وساستها المحنكين كطلحة والزبير والمغيرة والمقداد

وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير وأسعد بن زرارة وعبد الرحمن بن عوف ، وفيهم من التجار أصحاب المال الدثر والثراء الوفر من أهل مكة ، أو من أصحاب الحقول والحدائق الغلب من أهل المدينة

ولا نتقدم فى البيان قبل أن نحيي ذكرى الذين قتلوا منهم فى سبيل الله لا لجرم ارتكبوه سوى أن قالوا «ربنا الله» ثم استقاموا ، وما نقموا منهم إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد . وفيهم من لم يقتل قتلة يستريح بها ، بل قطعت لحومه وكسرت عظامه وأوذى فى سبيل الله ، وهذا ما وقع لهالة ابن أم المؤمنين خديجة من زوجها الأول الذى مزق جسمه تمزيقا وقطعت أوصاله تقطيعا . وسمية أم عمار التى قتلها أبو جهل بالرمح . وأما ياسر فقد أوذى بأيدى الكفار إيذاء شديدا الى أن لحق بربه . وخباب الذى صلبه المشركون . وزيد الذى طأطأ رأسه أمام السيف لينال منه كيف يشاء ويعمل فيه عمله . وكذلك حرام بن ملحان وأصحابه التسعة والستون قتلوا فى ديار الغربة عند بئر معونة بأيدى أعراب من بنى عصية ورعل وذكوان . وإن مائة رام من بنى لحيان جرحوا عاصما وأصحابه السبعة فى يوم الرجيع حتى أثخنتهم الجروح . وقتل أصحاب ابن أبى العوجاء وكان عددهم تسعة وأربعين بأيدى بنى سليم فى السنة السابعة للهجرة . واستشهد كعب بن عمير الغفارى وأصحابه بذات أطلاح . فانظروا كم صلب لذات الله من أبناء هذا الدين الاولين وكم قتل لوجهه الكريم وكم سفك من دمائهم فى سبيله . فاذا كان من الفخر عند غيرنا أن يصلب واحد فى سبيل الله ونجاة خلقه فنحن قد صلب وقتل مئات من سلفنا الأولين لذات الله تعالى وحده ولنجاة الانسانية كلها من الوثنية والضلالة والشرك

إن النفس إذا ماتت استراحت ، سواء فى ذلك أقتلت بحد السيف أم بسنان الرمح أو صلبت ، فهى تذوق سكرة الموت لمحة ، وتتألم ببطش المنية وزهوق النفس ثم تستريح ، وأكبر من ذلك وأشد منه عذابا حياة المكابدين للبغى والظلم أعواما ، والصابرين على الأذى فى سبيل الله صبراً جميلا ، فمنهم من

ذاق أنواع العذاب لثباته على قول الحق ، ومنهم من وضعت الحجارة المحماة على صدورهم وصرعوا فى الرمضاء وحرّ الهاجرة وكانوا يتقلبون على ذلك ويتململون ويسحبون على وجوههم لينصرفوا عن قول الحق ويصبأوا عن عقيدة الاسلام فلا يبالون بذلك ويصرون على توحيد الله والشهادة بالرسالة المحمدية .

ثم ألم يأتك نبأ الذين حصروا فى شعب أبى طالب جياعا كيف كانوا يبيتون الليالى ويقضون الايام وهم يقتاتون بأوراق الطلح بعد أن فنى زادهم وصفر وطابهم وأعوزهم القوت . إن سعد بن أبى وقاص قد مسه ألم الجوع فى ليلة شديدة من تلك الليالى فخرج من شعب أبى طالب يطلب شيئا يتبلغ به ليذهب بعض ما به من ألم السغب ، فلم يجـد إلا قطعة جافة من إهاب ، فغسلها وشواها وأكلها بالماء .

وعتبة بن غزوان أيضا كان من الذين امتحنوا فى شعب أبى طالب بأيدى المشركين ، وهو يقول : إنى وأصحابى السبعة قد دميت أفواهنا من أكل هذه الأوراق والأشياء التى نقتات بها

وخباب لما أسلم وعلم باسلامه المشركون ألقوه على الجمر الملتهب وأمسكوه عليه حتى انطفأ الجمر بالصديد والقيح الذى سال من ظهر خباب

وبلال كان يذهب به سيده الى أرض ذات حجارة تلهبها أشعة الشمس فى وسط الهاجرة فيلقيه عليها ثم يضع على صدره جندلا ثقيلا حارا ، وربما شد عنقه بالحبل فيجره جرآ أليما فى سكك مكة .

وكذلك فعل بأبى فكيهة : ربطت رجله بالحبل وسحب على الأرض وخنق . وقد وضع مرة على صدره حجر ثقيل حتى ضاقت أنفاسه واندلع لسانه

وكذلك عمار أوذى إيذاء شديدا ، فكان يجندل على الرمضاء ويضرب

ضربا مبرحا . بل إن الزبير كان عمه يلفه بالحصير ويدخن عليه من أسفل . وسعيد بن زيد كان أهله يضربونه فيصبر . وعثمان كان عمه يضربه . فقابل هؤلاء كلهم البلايا والمحن وذاقوا العذاب الشديد برباطة جأش وثبات قلب وقوة إيمان فأشربت دماؤهم من هذا الرحيق الالهى الذى تناولوه من كأس الاسلام فلا يتحولون عنه مدى الحياة

إخوانى ، تأملوا . أليس هؤلاء هم العرب الذين كانوا فى معزل عن العمران يعبدون الأوثان ويعكفون على الاصنام ، وكانوا فى جاهلية ضاربين فيها بجرانهم ؟ فما بالهم انقلبت أحوالهم وتغيرت شئونهم ؟ إن أرضهم لا تزال هى الأرض ، وسماؤهم كما كانت ، وبلادهم لم تتغير . فكيف انجلى عنهم ظلام الجهل ، وكيف نفخ فيهم ذلك الامى روح الدين الحق فأصبح جاهلهم عالما ومحاربهم مسالما ، وماذا علمهم حتى انقلب الفاسد صالحا والمفسد مصلحا ، والذى لم يكن يحسن شيئا لم يلبث أن صار يدير الملك ويصرف شئون الحكومة ويسوس أمور الرعايا . وكيف نبغ منهم ذوو العقول الراجحة والآراء السديدة والافكار الثاقبة ؟ ان الرسول الامى الأعزل الذى لم يحمل فى شبابه سلاحاً ولم يملك من قبل بلاداً كيف أقام للامة العربية - التى لم تكن الامم تقيم لها فى كفة السياسة العالميــة وزنا - دولة ذات عظمة وجلال ، واكتشف فى نفوس رجالها كنزاً من القوة لا ينفد ، وكيف جعل هذا الأمى من هذه الأمة - التى لم تكن تعرف الله ولا تعلم توحيد ربوبيته - عباداً ناسكين يحيون الليل بذكر الله ، ويبلغون رسالاته فى النهار

لقد أخذت بأيديكم فأريتكم مسجد هذا النبى ﷺ فى المدينة ، وزرتم معى جامعته النبوية الكبرى زيارة كاملة ، فاجتمعتم باصناف من تلاميذه ، ولقيتم من أصحابه العلماء والفقهاء وواضعى النظم والأحكام ، وتعرفتم بالجندى الباسل والقاضى العادل ، وتشرفتم بزيارة العظماء من ولاته وحكامه ، وتعرفتم بالفقراء والمساكين والملوك والسلاطين ، وقابلتم السادة الأحرار والعبيد

الأبرار . وعرضت عليكم نماذج ممن استشهدوا فى سبيل الله ، وماتوا ابتغاء مرضاة الله ، من الغزاة والمجاهدين ، فما هو رأيكم فى كل ذلك وبماذا تحكمون؟ إن أكبر ظنى فيكم أنكم حكمتم وقطعتم فى حكمكم بأن محمداً رسول الله ﷺ كان جامعا للكمال البشرى ومثلا أعلى للمحامد الانسانية والصفات العليا ، و :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

كيف لا وهى المحاسن المحمدية المتنوعة ، والمحامد النبوية المختلفة ، تراءت فى أصحابه جميعا وظهرت فى رفقائه وتجلت فى جلسائه . فبنوره استنار فؤاد الصديق الاعظم ، وبحكمته امتلأ قلب الفاروق الأكبر وعقله حكمة وثقوب فكر وسداد رأى ، ومنه اكتسب ذو النورين عثمان الأنور رحمته وخيريته وفضائله ، ومن بلاغته تفجر البيان على لسان على كرم الله وجهه

وكل ما ترى فى خالد وأبى عبيدة وسعد وجعفر من تدبير الحرب وإحكام الرأى فى تعبئة الجيوش وزحفها ، وما ترى فى الصديق من العزيمة والأمانة وحرية الرأى وغنى النفس والزهد فى الأموال والإعراض عن زينة الدنيا وزخارفها ، وما تراه من التبتل الى الله والانقطاع له فى ابن عمر وأبى ذر وسلمان وأبى الدرداء ، وما تجد فى ابن عباس وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود من علم جم وفقه عميق فى الدين ورأى فى الأحكام سديد ، وما تلاحظه على بلال وصهيب وعمار وخبيب من السكينة والسلوى والطمانينة وقوى الايمان والحنين الى لقاء الله ، كل أولئك مقتبس من أنوار محمد نبى الله ومهبط الوحى ومحط القرآن صلاة الله وسلامه عليه ، فهو كأنه الشمس المضيئة تشرق فتنير باشعتها قلل الجبال وبطون الأودية وصحارى الأرض ووهادها وبطاحها وتتلألأ بضوئها لجج الأنهار الجارية ونباتات الحقول السندسية كما تلمع بها البقاع القاحلة والرمال التى لا آخر لها ، فيأخذ كل منها نصيبه من الضوء على قدره ، بل كأنه ﷺ غيث يهطل من سحابة درور فيصيب الجبال الشماء والغابات اللفاء والصحارى القاحلة والساحات

الواسعة والبطاح العريضة والحدائق الزاهية ، فيسقى جميع ذلك فينبت نباتات شتى بالأوراق الجميلة والأزهار المنعشة والأشجار المتنوعة . نعم ، كان الصحابة — كسائر البشر — متفاوتين فى طباعهم ومواهبهم وجبلاتهم . لكنهم ائتلفوا جميعا بالاسلام واتحدوا واشتركوا فى غاية واحدة ، فكانوا يعملون لوجه الله ويبتغون بعملهم مراضاته عز وجل . سواء فى ذلك قضاتهم وولاتهم وفقراؤهم وأغنياؤهم ورعاتهم ورعاياهم وغزاتهم وشهداؤهم وجنودهم وقوادهم والمعلمون منهم والمتعلمون والتجار والعباد والناسكون ، فكان الإخلاص رائدهم وهداية الخلق أملهم وإصلاح البشر غرضهم ، فالصحابة هداة حيثما حلوا ، وعاملون لإصلاح المجتمع البشرى أينما ذهبوا . فاذا اختلفت طبائعهم وتنوعت ألوانهم وتفاوتت مظاهرهم فقد جمعتهم كلمة التوحيد ووحدة الكتاب العزيز واتجاههم جميعا إلى قبلة واحدة . فما سلكوا سبيلا ولا عملوا عملا إلا ابتغوا به إصلاح العالم وتقويم المجتمع البشرى ومواساة بنى الانسان وإعلاء كلمة الحق وتقدم العمران البشرى نحو السلام والأمان ونشر الوئام .

إخوانى وخلانى . لقد بينت لكم فى هذه المحاضرة ما كان فى الرسول الأعظم ﷺ من خلال جامعة وخصال « جامعية » وقد أشرت إلى مظاهرها العديدة ونواحيها المختلفة . وإخالكم قد ألفيتم مما درستم فى طبيعة الكون من ألوان مختلفة ، وما عرفتم فى طبائع البشر من مواهب شتى — وهذه الدنيا ليست إلا مظهراً من مظاهر الحياة متنوعة الألوان — أن العالم لا يمكن أن تكون هدايته إلا بالمصلح الأخير للدنيا وهو خاتم رسل الله محمد ﷺ الذى اجتمعت فيه خلال الإرشاد كلها وخصال الإصلاح للنوع البشرى بأجمعه ، ولذلك قال له الله عز وجل ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ فوجه الرسول ﷺ الدعوة إلى كل من يدعى محبة الله بأن يتبعه ويطيع أمره ،

ونادى الملوك فى ممالكهم والرعاع فى شوارعهم والمعلمين فى مدارسهم والتلاميذ فى فصولهم والفقراء فى أكواخهم والأغنيـــاء فى قصورهم ، كما دعا المظلومين والمقهورين والمخذولين ، بل أهاب بالعالم كله أن يتبعوا سبيله ويقتفوا أثره ، لأن سيرته الشريفة هى المثل الأعلى وفيها الأسوة الكاملة لكل من يحب الخير ويبتغى الصلاح لنفسه .

اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

المحاضرة السادسة

الناحية العملية من السيرة المحمدية

﴿ لقد كانَ لكمْ في رسولِ الله أُسوَةٌ حسَنة ﴾

كيف نتبع الرسول ، وفيم نتبعه ؟ ذلك ما أتحدث لكم عنه من السيرة المحمدية فى ناحيتها العملية ، وذلك ما خلت منه صحائف حياة الأنبياء عليهم السلام. أما لو نظرتم إلى هذه الناحية فى السيرة المحمدية فستجدون حياة مليئة بالأعمال الجليلة ، عامرة بشتى الأعمال . وهذا الباب من كتاب سيرته ﷺ من أوسع الأبواب وأعظمها ، وبه يحكم من شاء أن يحكم أى نبى هو خاتم النبيين وسيد المرسلين . أما من سبقه من الأنبياء والرسل فلم يصل إلينا من تفاصيل حياتهم ما يكون لنا أسوة فيه ، لأن الذى عرفناه من ذلك لا يشفى علة ولا يروى غلة . والأحاديث الحلوة ، والمواعظ الحسنة ، والتعاليم العالية ليست قليلة فى الدنيا ، لكن الذى يعوز الناس هو العمل بها . وهم إذا بحثوا عن العاملين بالمواعظ البليغة والحكم الرائعة والأقوال المأثورة والأمثال السائرة كانوا كأنهم يبحثون عن عنقاء مغرب أو الكبريت الأحمر .

إن أخلاق المرء هى المرآة الصافية لسيرته ، ومظهر جلى من مظاهرها ، وأى كتاب سماوى غير القرآن يشهد لمن تنزل عليه بأنه قد تحلى بالأخلاق الحسنة والعادات السنية ، وأن صاحب ذلك الكتاب أعلى قدراً وأرفع مكانة من سائر الناس لما هو عليه من جليل الأعمال وقويم الأخلاق . أما القرآن فقد أذاع بين أعداء الرسول وأوليائه قول الله عز وجل ﴿ إن لك لأجراً غيرَ ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . وإذا كانت إحدى هاتين الجملتين معطوفة على الأخرى فانهما مربوطتان ربط العلة بالمعلول ، فالثانية علة للأولى ،

فأجر الرسول لا ينقطع وثوابه من الله لا ينفد ، إذ الرسول ذو خلق عظيم ، وأعماله وأخلاقه بلغت من العلو والسمو المبلغ الذى لا ينقطع معه أجر صاحبها ولا يقل ثوابه، لأن معين خلقه فياض لا ينضب ونبع حسناته فوار لا يغيض وقد حق للنبى الأمى العربى أن يؤنب الناس بقول الله سبحانه ﴿ لم تقولون مالا تفعلون ﴾ وهو لم يأمر أحداً بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به .

ادرسوا سيرة الواعظ العظيم عيسى بن مريم عليه السلام وصعوده جبل الزيتون ليعظ النـاس ، وقارنوا ذلك بسيرة الداعى الهادى محمد رسول الله ﷺ وصعوده جبل الصفا يدعو أمتـه ، فان رأيتم أحدهما لم يقدر له العمل بما قال للناس ولم يتم ذلك له ، فانـكم سترون سيرة الآخر عامرة بكل ما أمر به الناس وحثهم عليه . فالذى يعفو ويصفح مع المقدرة يعد حليم حقـاً وغفوراً صدقا ، ويكون عمله هذا من أمثل أخلاق البشر وأفضلها . أما الذى يسكت عن غيظ لضعف وعجز فلا يعد سكوته عفواً ولا حلمـا ، لأن العفو ينبغى أن يكون مع القدرة . والذى لا يقتل أحدا ولا يسىء إلى الغير ولا يضرب إنسانا ولا يسلب مالا ولا ينهب متاعا ولا يبنى لنفسه بيتا ولا يدخر أموالا تعد فضائله هذه سلبية ، أما إذا كان ينقـــذ المظلوم من القتل ظلما ، وينصر الضعيف ويدفع عن أموال الناس أيدى السلب والنهب ويؤوى الذين لا بيت لهم ويتصدق بالمال على المحتاجين إليه فان فضائله تعد إيجابية ، وتسمى أعمالا صالحة . والدنيا تحتاج إلى هـذه الفضائل الإيجابية . والقرآن يذيع عن النبى الكريم أنه رءوف رقيق القلب ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وهذه أكبر شهادة على رقة قلب الرسول ورأفته ورحمته ، ومن زعم أنهـــا دعوى فانه يرى الدلائل الساطعة تدعمها والبراهين الواضحة تؤيدها. ولو لم يكن الرسول ﷺ لينا دمث الأخلاق عفواً حليما لتفرقت عنه هذه الجماهير من العرب الذين نشأوا على العنجهية والإباء والشمم إلى حـد الإسراف فى الصلابة . ولرأفته بهم وحدبه عليهم قال الله عز وجل فيه ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم

بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ فمن الله على العرب بهذا الرسول وقال لهم انه يعز عليه أن تبقوا فى ضلال ، ويشق عليه أن تعمهوا فى ظلمات الكفر والشرك ، وأن تعرضوا عن الحق وتلجوا فى عتو ونفور ، وهو يبغى صلاحكم ويود خيركم ويحب فلاحكم ، وهذا هو الذى يدعوه إلى نصحكم ويحفزه لهدايتكم وإبلاغ الرسالة إليكم ، فمن لبى دعوته وقبل رسالته وأقبل على ما عند الرسول من الحق البين والخير الكثير كان أهلا لأن يرعى الرسول جانبه ويخصه بعنايته ورحمته . والرسول وإن يكن مبعوثا الى البشر كافة فان من آمن به وصدق بما جاء به فان له من رأفة الرسول ورحمته وشفقته أوفر حظ وأكبر نصيب .

هذه هى شهادة القرآن ، والقرآن أحكام وتوجيهات أنزلت على رسول الله محمد ليبلغها للناس، وسيرة الرسول هى تفسير مافى القرآن من تلك الأحكام والتوجيهات ، وحياته كلها وما صدر عنه فيها من أقوال وأفعال هى تفصيل لما جاء فى القرآن ، فكل حكم جاء به القرآن قد امتثله الرسول ومثله للناس بفعله وبينه بقوله ، فما من شىء أمر به الرسول — من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء نسك الحج وبذل الصدقة والجهاد والإيثار وتوجيه العزيمة واحتمال الصبر على النوائب وشكر الله على النعم والتعامل مع الناس بالفضائل ومكارم الأخلاق - إلا وهو مستمد من القرآن أو من الوحى الإلهى ﴿ لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ، وما من حكم أو توجيه فى القرآن إلا وقد بينه الرسول للناس بقوله وعمله وخلقه هديا وسمتا . جاء بعض الصحابة إلى أم المؤمنين عائشة يسألونها أن تصف لهم أخلاق الرسول وتصرفاته ، فأجابتهم : ألم تقرأوا القرآن الكريم ؟ لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن (سنن أبى داود) . فآيات القرآن وسوره أصوات وكلمات، وعمل الرسول وخلقه معانيها وتفسيرها. وليس فى الدنيا إنسان أكثر علما بالرجل من حليلته ،فهى التى تعلم من فضائل زوجها وأخلاقه وعاداته مالا يعلمه أحد

غيرها . ولما ادعى الرسول النبوة كان قد مضى على زواجه بخديجة خمسة عشر عاما، وهذه مدة تكفى المرء أن يعرف أحوال صاحبه وأخلاقه وعاداته معرفة تامة ، فحين سمعت خديجة أن محمداً ﷺ نزل عليه الوحى بادرت بتصديقه وآمنت به . بل ان الرسول حين فزع من نزول الوحى عليه ومجىء الملك إليه - لأنه لم يعهد ذلك من قبل - هدأت خديجة جأشه وربطت على قلبه وخففت عنه ما يلقاه وقالت له : ان الله لا يخذلك . فإنك تصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم ، وتنصر المظلوم ، وتقرى الضيف ، وتنصر على نوائب الحق . وهذا الذى ذكرته خديجة هو الذى كان يتحلى به الرسول من مكارم الأخلاق وفضائل النفس قبل أن يوحى اليه .

وإن أم المؤمنين عائشة التى صحبت الرسول تسع سنوات وكانت أحب أزواجه اليه بعد خديجة تقول فى وصفه ﷺ : إنه لم يكن يعيب أحدا ، ولا يجزى على السوء بسوء ، بل كان يعفو ويصفح ، وكان بعيداً عن السيئات . إنه لم ينتقم من أحد لنفسه ، ولم يضرب غلاما ولا أمة ولا خادما قط ، بل لم يضرب حيوانا ، ولم يردّ سائلا إلا اذا لم يكن عنده شىء .

وعلىّ صحب النبى ﷺ منذ صباه الى أن شب، فلم يكن أحد من أهل بيته أعلم منه بأخلاقه ﷺ ، وهو يشهد لرسول الله أنه كان طلق الوجه ، لين الجانب ، خافض الجناح ، دمث الأخلاق ، رحيما . ولم يكن فظا ولا جافيا ولا ينطق بسوء ، ولا يتتبع عورات الناس ، ولا يتجسس على عيوبهم . فان سأله أحد مالا يرضى سكت ولم يبد له ما يسخطه، فيفطن من يعلم خلق الرسول ماذا يريد ، لأنه لم يكن يحب أن يكسر قلب أحد بل كان يأسر القلوب ويؤلفها لأنه كان رءوفا رحيما . فيقول على كرم الله وجهه : انه ﷺ كان كريما جوادا ، وفياضا سخيا ، صادق القول لين العريكة ، من جالسه أحبه ، ومن رآه بديهة هابه . ويقول ناعته : لم أر مثله قبله ولا بعده. وقد ابدى « كبّن » المؤرخ الانكليزى الذائع الصيت هذا الرأى نفسه حين درس سيرة الرسول ﷺ

ويشهد هند — ابن خديجة من زوجها الأول ، وهو ربيب الرسول فى حجره — أنه ﷺ كان لين الطبع غير جاف ولا فظ ، ولم يكن يسوء أحداً ولا يصدر عنه نيل من شرف أحد أو غض من كرامته . وكان يشكر الناس على اليسير من عملهم الطيب ، ويأكل ما يقدم له ولا يعيبه ، وما كان يغضب أو يقتص من أحد لنفسه ، بيد أنه إذا انتهك أحد شيئاً من محارم الله لم يقم لغضبه شىء (الشمائل) .

هـــذه شهادات أقرب الناس إليه ﷺ ممن خالطوه وعاشروه وعرفوا دخائله . وهى تدل على أن سيرته الطاهرة كانت أعلى ما تكون عليه سيرة أفضل البشر . ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد ما أوحى إليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به . فدعا الناس إلى ذكر الله ومحبته ، ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمة لهذه الدعوة ، لأنه لم تكن تمضى عليه ساعة من نهار أو ليل إلا وهو يذكر الله بقلبه ويحمده بلسانه ، فكان لسانه رطبا بذكر الله لا يفتر عنه طرفة عين ، فاذا أكل أو شرب ذكر اسم الله ، وإذا فرغ من ذلك حمد الله ، وإذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه ذكر الله ، وإذا نهض أو جلس سبح الله أو حمده . وإذا لبس جديداً شكر الله ، حتى أن أذكاره ودعواته التى حفظها الناس عنه فى مختلف الأحوال شغلت فراغاً واسعا من كتب الحديث ، وجمعت فى كتاب (الحصن الحصين) الذى يبلغ مائتى صفحة ، ومن قرأ هـذه الأدعية يقضى العجب ويوقن بأنه ﷺ كان يحب الله ويخشاه ويهاب جلاله ، فكان كما وصف الله فى القرآن عباده الصالحين ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾ وكما شهدت عائشة بأنه ﷺ كان يذكر الله ولا يغفل عن ذكره أبدا .

وأمر النـاس بالصلاة وحضهم على إقامتها والمحافظة عليها أشد المحافظة ، فماذا تحسبون الرسول كان يعمل فى نفسه بما كان يأمر به غيره ؟ انه ﷺ كان يقيم الصلاة ويحافظ عليها أكثر من غيره ، كان المسلمون يقيمون الصلوات

المفروضة خمساً ، وكان ﷺ يتطوع بالزيادة على ذلك فى صلاة الضحى وصلاة الاشراق وصلاة التهجد. وكان عامة المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم، وكان هو ﷺ يصلى فى اليوم والليلة خمسين إلى ستين ركعة من المكتوبة والنوافل . لقد سقطت عن عامة المسلمين فريضة التهجد بعدما فرضت عليهم الصلوات الخمس ، لكن الرسول كان يقوم الليل ويصلى صلوات لا تسل عن حسنهن وطولهن حتى كانت قدماه تتورمان من طول القيام ، فقالت له عائشة يوماً — وقد رأت مايعانى ﷺ فى قيام الليل — : إن الله قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فما بالك يا رسول الله تلقى العناء وتتعب هذا التعب الشديد ؟ فأجابها ﷺ : « أفلا أكون لله عبداً شكورا ؟ » وكان فى هذه الصلوات معنى محبة الله أغلب عليه ﷺ من معنى الخوف، فكان يطيل الركوع حتى يخيل إلى من يراقبه أنه ربما قد نسى السجود . وكان يقيم صلاته من بدء الوحى فى فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه ويؤذونه إيذاء شديدا . وقد هجم عليه بعض المشركين وهو فى الصلاة فلم يترك صلاته خوفا منهم . وكان جنباه يتجافيان عن المضجع، وكان قليلا من الليل مايهجع، ويبيت ساجدا أو قائما والناس نيام . وأشد ما يكون إقام الصلاة حين يلتقى الجمعان فى ساحة الحرب والسيوف مصلتة والرماح مشرعة والقلوب واجفة ، ومع ذلك فانه إذا حان وقت الصلاة والحرب كما وصفنا ، اصطف المسلمون للصلاة ونبيهم إمامهم . فيتناوب بعضهم الصلاة وبعضهم الحرب وإمامهم ثابت فى الحالين إلى أن يؤدوا فريضة الله لا يمنعهم عنها مانع .

أيها القارىء ، أحب أن أطوى لك من صحائف القرون السالفة ثلاث عشرة ورقة لأعود بك إلى السنة الثانية من الهجرة . فتعال معى ننظر إلى ساحة بدر : هؤلاء مؤمنون ، وهؤلاء مشركون . لقد التقى الجمعان ، واشتد القتال بين المشركين والمؤمنين، وحمى وطيس الحرب. أين هو الرسول ياترى ؟ ها هو ذا ساجد بين يدى رب العالمين يدعوه ويسأله النصر المبين بقلب ذاكر

ولسان بالدعاء ناطق وناصية لعظمة الله ساجدة على الأرض. لقد أقام الصلاة لأوقاتها ولم يؤخرها إلا مرتين: فقد فاتته مرة فى غزوة الخندق حين تألب عليه المشركون واليهود ولم يمهلوه حتى يؤديها فى وقتها، ومرة أدلج الليل بطوله ثم غفا غفوة هو وأصحابه فطلعت عليهم الشمس ولم يستيقظوا حتى أيقظتهم بأشعتها، فقضى ما فاته من الصلاة. ثم لم تفته ﷺ حتى فى مرضه الذى توفى فيه، بل قد اشتد به المرض ووهنت قوته فخرج مع ذلك متهاديا بين رجلين من حجرته إلى أن بلغ المسجد وصلى مع الجماعة. وقد غشى عليه ثلاث مرات قبل وفاته بثلاثة أيام فكان كلما هم أن يذهب إلى المسجد غشى عليه ففاتته الصلاة مع الجماعة. هذا ما كان عليه الرسول من عبادة الله وذكره، وهذا ما تركه خلفه لمن يأتسون به فى عبادته وذكره لله عز وجل.

وأمر المسلمين بالصوم، وليس على المسلمين إلا صوم رمضان. ولكن ما ظنكم بالرسول ﷺ وصومه؟ إنه قلما كان يمر به شهر، أو أسبوع من شهر، إلا كان يصوم فيه. تقول عائشة: كان ﷺ يصوم حتى يظن أنه لن يفطر. ونهى المسلمين عن صوم الوصال، لكنه يواصل الصوم يومين بل ثلاثة أيام متوالية لا يأكل فيهن ولا يشرب، وذلك الذى يقال له صوم الوصال. وكان بعض الصحابة يحب أن يقتدى به فى ذلك فيقول ﷺ «لست كأحدكم، أيكم مثلى؟ إن ربى يطعمنى ويسقينى»، وربما كان يصوم شهرين متواليين: شعبان ورمضان. وكثيرا ما كان يصوم الأيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كل شهر، وكان يصوم ستا من شوال ويوم عاشوراء من المحرم، وكثيرا ما كان يصوم يوم السبت ويوم الخميس من كل أسبوع. كذلك كان دأبه وهديه فى الصوم.

وأمر المسلمين بإيتاء الزكاة وإنفاق المال فى الخير لكنه بدأ ذلك بنفسه: وقد علمت شهادة أم المؤمنين خديجة له فى ذلك يوم قالت له: إنك تحمل الكل، وتعين على نوائب الحق، وتكسب المعدوم. إنه لم يأمر الناس بأن

يتبعوه فى ترك الدنيا ، ولم يقل لهم ضحوا بكل ما فى أيديكم من أموال ، ولم يخبرهم بأن ملكوت السماوات موصدة أبوابه فى وجوه الأغنياء . وإنما الذى أوصاهم به أن يتصدقوا ببعض أموالهم كما قال الله عز وجل ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدخر من المال شيئاً فى بيته ، بل كان ينفق فى سبيل الله جميع ما كان يملكه ، ولم يكن قليلا ما كان يأتيه من خمس الغنائم من ذهب وفضة ومتاع وغيره من عرض الدنيا ، فكان يخرج عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين ، ولم يكن يتمتع هو ولا أهل بيته بمتع الحياة الدنيا ، فكان حظه وحظ أهل بيته من الدنيا الفقر والتعفف . وكان من سنته بعد أن فتحت أرض خيبر أن يوزع على أزواجه من الطعام والحبوب ما يكفيهم عاما . لكنه قبل أن ينقضى العام كان ينفد ما وزعه على أزواجه فيمسهم الجوع والسغب لأنه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف مما يجده فى بيوت أزواجه . يقول عبد الله بن عباس : إن رسول الله ﷺ كان أسخانا وأجودنا ، وهو أسخى ما يكون فى شهر رمضان ، ولم يقل لسائل « لا » قط طول حياته . ولم يأكل شيئا وحده مهما كان قليلا بل يشرك فيه أصحابه . وقد آذن الناس بأن « من مات وعليه دين فدَينه علىّ أقضيه عنه ، وما ترك من ميراث فميراثه لورثته » . جاءه يوما أعرابى فقال : يا محمد ، إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك ، فأوقر منه جملى . فحمله رسول الله ﷺ من الشعير والتمر ، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول . ثم قال : إنما أنا قاسم وخازن ، والله هو المعطى . يقول أبو ذر : كنت يوما أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرة المدينة فاستقبلنا جبل أحد ، فقال : أبا ذر ! قلت : لبيك يارسول الله . قال : ما يسرّنى أن عندى مثل أحد ذهبا تمضى علىّ ثلاث ليال وعندى منه دينار ، إلا شىء أرصده لدَين .

إخوانى . لا تحسبوا أن ما قاله ﷺ إنما هو كلمات عذبة وألفاظ يتجمل بها ، بل قال ما قاله عن عزيمة ، ولم يظهر للناس إلا ما كان يكنه صدره ويعمل

به مدة حياته . جاءه مرة من البحرين ذهب وفضة وأموال جمة فأمر بوضع ذلك كله فى فناء المسجد ، ثم غدا على الناس يصلى بهم الصبح دون أن تقع عينه على ذلك المال فى الجهة التى وضع فيها ، فلما انصرف من الصلاة دعا الناس وطفق يوزع المال عليهم حتى فرغ منه فقام ينفض يديه وثوبه لئلا يكون علق بثوبه الطاهر شىء من غبار ذلك المال . وجاءه من فدك أربعة جمال موقرة بالطعام . فقضى به بعض ديونه ، وآتى منه بعض الناس ، ثم سأل بلالا : هل بقى من ذلك الطعام شىء ؟ فأجابه بلال : لقد بقى منه شىء وليس ها هنا من يأخذ . فقال ﷺ لا أدخل بيتى ما بقى منه شىء . وبات تلك الليلة فى المسجد ، فلما أصبح بشره بلال قائلا : إن الله قد وضع عنك . يعنى أن بقية الطعام قد قسمت ولم يبق منه شىء . فشكر الله ودخل بيته ذات يوم بعد صلاة العصر على غير عادته ، ولم يلبث أن خرج منه ، فاستغرب الناس ذلك ، فقال لهم : انى تذكرت فى الصلاة أن فى بيتى شذرة من الذهب فخشيت أن يجىء الليل وهى فى بيت محمد . ودخل بيته ذات يوم حزينا كئيبا فسئل عن ذلك فقال : يا أم سلمة إن ما جاءنا من الدنانير السبعة قد بقى فى الفراش ، وقد حان المساء . ومما يدل على زهده ﷺ فى الدنيا ومتاعها أن الرسول ﷺ مرض مرضه الذى توفى فيه ، وكان يتقلب على فراشه من شدة المرض ، فتذكر وهو فى هذه الحالة أن فى بيته دنانير ، فأمر أن يتصدق بها وقال : أيلقى محمد ربه وقد خلف فى بيته دنانير ؟ ! فهذا ما كان عليه ﷺ فى حياته من إنفاق المال والصدقة .

لقد رغب محمد رسول الله ﷺ فى الآخرة وزهد فى الدنيا ، وحث على القناعة بالقليل منها والكفاف من العيش . فلننظر إلى عيشه كيف كان يعيش ويحيا . لقد علمتم أن الله بسط على المسلمين الدنيا ووسع فى أرزاقهم فكانت تجبى إليه الأموال من الخراج والعشر والجزية والزكاة والصدقات ، وكانت قوافل الإبل تحمل الطعام و المال إلى المدينة ، أما رسول الله ﷺ فلم

يكن له حظ من تلك الأموال الكثيرة، وكان أهل بيته فى ضنك وكفاف. تقول عائشة رضى الله عنها : توفى رسول الله ﷺ ولم يشبع يومين متوالين . وتقول : لم يكن فى بيته يوم التحق ﷺ بالرفيق الأعلى سوى صاع واحد من شعير ، وكانت درعه مرهونة عند يهودى بصاع من شعير . كان الرسول ﷺ يقول « ما لابن آدم من دنياه غير بيت يأوى إليه ، وثوب يلبسه ، وخبز جاف يأكله ، وماء يشربه » (الترمذى) . ولم ينطق ﷺ بهذه الكلمات فى الزهد بالدنيا إلا وقد رضى لنفسه بهذا القدر ، وعمل به طول حياته ، ولم يمد عينه إلى زهرة الدنيا وزينتها ، فكانت له حجرة مطينة غير مشيدة جدرانها ، وكان سقفها من الخوص والوبر . تقول عائشة : لم يُطوَ ثوبه أبدا . تعنى أنه لم يكن له ثوب آخر غير الذى على جسده الطاهر . جاءه مرة سائل يشكو الجوع الشديد ، فأرسل إلى أزواجه يطلب للسائل طعاماً من بيوتهن ، فلم يجد عند إحداهن شيئا غير الماء . ويقول طلحة : رأيت رسول الله ﷺ يوماً مضطجعاً على فرش المسجد يتململ من الجوع . وشكا إليه بعض الصحابة الجوع ذات مرة وكشفوا عن بطونهم فإذا حجر قد شده كل واحد على بطنه ، وأراهم ﷺ بطنه وقد شد عليه حجرين . وكان صوته ﷺ يضعف أحيانا من شدة الجوع . وذهب مرة إلى بيت صاحبه أبى أيوب الانصارى وهو جائع ، فصنع له أبو أيوب طعاما وقطف له بعض الرطب من حديقته ، فلما قدم إليه الطعام أخذ منه خبزاً ووضع عليه شيئا من اللحم وقال : ابعثوا به إلى فاطمة فانها لم تأكل شيئا منذ أيام . وكان يحب بنته وسبطيه حبا جما ، غير أن حبه لهم لم يحمله على أن يكسوهم لباساً ناعما أو يحلى بنته حلية ثمينة . ورأى فاطمة قد لبست ذات يوم قلادة من الذهب جاءها بها زوجها على كرم الله وجهه فقال ﷺ لها : يا فاطمة أتحبين أن يقال أن بنت محمد قد لبست طوقاً من نار؟ فنزعت تلك القلادة من عنقها واشترت بثمنها عبداً وأعتقته . ورأى عائشة قد لبست سوارين من ذهب فأمرها أن تنزعهما فنزعتهما حين قال لها :

هذا لا ينبغى لآل محمد . وكان يقول : يكفى الانسان من الدنيا ما يتزود به الغريب فى سفره . هـذا قوله ، أما عمله فيدل عليه ما روى أن أحد الصحابة دخل عليه فرآه قد أثر الحصير فى جسمه الشريف فقال : ألا نهدى إليك فرشاً وثيرا ؟ فأجابه : مالى ولدنيا كم ، ليس لى إليها حاجة إلا كما يستظل الراكب فى طريقه ليستريح ساعة من نهار ثم يمضى قدماً . وفى السنة التاسعة للهجرة وكانت رقعة الدولة الاسلامية قد امتدت إلى اليمن والشام ولا ينفذ فيها إلا أمره حتى أنه لم يـكن هو يملك إلا إزاراً وسريراً خشنا لافرش له ووسادة حشوها ليف وقليلا من الشعير وجلد حيوان فى ناحية من البيت وقربة ماء معلقة على وتد ، فاذا كان ذلك هو تزهيده الناس فى الدنيا ، فهذا هو عمله الذى رأيتم .

إخوانى . لاشك أنـكم سمعتم كثيراً من النـاس يخطبون فى « الايثار » ويحثون النـاس عليه ، فهل رأيتم مثالا عمليا للإيثار فى صحيفة حياة واعظ ؟ إذا شئتم أن تروا الأمثلة عليه فالتمسوها فى سيرة الرسول الأعظم الذى علم الأنسانية فضائل « الايثار » ، وحذرها عواقب « الأثرة » . أنتم تعلمون مبلغ حبه لأبنته فاطمة رضى الله عنها ، ومع ذلك فانها كانت تطحن بيدها حتى مجلت ، وتحمل قربة الماء على صدرها حتى اخضر" . فجاءته ذات يوم تسأله خادمة — والإماء يومئذ كثيرة — فقال لها : يافاطمة ، لم أفرغ بعد من حاجات أهل الصفة فـكيف أقضى حاجتك؟ ويروى أنه قال لها: إن أيتام شهداء بدر سبقوك فى أمر الخوادم والعبيد . وأهـدت إليه صحابية رداء فى أحد الأيام ، فنظر إليه أحد الحاضرين وقال : ما أجمل هذا الرداء ، فدفعه إليه .

وأراد أحد الصحابة أن يقيم مأدبة فى فرح له ، ولم يـكن عنده ما يقدمه للأضياف ، فأتى النبى ﷺ يستعينه ، فأرسله إلى عائشة لتعطيه سلة دقيق كانت فى بيتها ، فذهب ورجع بها ، ولم يبق فى بيت الرسول تلك الليلة ما يأكله .

وذهب مرة بأصحـاب الصفة إلى بيت عائشة وقال لها : هلمى ماعندك من طعام ، فجىء بطعام من نخالة ، فلم يشبعهم . فقال لها : هلمى شيئا آخر ،

لحى، بحساء من تمر، ثم بقدح من لبن. ولم يكن فى بيته غير ذلك فكان اللبن آخر ما قدمه للأضياف، فآثرهم بكل ما عنده.

وإن شئت أن تشاهد المثل الأعلى للثقة بالله والاعتماد عليه فشاهد ذلك فى بيت هذا الرسول من الله. فان الله أمره بقوله ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ فامتثل أمر ربه. وأنت تعلم أنه بعث فى أمة أمية ذات حمية وأنفة تمنعها أن تسمع كلمة مخالفة لعقائدها ومزاعمها، وهان عليها أن تموت فى سبيل ذلك. لكن الرسول ﷺ قام برسالته صابراً مثابراً فكان يوحد الله فى المسجد الحرام ويصلى على أعين المشركين فى فناء المسجد الذى كان ناديا لهم ومجتمعهم، فكان يركع لله ويسجد أمامهم غير مبال بهم. ولما نزل قول الله سبحانه ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ صعد جبل الصفا ونادى المشركين، فلما اجتمعوا إليه بلغهم دعوة الله. وقد امتحنوه بضروب من الأذى حتى ألقوا عليه مرة سلا جزور وهو قائم يصلى فى فناء البيت الحرام، بل أرادوا مرة أن يخنقوه بالرداء، وألقوا الشوك فى طريقه، لكنه صبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

ولما هم عمه أبو طالب أن يخرج من ذمته ويمسك يده عن حمايته، قال له وقد حميت أنفته: «ياعم، إن قريشا لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى لاأنتهى من تبليغ هذه الرسالة». وإن قريشا قد حصرته وبنى هاشم فى شعب أبى طالب مدة ثلاثة أعوام، ومنعوهم الطعام حتى كان الصبيان يتضورون جوعا. واضطر الرجال أن يقتاتوا بورق الشجر، ثم بيتوا قتله. لكن الرسول ﷺ لم يداخله الخوف ولم يتردد فى تبليغ الرسالة التى بعث بها. ثم خرج إلى المدينة واختفى فى طريقه مع صاحبه أبى بكر فى غار ثور وتتبعه المشركون حتى بلغوا مدخل الغار واقتربوا منه ولو نظروا إلى أقدامهم لرأوه، وفزع أبو بكر فى تلك الساعة العصيبة فقال: يارسول الله، إنما نحن اثنان فقال له ﷺ بصوت تمازجه الطمأنينة «ماظنك باثنين الله ثالثهما، لاتحزن، إن الله معنا»

ووعدت قريش من يأتى به جائزة قدرها مائة من الإبل ، فخرج سراقة بن جعشم يركض فرسه وبيده رمحه حتى اقترب من الرسول فقال أبو بكر : يارسول الله قد أدركنا ، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يمينا ويسارا ، أما الرسول فكان هادىء النفس مطمئن القلب يذكر الله ولا يلتفت إلى شىء . وبعد أن نجاه الله وبلغ المدينة لم يأمن غوائل قريش ومكايد اليهود فكان محاطا بالأخطار من كل جانب حتى كان المسلمون يحرسون بيته فى الليل فنزلت هذه الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فخرج لساعته من الخيمة وقال للذين يحرسونه : اذهبوا فان الله وعدنى بعصمته ، وتولى حفظى

ورجع من غزوة نجد . فاستظل بشجرة فى ساعة الهاجرة وتفرق عنه أصحابه ولم يبق عنده أحد . ولما غلبته عيناه جاءه أعرابى من المشركين وقد سل سيفه ، فانتبه الرسول ﷺ . فقال له الأعرابى : « من يعصمك منى ؟ » (تأمل حرج هذا الموقف) فأجابه ﷺ وجأشه رابط وقلبه مطمئن بالإيمان : « الله ! » فما طرقت هذه الكلمة سمع الأعرابى حتى تأثر بها وأغمد سيفه .

وخرج المسلمون إلى ساحة بدر فى قلة من العَدد والعُدد وهم لا يزيدون على ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا بعضهم معه سيف لا رمح وبعضهم معه رمح ولا سيف معه ، وعدوهم نحو ألف مقاتل فى سلاح تام وعتاد كامل ، فالتقى الجمعان وحمى وطيس الحرب . ترى أين هو قائد جيش المسلمين ؟ انظر ، هاهو قد اعتزلهم لاجئا إلى ربه يدعوه تارة ويستفتح على المشركين ، ويسجد لله تارة وهو يقول : « اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم » .

وربما وقع الخلل فى صفوف المسلمين وتفرقوا عن الرسول ، فيبقى هو ثابتا فى موضعه كالجبل الذى لا يزعزعه شىء واثقا بربه متوكلا على تأييده راجيا نصره ، كما وقع فى سفح أحد حين تفرق عنه أكثر الصحابة ، فثبت هو مكانه ، والمشركون تارة يحملون عليه بالسيوف ، وأخرى يشدون عليه بالرماح ،

ويرمونه أحيانا بالحجارة والسهام حتى انكسرت ثنيته وشرخ رأسه ودخلت فى رأسه حلقة المغفر. ففى تلك الساعة الرهيبة كان واثقا بنصر الله الذى وعده بعصمته فلا يخذله. وكذلك وقع فى حنين حين كانت سهام المشركين تقع على المجاهدين المسلمين كالمطر، فتفرق المسلمون، لكن الرسول ﷺ لم يبرح مكانه، بل ظل ثابتا يدعو الناس إلى الله وهو يقول:

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم ترجل عن مطيته وقال «أنا عبد الله ورسوله» ورفع يديه يسأل الله ويدعوه.

إخوانى. هل سمعتم بقائد باسل لا يبالى بقلة جيشه ونقص عدتهم، ولا ينكص على عقبيه ولا ينسحب من ساحة القتال وان تفرق عنه جنده، ويستغنى عن سلاحه باستنجاد ربه وطلب نصرته؟ ذلك كان مبلغ ثقته بالله، ويقينه بنصرته واعتماده على مدده.

وإخالكم سمعتم بواعظ يعظ الناس بأن يحبوا أعداءهم، ويحثهم على مودة مبغضيهم، وأن يزجروا الطير تمر سعداً للذين يزجرون لهم الطير تمر نحسا؛ لكنى لا أحسبكم رأيتم مثالا عمليا لاتعاظ الناس بهذه المبادىء، فتعالوا معى إلى مدينة الرسول لنرى أمثلة رائعة للعمل بالمبادىء. لا أظنكم ترون مثلها فى أمكنة أخرى. واتركوا ما جرى فى مكة فان النبى ﷺ لم تكن له فيها قوة فلا نضرب المثل منها للحلم والعفو عن مقدرة. لكنه لما خرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر تعقبهما سراقة وهما فى طريقهما إلى المدينة وكان يطمع بجائزة قريش وهى مائة من الإبل لمن يأتيها برأس الرسول، فجعل يركض فرسه والطمع فى الجائزة يستفزه حتى دنا منهما، وخاف أبو بكر على الرسول ودعا الرسول ربه أن يعصمهما من شره فساخت قوائم فرس سراقة فى الرمل فاضطر أن يترجل وجعل يستقسم بالأزلام كعادتهم فى الجاهلية فخرج له الذى يكره ثلاث مرات ومع ذلك ظلت قوائم الفرس فى الرمل فأيقن سراقة

بالشر وعزم على الرجوع ، فنادى الرسول وطلب منه الأمان وأن يكتب له بذلك كتابا وأن لا يؤاخذه يوم تعلو كلمته فيتغلب على قريش ، فأمر الرسول أبا بكر فكتب له كتاب الأمان ، فلما فتحت مكة ورأى سراقة بعينه كيف تغلب الرسول ﷺ وعلت كلمته دخل فى الاسلام ولم يؤاخذه الرسول بما كان يريده من قتله ، بل لم يسأله عن ذلك البتة .

وقد علمتم أبا سفيان ومكانته من مشركى قريش ، ونشاطه فى مقـاومة الاسلام حتى لم يدع النبى ﷺ يقر قراره ويطمئن باله فى المدينة ، وهو الذى زحف بالجيوش وعبأ المشركين فى بدر وأحد والخندق وكان قائدهم فى معظم الحروب التى قامت بين المسلمين ومشركى العرب ، وكم من مسلم قتل وجريح جرح فى تلك المعارك ، لكن أبا سفيان هذا مع كل ما تقدم منه جاء إلى النبى ﷺ مع عمه العباس قبل فتح مكة ولو أنه قتله لكان بذلك معذورا ، لكنه — وهو الذى بعثه الله رحمة للعالمين — قد وسعت رحمته أبا سفيان فشمله بعفوه . ولم يكتف بالعفو حتى أكرمه وأعزه ونادى فى الناس يوم فتح مكة : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن »

وعرفتم هندا زوج أبى سفيان وعملها فى الحروب ، وهى التى كانت مع لداتها من نساء المشركين ترجز وتحرض على القتال وتخطب فى غزوة أحد ، وهى التى مثلت بعم النبى ﷺ حمزة ، فلما رأى النبى ﷺ عمه حمزة بعد الحرب وقد مثل به جزع لذلك المنظر المؤلم ، ومع كل هذا فقد أتته هند يوم الفتح متنقبة فلم يتعرض لها ولم يسألها عما فعلت ، بل عفا عنها وصفح . فلما رأت هذا العفو النبيل أكبرته ولم تتمالك أن صاحت قائلة : يا محمد ، لم يكن أهل خباء أبغض إلى من أهل خبائك قبل اليوم ، وأنا اليوم ليس أهل خباء أحب إلى من أهل خبائك .

وبعد فتح الطائف خرج وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه هاربا يلتمس مكانا آخر فاختبأ به ، فلما أظل سلطان الاسلام هذا المخبأ الذى لجأ إليه وحشى

قال له قائل : إنك لا تعلم ما نعلم من أمر محمد ﷺ ، إنك لن تجد لنفسك مأمنا إلا عنده . فحضره خائفا ، فلما وقع عليه نظر النبي ﷺ غض عنه بصره وتذكر فى تلك اللحظة عمه حمزة وقتله بيد هذا الرجل ، فذرفت الدموع من عينيه الشريفتين ، وها هو القاتل أمامه ولو أراد أن يقتص منه لكان ذلك حقا وعدلا ، لكنه عفا عنه واكتفى بأن صرفه قائلا « إليك عنى ! فانى إذا رأيتك تذكرت عمى حمزة وشهادته » .

وهذا عكرمة وأبوه أبو جهل كانا أعدى عدو للاسلام والمسلمين ولرسول الله خاصة ، فأبو جهل آذى النبي الكريم أذى لم يؤذه أحد مثله ، وابنه عكرمة قاتل المسلمين فلما فتح الله مكة لرسوله خاف على نفسه مما فعله هو وأهل بيته بالنبي والمسلمين ، ففر ناجيا بنفسه إلى اليمن ، وكانت زوجه قد أسلمت من قبل وعرفت الرسول حق المعرفة ، فذهبت بنفسها إلى اليمن وربطت على قلب زوجها وهدأت روعه ورجعت به إلى المدينة ، فلما بلغ النبي ﷺ قدومه سارع إليه يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال لعكرمة بن أبي جهل وهو فرح مسرور : « مرحبا بالراكب المهاجر » ، وهل تعلمون بمن يرحب رسول الله ﷺ ، ومن هو هذا القادم الذى فرح ﷺ بقدومه حتى سقط عن منكبه رداؤه ، وشمله بعفوه وصفحه ؟ إن هذا كله لرجل سبق منه قبل إسلامه أن قاتل المسلمين وآذاهم ، بل هو ابن الذى ألقى عليه ﷺ سلا جزور ، والذى هم أن يهجم عليه وهو يصلى فى المسجد الحرام ، والذى هم أن يخنقه بالرداء ، والذى أشار فى دار الندوة بقتل حامل هذه الرسالة الالهية إلى الانسانية ، والذى أوقد نار الحرب بساحة بدر وكاد للاسلام المكايد ولم يقبل الصلح . هذا ابن ذلك العدو الألد ، ولم يكن هذا الولد قد اعتزل أباه بل شاركه فى جميع فعلاته . فلما قدم على النبي ﷺ وهو فى أوج قوته هش له وبش ورحب به واستقبله بوجه طلق وصدر رحب [(١)] .

---

(١) الناشر : ثم كان عكرمة من أجلاء الصحابة وكبار المجاهدين والفاتحين رضى الله عنه

وهبار بن الأسود هو الذى كان فى الحقيقة قاتل زينب بنت الرسول ﷺ وله فعلات أخرى وجرائم شتى وقد خالف المسلمين أشد الخلاف ، فلما فتح الله مكة لنبيه أهدر ﷺ دمه ، فأراد هبار أن يهرب إلى فارس، ثم عدل عن ذلك وبدا له أن يحضر مجلس الرسول ﷺ ، فلما جاءه قال : يارسول الله ، كنت هممت أن أفر إلى بلاد الفرس، لكنى تذكرت عفوك العام، وصفحك الشامل ، فجئتك معترفا بجميع ما بلغك من ذنوبى . فلما سمع النبى ﷺ اعترافه شمله بعفوه الذى وسع أعداءه جميعا وفتح له باب رحمته الذى ما زال مفتوحاً للجميع .

وعمير بن وهب تآمر على قتل النبى ﷺ مع صفوان بن أمية بعد وقعة بدر ، فخرج إلى المدينة يترصد النبى ﷺ ومعه سيف مسموم ، فوقع أسيراً بأيدى المسلمين وثبتت عليه جرائمه ، فخلى النبى ﷺ سبيله ولم يمسسه بسوء .

وكان صفوان بن أمية لما تآمر مع عمير بن وهب على حياة النبى ﷺ وحرض عميراً على إتمام هذه الجريمة تعهد لعمير بأن يعول عياله ويقضى عنه ديونه لو أنه هلك فى هذه المغامرة ، فلما فتح الله مكة للنبى ﷺ فر صفوان هاربا من مكة إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن ، فجاء عمير إلى النبى ﷺ يخبره بذلك ، فأعطاه ﷺ الأمان لصفوان ، فطلب عمير من النبى ﷺ أمارة على أمان صفوان فأعطاه عمامته ، فلما لقى عمير صفوان وألح عليه بالرجوع أبدى له الخوف على نفسه فذكره عمير بما كان من النبى ﷺ لما وقع فى أسر المسلمين وحدثه بما جبل عليه النبى ﷺ من كرم النفس وسعة الصدر وسماحة الخلق وعظيم العفو ، فانقاد له صفوان وذهب إلى المدينة ، فلما حضر مجلس النبى ﷺ قال له : بلغنى أنك قد أعطيتنى الأمان ، فهل هذا حق ؟ فأجابه ﷺ نعم . فقال للنبى ﷺ : لست داخلا بيتك حتى تمهلنى شهرين ، فأجابه : لقد أمهلتك أربعة أشهر . ولم تنقض تلك المدة حتى صلح حال صفوان وتغير قلبه ودخل فى الاسلام .

ولما فتح رسول الله ﷺ خيبر معقل اليهود العظيم وحصنهم المنيع، صنعت يهودية طعاماً ودعت إليه النبي ﷺ فأجاب دعوتها ، فقدمت له لحماً مسموما ، فلما تناول منه أعلمه الله بذلك فأمسك يده عنه ودعا باليهودية فسألها عن الشاة المسمومة فاعترفت بجريمتها ، وقد بلغ من حلم رسول الله ﷺ أن تجاوز عنها ولم يؤاخذها على ذلك بسوء ، وبقى مدة حياته ﷺ يشعر بأثر ذلك السم

وتقدم آنفا أن الرسول ﷺ عند منصرفه من نجد استظل فى الهاجرة بشجرة وعلق فيها سيفه ثم ساوره النوم وقد ابتعد عنه الصحابة وتفرقوا لحاجاتهم ، إذ جاءه أعرابى من المشركين كان يرصده فأخذ السيف واخترطه ودنا من الرسول ، فاستيقظ ﷺ ، فقال له الأعرابى : من يعصمك منى ؟ فقال له الرسول وقلبه مطمئن وجأشه رابط : الله ! فلما سمع المشرك هذا الجواب الذى لم يكن يرتقبه تأثر وأغمد السيف . وفى غضون ذلك رجع بعض الصحابه والأعرابى لابث لم ينصرف ، فلم يتعرض له الرسول ولم يعاقبه على ما كان هم به . وكذلك وقع فى أسر المسلمين أعرابى كان راصداً لقتل الرسول ، فلما أحضر إليه ﷺ ذعر الأسير ، فسكن الرسول روعه وخفف عنه وقال له : لو أردت قتلى ما قدرت عليه .

وقبض المسلمون على ثمانين من المشركين يوم فتح مكة ، وكانوا ممن يحرصون على قتل الرسول ، فلما بلغه أمرهم أمر بتخلية سبيلهم ولم يمسسهم بسوء

إخوانى : انكم تعلمون الطائف وأهلها ، وكيف قابلوا الرسول بالشر والأذى أيام كان فى مكة يعانى صنوفا من المصاعب والمعضلات . إن أهل الطائف لما عرض عليهم الرسول نفسه ليجيروه ، جبهوه وردوه أقبح رد ، ولم يصغوا إلى دعوته . وان سيد الطائف ورئيسها عبد ياليل استهزأ به هو وعشيرته ، وأغرى به طغام أهل الطائف وسفلتها ليسخروا منه . فلما مر بالطريق وقد اصطفوا صفين رموه بالحجارة فجرحت قدماه وسالت منهما الدماء على حذائه . وكان ﷺ كلما جلس يستجم من التعب يمنعونه من الجلوس

وإذا مر بهم يرجمونه بالحجارة . وإن ما لقيه من أذى أهل الطائف لم ينسه طول حياته . ولقد سألته عائشة بعد ذلك بتسع سنين عن أشد مالقيه من بلاء فأخبرها بأنه يوم الطائف . وكان بعد ذلك أن زحف المسلمون على الطائف فى السنة الثامنة للهجرة وحاصروها فأطالوا حصارها واستعصى عليهم حصنها الحصين الذى قتل فيه كثيرون منهم ، فهم الرسول أن يرجع عنهم ، لكن أصحابه أبوا إلا الفتح وسألوا النبى ﷺ أن يدعو على أهل الطائف ، فرفع يديه إلى السماء يدعو فقال : اللهم اهد أهل الطائف ، اللهم ألن قلوبهم للاسلام ومكنه فيها .

هذه هى رحمة الرسول وسعة صدره وسماحة خلقه وكرم نفسه . يدعو بالخير للذين آذوه بالشر أشد الأذى ، وأبوا أن يجيروه حين استجار بهم ، ثم قاتلوه أشد القتال . ومع كل هذا لم يسأل الله لهم إلا أعظم ما يعلمه من الخير وهو الهدى . أرأيتم رجلا آخر فى الدنيا بلغت الرحمة من قلبه هذا المبلغ ؟ أجيبونى بالله عليكم ولا تقولوا إلا الصدق !

دارت رحى الحرب على المسلمين بعد أن كانت الغلبة لهم ، وذلك لأنهم خالفوا أمر الرسول ، واستهوتهم أموال المشركين فاشتغلوا بجمع الغنائم ، وحينئذ كر عليهم العدو فانهزموا وزلزلت أقدامهم ، فأحاط المشركون بالرسول ورموه بالسهام والحجارة وقاتلوه بالسلاح فانكسرت ثنيته وشج رأسه ودخل فيه ثلاث حلقات من البيضة وتضرج بالدم . فلم يزد ﷺ فى ذلك الموقف الرهيب على أن قال : « كيف تفلح أمة تقتل نبيها ؟ اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » . وإذا كان المسيح عيسى بن مريم قد قال فى عظة الجبل « أحبب عدوك » ، فان محمداً رسول الله لم يقتصر على إرشاد الناس بلسانه بأن يحبوا أعداءهم ، بل أراهم بسيرته وعمله كيف يكون موقفهم من أعدائهم .

إن عبد ياليل — وأظنكم تذكرون اسمه — قد جبه الرسول هو وعشيرته بالمكروه وآذوه أذى شديدا . فلما نزل مع قومه على الرسول ﷺ فى

المدينة بعد ذلك أنزله فى مسجده ، وضرب له قبة فيه ، وجعل يزوره بعد كل عشاء ، ويقص عليه ما كان يلقى وهو فى مكة من عناء وجهد . ومن هو عبد ياليل ؟ هو الذى استقبل الرسول ﷺ فى الطائف بالأذى، ورجمه بالحجارة وسامه الخسف . فهل عهد من أحد فيما مضى أن يحب عدوه ويعفو عنه بمثل هذه السماحة عند المقدرة ؟ ولما فتح المسلمون مكة ودخلوها أعزة ظافرين اجتمع رجال قريش وأشرافها بفناء المسجد الحرام ، وفيهم من كان قد شتم الرسول وأذاقه ضروب الأذى ، وفيهم من كان قد ائتمر عليه بالقتل ، وفيهم من كذب برسالته وافترى عليه ، وفيهم من قاتله وتذرع بكل وسيلة لمحو الاسلام، وفيهم من طعن النبى بالرمح وضربه بالسيف ، وفيهم من آذوا فقراء المسلمين وضعفاءهم وكووا صدورهم وظهورهم بالجمر الملتهب ، كل أولئك من رجال قريش وساداتها كانوا يوم فتح مكة واقفين منكسى رءوسهم صاغرين ، ولعلهم كانوا يتذكرون ما سلف منهم وتحز ذكراه فى ضمائرهم مترقبين أن يوقع بهم الرسول جزاء ما اقترفوا ، وحق لهم أن يخافوا ، فان الذى أجلوه عن وطنه وأخرجوه من داره قد عاد إليهم فاتحاً عزيزاً يقود تحت راياته عشرة آلاف من الأبطال الباسلين الذين ينتظرون أوامر سيدهم لينفذوها

فى ذلك الموقف الرهيب سألهم الرسول : ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم . فقال ﷺ : أقول اليوم ما قال يوسف لإخوته ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه هى محبة الأعداء والعفو عنهم . وهذا ما حققه محمد رسول الله ﷺ وضرب به المثل للسماحة التى لا عهد للدنيا بمثلها ، فذلك هو العفو والصفح ، وتلك هى دماثة الخلق وسعة الصدر وكرم المعدن . إنه لم يدع الناس إلى فضيلة إلا بدأ بها بنفسه . لم تكن دعوته كلمات عذبة يرسلها على الناس ، ولكنها كانت عملا يتقدم به إلى الانسانية ليكون لها منه أسوة وقدوة .

إن دعاة الديانات الأخرى يسمعون النـــاس مواعظ حلوة من أقوال

أنبيائهم ومصلحيهم . أما دعاة الاسلام فيقدمون للانسانية أمثلة عملية من سنة نبيهم وهـــديه . ولذلك كتب الله الخلود لهذه السنة وهذا الهدى ، والدين الاسلامى كما يدعو الأمم إلى كتاب الله يدعوها كذلك الى سنة نبيه الكريم : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ . إن هذا يدل على أن الرسول نفسه مثال لهذه الدعوة ، وحياته حياة مثالية للبشر جميعا . وهذا من خصوصيات الاسلام ، فكما سن الاسلام للناس القوانين والأحكام ، عرض عليهم كذلك حياة النبى ﷺ لتكون مثلا لهم يقتدون بها فى حياتهم . ولذلك كان يقول لهم « صلوا كما رأيتمونى أصلى » . وكانوا يتداولون أخباره فى آداب المعاشرة مع الأولاد والأزواج ويروون قوله ﷺ « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » .

ولما وقف بعرفات فى حجة الوداع كان عدد أصحابه من حوله نحو مائة ألف أو يزيدون ، فبلغ رسالات ربه الأخيرة ، وأعلن فيهم أحكامه ، وأبطل بقايا رسوم الجاهلية ، ومحا مابقى عالقاً من آثار مفاسدها ، واستأصل شرها وأزال أسباب الحروب بين الأمة العربية وأبطل دواعى الملاحم التى لم تكن قبل ذلك تنقطع . لكنه لما أعلن ابطال دواعى الجاهلية بدأ بنفسه أولا فقدم من عمله مايدعو الناس إلى أن يقتدوا به ، فخاطب مائة ألف من العرب الذين شهدوا موسم الحج قائلا لهم :

« إن دماء الجاهلية موضوعة تحت قدمى ، وأول دم أضعه دم ابن ربيعة ابن الحارث »

وأبطل ربا الجاهلية ، وأول ربا أبطله ربا عمه العباس بن عبد المطلب وتأتى الكرامة والشرف مع النفس والمال . وإن معالجة الأمور المتعلقة بأعراض الناس وشرفهم من أشد الأمور وأعضلها . وإصلاح ذلك يعد غضا من كرامات الناس ونيلا من شرفهم ، لذلك قلما اجترأ المصلحون على إصلاح الرسوم الفاسدة المتمكنة من نفوس الناس والضاربة جذورها فى أعماق قلوبهم

حتى إنها لتجرى فى عروقهم مجرى الدم . أما الرسول ﷺ فانه علم الناس المساواة بين جميع الطبقات ، ودعاهم إلى الأخوة الانسانية بأدق ما تصل إليه معانيها ، حتى إن الرقيق الذى كان فى اصطلاح الجاهلية أذل الناس وأحقرهم ، دعا الاسلام الناس إلى أن يعاملوه معاملة الأخ والمثيل . وبدأ النبى ﷺ بنفسه فاتخذ غلامه زيداً بمنزلة الابن، وسوى بين الرقيق والعربى الحر الكريم المحتد الشريف النجار . وكان قد بلغ الإباء والفخر والخيلاء بالعرب إلى أن كانوا يراعون ذلك فى الحرب أشد المراعاة ، فكانت القبائل تتفاضل فى درجات الشرف والكرم ، والذى يزعم لنفسه أنه أشرف من غيره وأرفع قدراً يشمخ بأنفه مترفعاً عن أن يدنس سيفه فى القتال بدم من يراه دونه شرفا وكرما ومنزلة . أما الرسول ﷺ فقد أذن فى الناس أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وبهذا التعليم الجديد أعلن أن الناس كلهم سواسية إلا بالفضائل ، فلا تعلو طبقة على طبقة ولا طائفة من القوم على طائفة أخرى ، وأصبح السيد والمولى والغنى والفقير سواء لا يتفاضلون إلا بالنفوس الرضية والأعمال الصالحة . ولم يبق للنسب وزن فى ميزان الاسلام . واحتاج هذا التعليم إلى عمل يؤيده ويقويه ويقيم له وزنا فى أعين الناس . وكان النبى ﷺ لما تبنى زيد بن حارثة زوجه زينب بنت جحش (وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ) . وكان المتبنى فى نظام الجاهلية مثل الولد من الصلب ، فكانوا يحرمون على أنفسهم نكاح حلائل من اتخذوه ابنا لهم كما يحرمون نكاح حلائل الأبناء من الصلب ، وقد جر هذا الحكم الجاهلى مفاسد عظيمة فى حياة الأسرة عند العرب ، فلما جاء الاسلام باصلاح رسوم الجاهلية الفاسدة أبطل بعضها وعدل بعضها ، فلما أراد أن يبطل أحكام الجاهلية فى المتبنى ، مست الحاجة إلى أن يبطل هذا الحكم الفاسد بعمل من أعمال الرسول ، ولا يخفى أن الشرف من أشد ما يحافظ عليه الناس ولا سيما العرب ، فأقدم

الرسول على مادعا إليه من إبطال حكم التبنى ، وتزوج زينب حليلة زيد بعدما طلقها زيد ، وبذلك أمحى هذا الرسم الفاسد ولم يبق له أثر بعد عين .

إن حياة الرسول ملأى بالأمثلة ، وعامرة بالوقائع التى تدل على أنه ﷺ قدم حياته للانسانية لتكون أسوة لأبنائها . وأنا طمعاً منى فى الإيجاز ، ووقوفا بالسامعين عند هذا الحد لكيلا يسأموا ، أمسك عن الاطناب فى هذه المحاضرة لأن الوقت قصير والبحث طويل .

إخوانى . تأملوا حياة الأنبياء من آدم إلى عيسى . وتفكروا فيمن سلف من المصلحين والذين بعثوا بهداية الخلق : من الشام إلى أقصى الهند ، فهل تعرفون واحدا منهم عمرت حياته بمثل هذه الأعمال الجليلة المتنوعة ، وبمثل هذه الأفعال العظيمة الكاملة التى يرى فيها الناس أسوة لهم ومنهاجاً لحياتهم الشخصية والاجتماعية ؟

وإليكم الآن كلمة واحدة . إن أحد الواعظين والخطباء يذكر فى مواعظه وخطبه « الحب الالهى » بكلمات عــذبة وألفاظ فصيحة رائعة . ولكن — كما قيل — إن الشجرة تعرف من ثمرها . فماذا كان أثر الحب الالهى الظاهر فى حياته العملية ؟ ولكن تعالوا ادرسوا سيرة هذا الرسول العربى الذى كان يحب الله ، تجدوه قائما فى ظلمات الليل يصلى والناس نيام . ثم ترونه باسطاً ذراعيه إلى السماء يسأل ربه إقامة الحق وتيسير الخير ، وقلبه خاشع ، وطرفه دامع ، ولسانه رطب بحمد الله وتسبيحه وتمجيده . أليست هذه هى صورة الحب الالهى فى أكمل حالاتها ؟

إن نبى الله عيسى بن مريم لما قبض عليه أعداؤه وأرادوا صلبه ، انطلق لسانه منادياً : « إيلى ، إيلى ، لم سبقتنى ! » ، أى : ربى ، ربى ، لماذا تركتنى وخذلتنى . أما محمد رسول الله فانه لما دنا من الموت ، وأيقن أنه تارك هذه الدنيا ، وكادت روحه الطاهرة تفيض صاعدة إلى ربها ، أخذ يناجى ربه قائلا :

« اللهم إلى الرفيق الأعلى » ، فهو فى حنين شديد إلى لقاء ربه ، وفى شوق عظيم إلى رفيقه الأعلى . فأى الجملتين أدل على الحب الالهى ، وأيهما أصرح فى الحنين إلى لقاء رب العالمين عز جلاله وعظم سلطانه ؟

اللهم صل عليه وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين



المحاضرة السابعة

رسالة رسول الاسلام الى جميع الأنام

سادتي . بينت فيما سبق من المحاضرات الست أن حياة الأنبياء هي التي يجدر أن تتخذ أسوة ، وأن سير الرسل هي التي تستحق أن تكون قدوة لبني آدم أجمعين من بين سائر الطوائف العليا من الناس . وأن السيرة التي تستحق أن تكون أسوة لجميع الناس إلى يوم القيامة من بين سير جميع الأنبياء والمرسلين هي سيرة محمد ﷺ في حياته الشريفة .

ولما تبين أن سيرة الرسول العربي هي السيرة « المثالية » وفيها الأسوة الكاملة للعالم كله ، فان لسائل أن يسأل : ما هي الحياة الكاملة والسيرة الجامعة في هذا الرسول ، وأي شيء في رسالته للناس من رب العالمين ، وماذا بلغ الناس عن ربه ، وما هي الأحكام اللازمة في رسالته التي بعث لأجلها هذا النبي الذي ختم الله به رسالاته واغناهم به عن أي نبي يأتي بعده ، وكيف أصلح خاتم الرسل برسالته الأحكام السالفة من الأنبياء السابقين وأكمل ما كان ناقصا منها بسبب مقتضى البيئة وطبيعة الحال ؟

لاشك أن الله سبحانه قد بعث كثيراً من الأنبياء في مختلف العصور ، وأنزل للبشر أحكاماً على ألسنة رسله . وقد قلنا مراراً ، وأثبتنا بدلائل واضحة أن أولئك الرسل خصت رسالاتهم ببعض الأمم ولبعض الأزمان ، لذلك لم تمس الحاجة إلى حفظها من عوامل التصحيف والتحريف ، ولم تتعلق عناية الله بصيانتها من أيدي البلى وعبث الدهر ، فضاعت أصولها المعاصرة لأصحابها أو قريبة العهد منهم ، ووجدت بعد ضياعها تراجم دخلها كثير من التغيير والتبديل فبعدت التراجم عن أصلها كل البعد واختلفت وألحق بها وزيد فيها

كثير بما لا أصل له فى الصحف المنزلة . وإن ضياع تلك الأصول الأولى دليل واضح على أن تلك الرسالات كانت لزمن محدود قد مضى ولولا ذلك لاقتضت حكمة الله بقاء أصولها .

أما مابعث الله به خاتم رسله محمداً ﷺ فقد تولى حفظه ، وسيبقى محفوظاً من كل تحريف أو تصحيف إلى يوم القيامة ، لأنه آخر رسالات الله، وسيبقى للبشر مابقى فى الدنيا بشر . ولذلك أعلن الله صفة الكمال والتمام لهذه الرسالة ووعد بحفظها ، ولم يعلن مثل ذلك ولم يعد به فى أى كتاب آخر من كتبه وأية رسالة من رسالاته ، بل على العكس من ذلك نجد النص فى سفر التثنية من التوراة (١٨ : ١٥) على أن رسالة موسى مؤقتة وأن الله باعث غيره بغيرها « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك — من إخوتك — مثلى ، له تسمعون » ، وقال (١٨ : ١٨) : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك ، واجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » . و (٣٣ : ١ — ٢) : « هذه هى البركة التى بارك بها عبد الله موسى بنى إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران [١] ، وأتى من ربوات القدس ، بيمينه نار شريعة لهم » . فهذه الآيات من سفر التثنية فى التوراة تدل على أن الله يبعث نبيا مثل موسى فى يمينه نار شريعة ملتهبة ، وأن الله يلقى فى فمه كلاما فيكلم الناس بكل مايوحيه الله إليه . وهذا أوضح دليل على أن شريعة موسى لم تكن آخر الشرائع ولا أدومها إلى يوم القيامة . وهذا النبى أشعيا يبشر ببعثة نبى آخر فى الاصحاح ٤٠ من السفر المنسوب إليه . وفى سفر ملاخى بشارة برسول من رسل الله ، وكذلك سائر أسفار بنى إسرائيل والزبور تدل كلها على أن ماكان عندهم لم يكن آخر رسالات الله، ولا اتصفت شريعتهم بالبقاء والدوام. وادرسوا الأناجيل كذلك

---

(١) برية فاران هى التى سكنتها هاجر وابنها اسماعيل كما فى سفر التكوين ٢١ : ١

فانكم تجدون فى انجيل يوحنا (١٤ : ١٦) : « وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم فارقليطا آخر ليبقى معكم إلى الأبد » . وفيه (١٦ : ١٢ — ١٣) . « إن لى أموراً كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه » . فهذه الآيات من الانجيل دالة دلالة ليس فيها إبهام على أن مافى الانجيل ليس آخر رسالات الله ، ولم تتم به رسالات الله ، بل سيأتى بعده نبى آخر تكمل به رسالة عيسى بن مريم . أما الرسالة المحمدية فلا تنبىء بنبى آخر يأتى بعدها ، ولا بأنها ناقصة ستكمل بشىء يتلوها . إن الرسالة المحمدية تنادى بأنها كاملة وأنها تامة لا نقص فيها ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ (المائدة : ١) . ومحمد ﷺ هو القائل « ختم بى النبيون » ، « ألا لا نبى بعدى » ، وانه آخر لبنة فى بناء النبوة . كل هذا من الدلائل الساطعة على أن رسالة محمد ﷺ هى الرسالة الخالدة من رب العالمين لجميع العالمين إلى يوم الدين . ولذلك تولى الله حفظها وصيانتها وعصمتها فقال عز من قائل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

إخوانى . بقى سؤال آخر لابد من الجواب عليه : هل أتى نبى آخر غير محمد ﷺ برسالة عامة لجميع البشر ، وهل جاءت من الله رسالة غير الاسلام شملت دعوتها الناس جميعا ؟ إن بنى إسرائيل قصروا الدنيا على أنفسهم فجعلوها محدودة بحدود بلادهم ، بل زعموا أن إله العالمين هو إله أمتهم وحدها وخصوه تعالى بأنفسهم من دون الناس . لذلك نرى أنبياء بنى إسرائيل وأسفارهم لم تعمم دعوتها لغيرهم من الأمم ، ولا تزال الشريعة الموسوية والدين اليهودى مقصورين على الإسرائيليين لا يتجاوزانهم إلى غيرهم ، وأسفارهم لا تخاطب غيرهم ولا تدعو لإلههم إلا أسباطهم ، بل إن عيسى المسيح لم يرع إلا غنم بنى إسرائيل الضالة ، ولم يبلغ رسالته إلا فى قراهم وأرضهم والمنسوبين إليهم ؟ ولم يرغب فى إعطاء خبز الأولاد للكلاب .

وكذلك صحائف (ويدا) الهندية وهى الكتب المقدسة التى يدعى الهنادك أنها منزلة على أنبيائهم من السماء ، لا تطرق نبرات تلاوتها آذانا غير آذان الأمة الآرية ، وجميع الناس من غير الآريين أنجاس مناكيد . وآذان الشودر (أى الأنجاس) إذا سمعت آيات (ويدا) فليصب فيها الرصاص المذاب !

أما الرسالة المحمدية فهى الأولى والأخيرة من رسالات الله التى جعلها الله للناس كافة أحمرهم وأصفرهم وأبيضهم وأسودهم عرباً كانوا أو عجما من الصين شرقا إلى أقصى الجزائر البريطانية شمالا يستوى فيهم التتار والافرنج ، ذلك لأن إله رسول الله ﷺ هو إله جميع الأمم وهو رب العالمين ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فهو لأجل ذلك مرسل للإنسانية كلها ﴿ رحمة للعالمين ﴾ ، فرسالة الاسلام رسالة تعم جميع البشر ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ (الانعام ١٠) ، ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السماوات والأرض ﴾ (الفرقان : ١ — ٢) ، فمحمد ﷺ نذير للدنيا كلها ، ورسالته تعم العالم أجمع ، وحيثما ينفذ حكم الله فلتكن شريعة الاسلام قائمة ورسالة محمد نافذة . وقد جاء فى سورة الأعراف ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض ﴾ ، وهذه الآية تعلن عموم الرسالة المحمدية إلى كل من يبلغه نداؤها وتصل إليه دعوتها ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ (الانعام ١٩) . فثبت من هذه النصوص أن الاسلام وحده هو الذى أعلن عموم دعوته للانسانية كلها وأنه هو الدين التام الكامل الجامع للمحاسن ولن يأتى بعده دين غيره . جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال «بعث الأنبياء قبلى إلى أممهم خاصة ، وبعثت إلى الأمم كلها عامة» ، وهذا يؤيد دعواى ، والتاريخ يشهد لها شهادة لا ترد . وكما أن السيرة المحمدية كاملة تامة ، وفيها الأسوة لجميع البشر ، كذلك دين الاسلام الذى جاء به محمد ﷺ كامل دائم وفيه صلاح العالم ورشاده .

ولسائل أن يقول : دلونى على حقيقة الرسالة المحمدية التى أكمل الله بها الأديان ، وتمت بها نعمة الله على العالمين ، وبها بعث الله خاتم أنبيائه بالسيرة الكاملة والأسوة الشاملة لجميع البشر مدى الدهر . والجواب على ذلك أن الدين يشتمل على أمرين : أمر يتعلق بقلب الانسان ويسمى (الايمان) ، وآخر يتعلق بجوارحه وبما يملكه ويدعى (العمل) . والعمل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : أولها يتعلق بالله وهو العبادة ، والثانى يتعلق بما يتعاطاه الناس بعضهم مع بعض وهى المعاملات ومعظمها القوانين والأصول ، والثالث يتعلق بآداب النفس وآداب المجتمع وهى الأخلاق . فالدين إذن عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق . وهذه الأقسام الأربعة اكتملت بالرسالة المحمدية وتعاليم خاتم المرسلين فبلغت الغاية التى ليس وراءها غاية .

والآن تعالوا نستعرض الكتب السماوية لنقارن ما فيها من هذه الأقسام الأربعة : أما التوراة والانجيل فالذى فيهما من العقائد لا يروى الغليل ولا يشفى العليل . نعم ، نجد فيهما ذكراً لوجود الله وتوحيده ، لكننا لا نجد فيهما دليلا يؤيد ذلك ولا برهاناً يحمل النفوس على التصديق به ، كما لا نجد فيهما ذكراً للصفات الالهية التى تزكو بها الروح الانسانية ، وتطهر بها نفوس البشر ، وتنشأ بها محبة الله وعرفانه .

فقبل البعثة المحمدية لم يكن الناس يعرفون هذه الأمور ، ولا كشفت لهم الحجب عن حقيقة النبوة والرسالة والوحى والالهام ، والصلة بين الله ورسله ، ومكانة الأنبياء ومنازلهم ، وكيف يؤمن الناس بالنبوة وما معنى الايمان بالأنبياء وما معنى عصمتهم . هذه المسائل كلها لم ينكشف أمرها ولم يقف الناس على بيانها قبل الرسالة المحمدية ، لأننا لم نر نبيا من الأنبياء تصدى لذلك وأفاض فيه . أما الجزاء على الأعمال ، وأمر الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة والحياة بعد الموت ، فكل ذلك غامض قليل الوضوح فى التوراة ، ولا نقرأ عنه فى الانجيل إلا فقرتين فى جواب يهودى ، والجنة والنار

لا نرى عنهما إلا فقرتين كذلك . بينما الرسالة المحمدية هى التى أفاضت فى هذه الأمور بوضوح عظيم .

وإذا أردت أن تعرف الملائكة من التوراة يلتبس عليك أمرهم ، وقد يشق عليك أن تميز بين حديث التوراة عن الله وحديثها عن الملائكة (انظر سفر التكوين ١٨ : ١ و ١٩ : ١) وذكر فيها الملكان ، والتبست فى الانجيل حقيقة روح القدس التباساً تاما حتى لا يتسنى للقارىء أن يميز بين الله وروح القدس ، بل يصح عنده أنه إله أو ملك . أما الرسالة المحمدية فقد أوضحت أمر الملائكة ، وكشفت عنهم الحجب ، فأصبح مدلول هذا اللفظ بينا واضحا ومكانة الملائكة وأعمالهم معينة معلومة وأسماؤهم مذكورة ، فهم وسائط بين الله ورسله ، وينفذون إرادة الله فى تدبير العالم وتصريف الأمور فى الدنيا . كل ذلك تراه مفصلا فى آى الذكر الحكيم .

هذا فى العقائد مما قد فصلته الرسالة المحمدية وأوضحت أمره . أما فى الأعمال ورأسها عبادة الله ، فان التوراة تتوسع فى ذكر القرابين وآدابها وشرائطها ، وفيها ذكر الصوم والأدعية ، وفيها ذكر بيت إيل أو بيت الله . ومع ذلك فان هذه الأمور غير واضحة ولا تسترعى أنظار الناظرين حتى أن منهم من جنح إلى إنكارها . وفيما عدا ذلك فاننا لا نجد فى التوراة أنواع العبادات وأقسامها ولا طرقها ولا آدابها ولا تعيين أوقاتها ، وليس هنالك عناية تامة بتعليم العبادة للناس ، وقد أهمل جانب عظيم من كيفية ذكر الله ودعائه ، فلا نرى ما يدل على تعليم دعاء خاص لرب العالمين ، وكيف يدعو الناس ربهم ويسألونه حاجاتهم . وترى فى الزبور أدعية كثيرة ومناجاة للرب طويلة ، لكن ليس فيه ذكر لآداب العبادات وشرائطها وأوقاتها ، أما الانجيل فقلما ترى فيه ذكرا للعبادات ، بل ليس فيه ذكر للعبادة البتة . نعم نجد فى فقرة منه (متى ٤ : ٢) ذكراً لتقشف المسيح وصيامه أربعين يوما . وفى الانجيل أيضا اعتراض اليهود على المسيح بأن أصحابه لا يصومون . وفيه ذكر

دعاء دعا به عيسى عليه السلام فى الليلة التى أرادوا صلبه فيها ، وفى ذلك الموضع دعاء آخر له ، لكننا لا نجد ذكراً لعبادات أخرى .

أما الاسلام ففيه الصلاة والصوم والحج ، مفصلة آداب كل منها وشرائطه، وموضحة طرق عبادته وسننها . وهو يرشد الناس إلى كيفية ذكر الله ، وبأى دعاء يدعون ، وبأى كلمات بليغة يسألون رب العالمين . وقد عين لهم مواقيت الصلاة والصوم والحج، وأحكام هذه العبادات وسننها ، وكيف يسألون ربهم فيها ليستنزلوا رحمته ويستغفروا ذنوبهم ، وكيف يتضرعون إليه ويخشعون له ويناجونه فى سرهم ويذكرونه فى علانيتهم، وكيف يتوبون إليه معترفين بزلاتهم، منيبين إليه منها متوخين تزكية نفوسهم ، وتنزيه أرواحهم ، وتطهير قلوبهم ، والتقرب إلى ربهم بكل ما ينالون به مرضاته ، لتكون روح الدين قائمة وحقيقته ملموسة .

والقسم الثانى من الأعمال : المعاملات . وتستطيع أن تسميها قوانين المملكة وأصول المعاشرة ، وهذا الضرب من الأعمال مفصل تفصيلا وافيا فى رسالة موسى عليه السلام ، وأقرت الرسالة المحمدية أكثره لكنها خففت من شدة أحكامه ووسعت ماضاق منها فجعلتها صالحة لتكون قوانين عالمية. وكانت دائرة العمل بها محصورة ببنى إسرائيل فلما أضاف إليها الاسلام مانقص منها أصبحت جديرة بأن يدعى العالم كله لأن يتخذها قوانين إنسانية عالمية . ونحن لا نرى ذكراً لقوانين المملكة فى الزبور ولا فى الأناجيل ، وقد نجد فى الانجيل بعض الأحكام فى الطلاق ، أما الأمور الأخرى فلا أثر لها فيه. مع أن الدين العالمى الأبدى الذى يتكفل بحاجات المجتمع البشرى يتحتم أن يشمل قوانين الدولة وأصول المعاشرة . ولما كان دين عيسى المسيح عليه السلام خاليا من هذه القوانين فقد اضطرت الأمم المسيحية إلى استعارة هذه القوانين من الأمم الوثنية كالاغريق والروم . بينما الرسالة المحمدية اكتملت فيها هذه القوانين ، لأنها نظرت إلى هذا الضرب من حاجات الأمم نظرا ثاقبا حكيما ، فاستوعبته

من جميع نواحيه مستقصية جهاته كلها ، فلم تترك ناحية منه إلا وقد أتمتها ، فسنت قوانين كلية أقامتها على أصول جامعة استنبط منها الأئمة المجتهدون والأصوليون من فقهاء العلماء أحكاماً لحاجات جدت ومقتضيات حدثت ، ولا يزالون يستنبطون منها . واستمر هذا العمل الفقهى فى هذه القوانين ألف سنة من أعمار الدول الإسلامية الراقية ذات المدنيات الزاهرة والحضارات الزاهية، وعمل بذلك المسلمون فى مختلف بقاع الأرض وأقطارها ، ولا يعرف العالم كله إلى الآن قانونا أعدل ولا أرحم بالإنسانية ولا أصلح لها من قوانين الإسلام .

والقسم الثالث من الأعمال « الأخلاق » وإننا نجد فى التوراة أحكاماً عديدة تتعلق بالأخلاق ، منها سبعة تعد أصولا ، وليس فى هذه الأصول السبعة إلا أصل واحد إيجابى وهو الأمر بطاعة الوالدين والبر بهما ، أما الستة الأخرى فكلها سلبية وهى النواهى : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تشهد على جارك شهادة زور ، لا تخادن حليلة جارك ، لا تطمع فى مال جارك . وبعض هذه الأصول داخل فى بعض ، فهى فى الحقيقة أربعة .

والانجيل ردد هذه الأحكام السبعة كما هى فى التوراة وزاد عليها الحث على محبة الغير ، فجاء بزيادة واحدة على ما فى التوراة . أما الاسلام فقد جاء بأحكام كثيرة فى المعاشرة ، وبقوانين مفصلة فى المعاملات ، وأفاض فيما كان نهرا حتى جعل منه بحراً . وفى الليلة التى أسرى فيها بالرسول ﷺ أعطى الله أهل الاسلام اثنى عشر حكما أساسيا منها واحد فى التوحيد ، وكلها مذكورة فى سورة الاسراء (٢٣ — ٣٩) . وفيها خمسة إيجابية ندعوها أوامر ، وخمسة سلبية تسمى النواهى :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، وبالوالدَيْنِ إحساناً : إمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهما وقل لهما قولا

كريما . واخفِض لهما جَناحَ الذُّلِّ منَ الرحمة وقلْ ربِّ ارحمهما كما رَبَّيانى صغيرا . ربُّـكم أعلمُ بما فى نفوسكم : إن تـكونوا صالحينَ فانه كان للأَوَّابينَ غفورا . وآتِ ذا القربىٰ حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تُبَذِّرْ تبذيرا ، إنَّ المبذِّرينَ كانوا إخوانَ الشياطينِ ، وكان الشيطانُ لربه كفورا . وإمّا تُعرِضنَّ عنهمُ ابتغاءَ رحمةٍ من ربكَ ترجوها فقلْ لهم قولا مَيسورا . ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلىٰ عُنقكَ ولا تبسُطْها كلَّ البسطِ فتَقْعُدَ ملوماً محْسورا . إن ربكَ يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِر ، إنه كان بعبادِهِ خبيراً بصيرا . ولا تقتُلوا أولادَكم خشيةَ إمْلاقٍ نحن نرزُقُهم وإيّاكم ، إنَّ قتلَهم كان خِطْئاً كبيرا . ولا تقرَبوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلا . ولا تقتُلوا النفسَ التى حرَّمَ اللهُ إلاّ بالحق ومن قُتلَ مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً فلا يُسرِفْ فى القتلِ إنه كان منصورا . ولا تقرَبوا مالَ اليتيم إلا بالَّتى هى أحسنُ حتى يَبلُغَ أشُدَّه ، وأوفوا بالعهد إنَّ العهدَ كان مسئولا . وأوفوا الكيلَ إذا كِلتمْ وزِنوا بالقِسطاسِ المستقيم ، ذٰلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا . ولا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولـٰئك كان عنه مسئولا . ولا تَمشِ فى الأرض مَرحاً ، إنكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طُولا . كلُّ ذٰلك كان سيئةً عند ربكَ مكروها . ذٰلك مما أوْحىٰ اليكَ ربُّك من الحـكمة ﴾

١ — بر الوالدين وطاعتهما . و ٢ — إيتاء كل ذى حق حقه .
و ٣ — الإحسان إلى اليتامى . و ٤ — الوزن بالقسطاس المستقيم .
و ٥ — إيفاء الكيل . و ٦ — الوفاء بالوعد (هذه أمور خمسة إيجابية)

١ — لا تقتل أولادك . و ٢ — لا تقتل نفساً . و ٣ — لا تقرب الزنا .
و ٤ — لا تقف ما ليس لك به علم . و ٥ — لا تبذر فى النفقة واقتصد فيها .
(وهذه أمور خمسة سلبية)

فإذا قارنتم بين ماجاء به القرآن من الأحكام الأساسية وما جاء به الإنجيل والتوراة تتبين لكم حقيقة الرسالة المحمدية ، ويتضح لكم أنها أكملت ما كان ناقصاً فى الرسالات السابقة التى لم تهتم بذكر الأحكام الأساسية . ولم تقتصر رسالة الإسلام على تكميل هذا النقص ، بل عنيت بحل معضلات المجتمع البشرى فى الأخلاق ، ووجهت الإنسانية إلى الطريق المثلى فى قواها ، ونبهت الإنسان إلى نقائصه وعيوبه وأمراضه النفسية ، ووصفت له دواء كل داء من أدواء النفوس ، وأخذت بيده إلى الجادة الوسطى فى الأعمال والأخلاق والمعاملات هذا ما أكملته الرسالة المحمدية من الناحية العملية .

ولو شئنا أن نعبر عن جميع تعاليم الإسلام بأسلوب موجز ، جاز لنا أن نعبر عنها بهاتين الكلمتين الوجيزتين : الإيمان ، والعمل الصالح [1] . فهاتان الكلمتان تشملان جميع ما جاءت به رسالة محمد ﷺ وتحيطان بكل ما أكملته من عقيدة ، وعمل ، وخلق ، وحسن معاملة . فهما قوام الإسلام وزبدة ماجاء به محمد رسول الله ، وهما فى الواقع قوام الفلاح والنجاة وملاك السعادة . فمن

(١) والايمان الاسلامى بضع وسبعون شعبة ، وقد استقصاها أعلام الاسلام فرأوها تدور حول شيئين لا ثالث لهما : الحق ، والخير . وكل شعبة من شعب الايمان الاسلامى لا ريب أنها تدخل إما فى باب الحق ، أو فى باب الخير . والعمل الصالح هو عمل المؤمن بما هو مؤمن به ، فلا يكون العمل صالحا إلا إذا كان من عمل الحق أو من عمل الخير . وهذا هو الاسلام .
محب الدين

آمن بالله إيماناً لايزعزعه شىء ، وأطاع الله فيما أمر به من حق وخير ، وعمل بذلك عملا صالحا لا يشوبه سوء ، أفلح ونجا . وقد وصف الله فى كثير من الآيات شأن المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويعملون عملا صالحا وبشرهم تارة بقوله « أولئك هم المفلحون » وتارة بأنهم « أولئك هم الفائزون » . فالفلاح البشرى والفوز الإنسانى يرجع إلى الإيمان بالله والعمل الصالح بما أمر .

وقد كان بودنا أن نبسط القول فى الإيمان والعمل الصالح ونوفيهما حقهما من البيان والشرح ، لولا أن هذا الموقف لا يساعد على ذلك . والذى يعنينا الآن من الكلام على الرسالة المحمدية ناحية الكمال فيها وإتمامها ماكان ناقصاً فى الديانات السابقة مما يرجع إلى العقائد والأعمال ، فأصلحت ماكان من قبل فاسداً ، وردت البدع الطارئة ، وقمعت المفاسد العظيمة الفاشية التى شوهت وجه الإنسانية ، وكانت باباً لكل شر وأصلا لكل فساد ، وبذلك سدت فى أصول الدين جميع الثلمات التى تسربت منها المفاسد فكانت سبباً فى انحطاط الإنسانية عن مستواها الكريم .

وأول مسألة عنى بها الشرع المحمدى كرامة الجنس البشرى ومكانته من سائر المخلوقات . وهى مسألة ترجع إلى أمر التوحيد ، فالإنسان قبل الإسلام كان يرى نفسه أحط منزلة من معظم المخلوقات والموجودات . كان يهاب كل ما عظمت جثته ، ويطأطىء رأسه لكل ما يبدو له أسود حالكا أو أبيض لامعاً ، ولكل ذى لبن سائغ أو لعاب قاتل . وبلغ خوفه من مظاهر الطبيعة ومن المخلوقات الضارة، ورجاؤه من الأشياء التى يرتقب نفعها ، أن صار يعبد الحجارة الصم والجبال الشم والبحار الزاخرة والأنهار الجارية والأشجار الخضراء والأمطار الهاطلة والنيران الملتهبة والصحارى المخيفة والأفاعى السامة والأسود الزائرة والبقر الحلوب والشمس البازغة والنجوم الزاهرة والليالى المظلمة والأشباح المهيبة ، وفى الجملة كان يعبد من المخلوقات كل ما يخشى شره أو يرجو خيره ، اتقاء لضرره أو طمعاً فى خيراته . فلما بعث محمد برسالة الله

أعلن جميع البشر بأن هـذه المخلوقات كلها إنما خلقت لهم ولم يخلقوا لها ، وأنها مسخرة لهم فلا يليق بهم أن يسجدوا لشيء منها . وقال لهم : أيها الناس ، أنتم خلفاء الله فى هذا العالم ، وقد سخر لكم كل ما فيه جميعا . إن الدنيا لكم ولستم لها ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ البقرة ٣٠ . ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ — (الأنعام ١٦٥)

ولأجل استخلاف بنى آدم فى الأرض سمت منزلتهم بين جميع المخلوقات وشرّفهم الله وكرّمهم ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ (الاسراء ٧٠) فهل يجوز لخليفة الله فى الأرض وقد كرمه الله أن يسجد لمن هو دونه ، ويعبد ما هو أصغر منه شأناً ؟ وكيف يسجد بنو آدم لشيء غير الله والعالم مسخر من الله لهم ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ﴾ (الحج ٦٥) . ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ (البقرة ٢٩) . ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ﴾ (النحل ٥) . ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ﴾ (النحل ١٠ — ١١) . فلبنى آدم الأرض وما فيها من الشجر والخضر ومن الثمر والزهر وغيرها من المنافع والمرافق مما لا يعد كثرة ولا يحصى وفرة ، ولهم السماء وما فيها من الشمس والقمر والنجوم . ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ . (النحل ١٢) . ولهم البحر وفيضانه ، والنهر وجريانه ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منـــه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . (النحـــل ١٤) . والقرآن الحكيم حافل بكثير من هذه الآيات .

فدلت الرسالة المحمدية بذلك على أن موقف الانسان من هذا العالم موقف السيد الكريم مما سخر له ، وموقف المتوج بتاج الخلافة الإلهية من كل ما هو مستخلف فيه . فالإنسان مكلل بأكليل الجلال والعظمة ، لا يفوقه شيء من

موجودات الكون ، والكون كله دون الإنسان ، وهو نقطة دائرة العالم والإنسان عينه والغاية من خلق العالم ولأجله جعلت الدنيا . ومما يثير العجب أن يركع الإنسان لمخلوق أو يسجد لما هو دونه أو يعبد شيئا خلقه الله له ، وكيف يفعل الانسان ذلك وقد كرمه ربه وشرفه وفضله على جميع ما فى العالم تفضيلا .

ولما جهل الانسان قدر نفسه جعل يرفع رجالا من أمثاله فوق درجاتهم ، ويحل أناساً فى مكانة رفيعة لا يستحقونها ، وقد كان يبلغ الأمر بالإنسان إلى أن يعبد الانسان . أما رسالة محمد ﷺ فقد عرّفت الناس بأقدارهم وأنزلتهم منازلهم وأعطت كل ذى حق حقه فلم تنقص من حقه شيئا ولم ترفع أحداً من الناس فوق مكانته التى يستحقها ، فكما لم تحطّ عزيزاً عن عزته الجدير بها لم ترفع أحداً فوق المقام اللائق به ، وبذلك دلت الإنسان على شرفه وعلائه ، وعلمته أنه مهما كان رفيعاً وذا سلطة وبأس فانه لن تبلغ به رفعته أن يعبد كما كان يريد الفراعنة أن يعبدوا ، ومهما كان طاهراً عابداً متبتلا فلا ينبغى لإنسان أن يركع له أو يرجو منه مالا يرجى إلا من الله او يخشاه كخشية الله ، ومهما حاز من المال الكثير والثراء العظيم فليس له أن يستعلى بذلك على إخوانه من خلق الله . إن رسالة محمد ﷺ قد قطعت الفساد واجتثت الشر من أصولها وأعلنت فى الناس بوضوح وجلاء هـذه الحقيقة : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ (آل عمران ٦٤) وأذاعت فى العالم عن الأنبياء أنفسهم وهم اسمى مراتب البشر أنهم لا ينبغى لأحد منهم أن يقول للناس ﴿ كونوا عباداً لى من دون الله ﴾ (آل عمران ٧٩)

ليس فى عالم الشهادة أرفع قدراً من الأنبياء ، ولا فى عالم الغيب أعلى درجة من الملائكة ، ومع ذلك لا يجوز أن يتخذ الناس أحداً من الأنبياء أو الملائكة معبودين لهم ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ﴾ (آل عمران ٨٠) فالرسالة المحمدية رفعت مكانة الانسان وقد كانت منحطة من قبل فصار لا يخضع

ولا يحنى رأسه لغير الله ولا يسجد إلا له ولا يمد يده سائلا غيره ، إذلا معطى لمن منعه الله ، ولا مانع لمن أعطاه الله ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله﴾ (الزخرف ٨٤) . ﴿ألا له الخلق والأمر﴾. (الأعراف ٥٤) . ﴿إن الحكم إلا لله﴾ — (الأنعام ٥٧) — ﴿ولم يكن له شريك فى الملك﴾ (الفرقان ٢) .

ثم تأملوا أمر التوحيد بعد علمكم بأن الرسالة المحمدية رفعت درجة الانسان وعرفته بقدر نفسه ، إن هذه الرسالة أوضحت حقيقة التوحيد ورفعت عن وجهه الحجب الكثيفة وأزاحت عنه ظلمات الشرك ، فتجرد من كل ما نسجته حوله أيدى الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة ، فليس فى تعاليم الاسلام ما يدل على أن الله أشرك قيصر معه فى الحكم وأن قيصر حاكم مثله فالاسلام محض الحكم كله لله ، ليس لأحد فيه من نصيب ، فله الحكم فى السماوات والأرض وله الأمر فيهما .

سادتى . إن الانسان وقد اعتز بالخلافة الالهية على الأرض وارتشف كأس المحبة لله وحده ، هل يعقل أن يسجد بعد ذلك لغير الله ، وهل يخامر قلب المؤمن بالله أى خوف من الظلمة أو النور ، ومن المياه والرياح . وهل يخشى ملكا عظيما ، أو يوجس فى نفسه خيفة من صحارى واسعة أو جبال شامخة أو أرض رحبة أو بحار زاخرة حتى يسجد لها أو يدعوها خوفاً أو طمعاً إن المؤمن لا يخشى إلا الله ، ولا يبالى بغير الله ، ولا يطمع فى ثراء ثرى ، ولا يرجو غنى إلا من الله الغنى عن كل شىء . انظروا إلى تعاليم الاسلام كيف بلغت بالانسان ذروة الشرف وسنام المجد . وتأملوا كيف رفعت الرسالة المحمدية المستوى البشرى ووجهت المجتمع الانسانى نحو الحق والخير

وأمر آخر وهو أن الرسالة المحمدية أذنت فى البشر أن الانسان نزاع إلى الخير ، وأن فطرته بريئة فى الأصل ، ثم تطرأ عليها أعماله فتجعله آثما مذنبا أو تقياً صالحا . فسيئاته التى يقترفها هى التى تؤثر فيه فتجعله شيطانا مريداً ، كما أن

حسناته التى تصدر عنه هى التى تجلو نفسه وتهذبها فيكون بها ملاكا طاهراً .
إن هذه لبشرى عظيمة هتف بها محمد رسول الاسلام فى بنى آدم ، بعد أن كانت الأديان المنتشرة فى الهند والصين من سالف الأيام تنشر الايمان بالتناسخ وبعث الأرواح — بعد موت أصحابها — فى أجساد أخرى أرفع منزلة مما قبلها إذا عملوا أعمالا صالحة ، أو فى أجساد أذل وأحقر مما كانت فيه من قبل إذا اجترحوا السيئات . وقد ذهب إلى هذا التناسخ بعض النسوكى ممن ينتمون إلى حكماء الأغريق ، وجرّ هذا الاعتقاد الفاسد وبالا عظيما على معتقديه ، فأصبحت حياته حياة إكراه وإجبار ولا اختيار له فيما يعمل ، فكأنه آلة صغيرة تحركها آلة كبيرة ، وأنه ولد مذنبا ، بل ولادته فى الدنيا نذير له بأنه مجرم آثم .

وجاءت المسيحية فثبتت فى الناس عقيدة أن كل مولود يحمل من ساعة ولادته خطيئة أبيـــه الأول آدم ، فالمولود يولد آثماً مخطئاً وإن لم يخطىء فى الواقع ، والمخطىء الآثم بجبلته يحتاج إلى المغفرة من شخص آخر لم يولد آثماً ولم يخطىء بجبلته . فيفدى هذا الشخص الاخير بنفسه خطيئة بنى آدم ليذهب بسيئاتهم . وهـذا ما نشرته المسيحية المعروفة عنـد الناس داعية بنى آدم إلى الايمان بالفادى .

أما محمد رسول الله فقد بشر الانسان بأنه يولد غير آثم ولا مجبول على الخطيئة ، ولا مسئول عن خطيئة أبيه الاول آدم ، وانه يعيش عيشة لا إكراه فيهـا ولا اجبار ، وهو مخير فى حياته بين أن يعمل صالحا ان شاء فيجنى ثمرة صلاحه ونزاهته ، وبين أن يعمل عملا سيئا فيـكون بعمله مذنباً آثما ﴿ والتين والزيتون وطورسينين وهذا البلد الامين ، لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (سورة التين)
فالاسلام بشر بنى آدم بأن قوامهم أحسن ، وفطرتهم أفضل ، وجبلتهم أعدل ، وأنهم بعد هذا الاعداد الالهى انما يفسدون أو يصلحون بأعمالهم وبما يختارونه

لانفسهم ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (سورة الشمس)

وهل من دليل أوضح على حسن جبلة الانسان ونزاهة فطرته وطهارة أصله من قول الله فيه ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ — (سورة الدهر) ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ (سورة الانفطار)

وإن رسول الله الذى يتحرك لسانه بالوحى ، ويصدر منطقه عن إلهام ، قد جعل الدين والفطرة بمعنى واحد، أى انهما كلمتان لمعنى واحد . فأصل الفطرة هى الدين الذى دعى الانسان إليه ، والاثم عارض يعرض للإنسان ولاحق يطرأ عليه. ويقول الله عز وجل ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ (سورة الروم) . وقد فسر الرسول هذه الآيات فيما رواه البخارى فى تفسير سورة الروم من صحيحه فقال ﷺ « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج كل بهيمة صحيحة سليمة هل ترون فيها سكاء »

إن البشرى التى بشر بها الرسول ﷺ بنى آدم هى أن كل انسان مختار فيما يفعله غير مكره عليه ولامجبر ، وليست حياته الحاضرة نتيجة لحياته الماضية فمن آمن بالرسول فقد تغيرت وجهة نظره الى أعماله ، فلا هو كئيب واجم ظناً منه بأنه مكره على عمل هو استمرار لحياة سالفة . فكل من آمن بالرسالة المحمدية أصبح بفضلها حراً طليقاً من الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة التى قيدت حياة البشر وغلت أيديهم .

ان الدنيا قبل بعثة رسول الاسلام ﷺ توزعتها عقائد باطلة وأوهام سخيفة ، فكان أهل كل دين فى مملكة من الممالك يحسبون أن مملكتهم هى الدنيا

كلها ، فكان براهمة الهند ومتصوفوها يرون أن بلادهم هى أرض الله الممتازة ، وما خرج عنها لا نصيب له من رحمة الله ، لأن الله لا يريد الخير الا لقطان بلادهم . وأمر الرسالة الالهية والهداية الربانية قد اختص به بعض البيوتات من سدنة المعابد لا يعدوهم أبداً . وكذلك كان زردشت يحسب أن الاله انما يعنى بأمر بلاده المقدسة وحدها وبأهل وطنه الأخيار ، ولا تعنيه بلاد أخرى ولا أمة أخرى. وبنو اسرائيل يظنون أن رسالات الله خاصة ببعض أسباطهم وأنها حقهم الموروث .

أما الاسلام فقد وسع على الانسانية ما ضيقه الآخرون ، وأعلن أن الناس كلهم سواسية ، وأن دعوة الله غير مخصوصة ببلاد دون أخرى . فمشرق الدنيا ومغربها وشمالها وجنوبها وفلسطين وفارس والهند ، كل قد خلا فيها رسول أو نبي ، وأن الله تعالى تستوى عنده الأمم واللغات فى بعثة الأنبياء ، فشمس النبوة أشرقت على البشر جميعاً وتلألأت فيهم أنوار الرسالة ﴿ وان من أمة الا خلا فيها نذير ﴾ (سورة فاطر) — ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ (الرعد) ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم ﴾ — (سورة الروم) . فاليهود لا يؤمنون بنبي ليس منهم ، والنصارى لا يوجبون على أنفسهم الايمان بنبي من بنى اسرائيل أو غيرهم ، ولا يرون اذا لم يؤمنوا ببعض الأنبياء أن ذلك يخل بشيء من دينهم . وكذلك الهنادك لا يعتقدون بأن الالهام الالهى والوحى الربانى نزل على بلاد غير بلادهم . وهكذا شأن المجوس أتباع زردشت فإنهم يذهبون الى أن الدنيا كلها مظلمة سوداء فلا نور الا ببلادهم بلاد النار .

أما الرسالة المحمدية فقد أعلنت أن الدنيا كلها لله وحده ، وأن سكانها أجمعين من خلق الله ، وأن الأقوام على اختلافها سواسية فى نعمه وآلائه ، وكلهم نالوا نصيبا من دعوته وحظا من رحمته ، وما من بلاد عمرتها أمة الا وقد أضاء فيها نور من هداية الله ، وبعث فيها نبى دعاها الى الحق وبلغها أوامر الله ونواهيه .

وقد علمت مما سلف أن الاسلام فرض على كل من دخل فيه أن يؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وبالكتب السماوية التى أوحى الله بها من قديم الزمان ، وليس بمسلم من لم يؤمن بالأنبياء كلهم وبالكتب المنزلة على الرسل المبعوثين من قبل ، فالرسل الذين سماهم الله فى القرآن يجب على المسلم أن يؤمن بهم إيمان تفصيل ، والذين لم تذكر أسماؤهم يؤمن المسلم بهم إيمان إجمال بأنهم كانوا صادقين هداة للبشر ، وكانوا ينابيع الخير والحكمة ، وقد وصف الله المسلمين بأنهم ﴿ الذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ﴾ (البقرة) . وفى موضع آخر من البقرة ﴿ لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين ﴾ وفى سورة البقرة أيضا : ﴿ كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ . فليس للمسلم أن يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض . وقد خاطب الله المسلمين جميعا بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ (النساء ١٣٦) .

سادتى . هل تعلمون أحداً علم مثل هذا التعليم فسوّى بين الهداة من جميع الملل والنحل فى إعظامهم وإكرامهم والأدب معهم والاعتراف بجميلهم وتصديقهم فيما دعوا إليه من حق ؟ وأين ترون مثل هذه الروحانية العامة والإخاء الشامل ؟ أجيبونى بصدق : أليس رسول الاسلام رحمة للعالمين حيث علم الناس كيف يرعون شرف الهداة وعظمة حملة الرسالات الإلهية ، فعمت دعوته واتسعت رحمته حتى نال كل شعب من شعوب البشر وكل أسرة من أسرهم نصيبا من ذلك . ولقد اتخذ المتدينون بجميع الديانات وسائط ووسائل بينهم وبين الله ، معتقدين أنهم لا يصلون إلى الله المعبود إلا أن يتوسط بينهم وبينه من زعموه أهلا لذلك ، فكانت السدنة وخدمة المعابد وسائط الناس الى الله فى قديم الزمان ، وحتى اليهود اتخذوا من سبط لاوى ومن تناسل منه شفعاء بينهم وبين ربهم ، والنصارى جعلوا بعض الحواريين وخلفائهم من

الرهبان والقسيسين وسائل يتوسلون بهم إلى الله ، وقد غلوا فى رفع مراتبهم حتى بلغوا بهم مبلغا لم يبلغه مقـرَّب عند الله فزعموا أن مايربطه هؤلاء الشفعاء فى الأرض فهو مربوط فى السماء وما حلوه فى الأرض فهو محلول فى السماء ، وأن لهم أن يغفروا للناس خطاياهم ويسقطوا عنهم آثامهم، وأن العبادة لاتقبل عند الله إلا بوساطتهم . وكذلك براهمة الهند زعموا أنهم مخلوقون من يمين الله وأنهم الوسائط بين الخلق والخالق، وأن العبادة الهندوكية لاتقبل إلا بهم وعلى أيديهم . أما الإسلام فلا يعترف بطائفة خاصة من سدنة المعابد وخدام المساجد وأحبار الدين ، وليس فى الاسلام رهبانية ، ولا يرضى أن تكون فيه فئة تتخذ الدين مهنة ومصدر رزق ، وليس لأحد أن يعطى أو يمنع ، وما بيد أحد شىء من أمر الحل والعقد بل كل ذلك بيدالله فهوالذى يغفر الذنوب وحده ، وليس بين العبد ومعبوده والمخلوق وخالقه أى تدخل لأحد فى عبادة الله ومناجاته ، ولكل مسلم أن يصلى بالناس وأن يؤمهم وأن يذبح أضحيته بيده ، وأن يعقد النكاح ويقوم بجميع أمور الإسلام وأوامره . والإسلام يعلم أتباعه قول الله عز وجل ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ وأنه يجيب دعوة الداعين مباشرة وبلا واسطة ، فكل مسلم يدعو ربه متى شاء ويناجيه ويبثه حزنه ويشكو إليه ضره بلا أى واسطة . فالمسلم هو قسيس نفسه وهو برهميها حين يعبد ربه متحرراً من قيود البراهمة والقسيسين .

لقد بعث الله رسله وأنبياءه إلى البشر بالهداية وإصلاح المجتمع الانسانى، ولكن الناس أفرطوا فيهم أو فرَّطوا . فمنهم من غلا فى تعظيمهم فرفعهم من منزلة الرسل والأنبيـــاء والهداية إلى منزلة الاله المعبود أو إلى منزلة شبيهة بذلك ، وإنك لترى فى هياكل الشام وبابل ومصر تماثيل الكهنة والأحبار تمثل الله عز وجل وتنتحل بعض صفاته ، وكذلك الهنادك جعلوا الأنبياء المبعوثين فيهم بالهداية والحكمة آلهة متجسدة ، وكذلك فعل أتباع بوذا والجيفيون بصلحاء ملتهم وهداة نحلتهم فاتخذوهم أربابا، وهذا ما فعله النصارى

بنبيهم عيسى بن مريم سلام الله عليه فاتخذوه ربا ودعوه ابن الله سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . ذلك ما أفرط به الناس فى حق الأنبياء . وآخرون قصروا فى حقهم وفرّطوا ، كما فعل بنو إسرائيل فى كل من تكهن أو تحدث عن أمر المستقبل فجعلوه نبيا . ولا يتوقف مقام النبوة عندهم إلا على أن يتحدث أحد كهانهم فى أمر المستقبل ، أو أن يتوسم أمراً فيقع ، ولا يلزمه أن يكون ممن يتقى المآثم فضلا عن أن يكون عند الله معصوما صالحا ، لأجل ذلك ترى فى صحف بنى إسرائيل أموراً منسوبة إلى الأنبياء تنافى النبوة وهى بين أن تكون غير صحيحة أو يكون من وقعت منهم غير أنبياء .

فلما ظهر الاسلام وصف مكانة الأنبياء اللائقة بهم ، وعين منزلتهم عند الله ، وأعلن أنهم عبيد الله وليسوا أشباهه ولا أنداداً له ، وأن الله لا يتجسم فى صورهم ، وأنهم ليسوا أبناء الله ولا أقرباءه ، إن هم إلا بشر بعثوا إلى بشر . وأن جميع أنبياء الله كانوا من قديم الزمان بشرا لا غير . وكذلك قال محمد خاتم النبيين ﷺ « إنما أنا بشر مثلكم » فاستغرب الكفار ذلك وقالوا « أبعث الله بشرا رسولا » فقال الاسلام « قل إنما أنا بشر مثلكم » ، « هل كنت إلا بشرا رسولا » . وكل هذه آيات من كتاب الله الحكيم .

إن الأنبياء مع قرب منزلتهم من الله وشرفهم وعلو مكانهم عنده ، لا يملكون من تدبير العالم شيئا ، ولا يقدرون على مالا يقدر عليه إنسان مثلهم ، وكل ما صدر عنهم مما عجز عنه الآخرون فبإذن الله وأمره . وقد وصفهم الاسلام بأنهم وإن كانوا بشراً كغيرهم من البشر إلا أنهم أعلى منزلة وأسمى مكانا من سائر الناس ، فهم يكلمون الله ويوحى إليهم وقد عصمهم الله من الذنوب وطهرهم من رجس الآثام ، فكانوا أعفة كرام الأخلاق لتكون على أيديهم هداية المجرمين والآثمين من الناس ، وقد يجرى الله آياته وبيناته على أيديهم ، ليقوموا بتعليم الناس الصلاح والرشاد وليزكوهم ويطهروهم ، فيجب

لهم على الناس أن يكرموهم ويعظموهم ويعملوا بهدايتهم ، لأن الله أرسلهم هداة مصلحين وشرفهم برسالته ووحيه وكلامه .

هذا ما علمه الاسلام للناس من الاقتصاد والاعتدال فى أمر الأنبياء وفاء بحقهم بلا غلوّ ولا تقصير ، وهذا ما كان جديراً بالاسلام لأنه جاء مكملا لتوحيد رب العالمين .

إخوانى : لقد طال بنا الحديث ، ومضى هزيع من الليل ، وبقى شىء كثير مما أريد أن أقصه عليكم . فلنختم هذا الحفل بالصلاة والسلام على رسول الله الأمين الذى ختم به تعليمه الأخير للناس إلى يوم القيامة .

المحاضرة الثامنة

السيرة المحمدية من الناحية العملية

إخواني : اليوم آخر اجتماعي بكم ، بعد أن استمر شهرا . ومحاضرة اليوم آخر المحاضرات الثمان . وقد حاولت في المحاضرتين الماضيتين أن ألمّ بكل ما يتعلق بأصول الاسلام ، وما يرجع إلى مبادئه وقواعده وسننه . ولكن أنّى لي أن أوفى ذلك ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجمع ضوء الشمس بيده ، أو يحصى نجوم السماء ؟

إن الأديان السالفة قبل الاسلام ، التي كانت دعوتها إلى توحيد الله ، قد تطرق إليها الفساد في أمر التوحيد لوجوه ثلاثة : الأول التشبيه والتمثيل ، أي أنهم قد شبهوا الله بغيره من خلقه . والثاني أنهم جعلوا صفات منفصلة عنه ومستقلة . والثالث أنهم اغتروا بكثرة المظاهر في العالم ، وخدعوا بضروب من مصنوعات الله وآثار مقدوراته ، فلما من الله على الإنسانية بالاسلام أزال به الأوهام وكشف خفايا الشبهات فانجلت عن البصائر غياهب التمثيل والتشبيه .

وإليكم أولا أمر التمثيل : فان أهل الملل والنحل من غير الاسلام اختاروا طرقاً واتخذوا وسائل لمعرفة ما لله عز وجل من الصفات الجليلة ، والصلة التي بينه وبين خلقه ، فشبهوه جل جلاله بأجسام مختلفة ، ومثلوا صفاته في ضروب من الصور والأشكال ، فلما طال عليهم الأمد بقيت هذه الصور الممثل بها وزال عن قلوب النـــاس اسم الله الذي لم يزل ولا يزال ، فصارت المشبه بها أوثانا وأصناما وتماثيل ، وطفق الناس يعبدونها ويسجدون لها ظنا منهم بأنها مظاهر صفات الله ومشاهد قدرته ، وتفننوا في تصور صفات الله بهذه التماثيل

المنحوتة والأوثان المصنوعة . ومن ذا الذى يشك فى أن الله يحب عبـاده ويرأف بهم ويحن عليهم ؟ لكن الجاهلين جعلوا لحب الله عبادة ، ولرأفته بهم تمثالا من حجر أو غيره . والأمم الآرية اتخذت تمثال المرأة رمزاً للحب الإلهى فانها عندهم مظهر الحنان والأمومة وإلهة الحب والغرام، فعبروا عن حب الله بنوع من العبادة ، وعن حنانه عليهم بحنان الأم على ولدها ، فانقلب الإله عندهم أما حنونا، ونحتوا له صورة أم حنون، وأخذوا يعبدونها ويسجدون لها.

والطوائف الأخرى من الهنادك قد أظهروا هذا الحب الإلهى لعباده وحنانه عليهم بما بين الحليلة وزوجها من المودة والمحبة ، فاختار لفيف من الرجال زى النساء وهيئتهن وتأنثوا وتخنثوا شكلا وأخلاقا ، على زعم أن الله يحبهم كما يحب الزوج حليلته .

وكذلك ظهر الإله عند الروم والإغريق فى صورة امرأة .

أما الأمم السامية فقد تمثل الإله عندها رجلا وأبا ، إذ كان ذكر المرأة عندها على ملأ من الناس مخالفا للآداب الساميـة . وكان الأب هو رأس الأسرة وأصلها . ويدل عليه ما استخرج من بطون الأرض فى بابل وأثور وديار الشام من تماثيل تصور الإله بصور الرجال. وكذلك بنو إسرائيل يظهر أنهم فى بدء أمرهم كانوا يتصورون الله بصورة الأب ويحسبونه والدا ، ويحسبون الملائكة وسائر الناس أولادا له ، ثم ضاق نطاق تفكيرهم ، فلم يبق للإله أولاد عندهم سوى بنى إسرائيل . ويوجد فى بعض صحف بنى إسرائيل ما يدل على أن الرابطة كانت بين الإله وبنى إسرائيل كالرابطة التى تكون بين الزوج وحليلته ، وأن بنى إسرائيل وأورشلم حلائل والإله زوجهن (تعالى الله عما يقولون ويتصورون) .

وقد أخطأ المنتسبون إلى المسيح عليه السلام فجعلوا ما كان بادىء بدء استعارة كأنه حقيقة ثابتة ، وانقلب تشبيه الإله بالأب لحنانه على نبيه عيسى

عليه السلام ورأفته به فاعتبروه حقيقة، والإله الذى لم يلد ولم يولد اعتبروه والداً وعيسى ولده .

وشبيه بذلك ما نجده عند قدماء العرب من ظنهم بالله أنه أب والملائكة بنات له ، فلما بزغت شمس الاسلام انكشفت ظلمات التشبيه والتمثيل كلها ، وانجلى قتام الشرك ، وأهمل استعمال جميع الكلمات التى تفضى إلى الاشراك بالله ، منذ نادى رسول الاسلام ﷺ بهذه الحقيقة ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، ثم نزلت سورة من قصار سور القرآن محت الأوهام الباطلة كلها والعقائد الفاسدة التى نسجها الناس حول وجود الله، وهى قول الله عزوجل ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ فكان الاسلام بذلك طاهرا من دنس الشرك نقيا من كل شوائبه .

إخوانى وخلانى . إياكم أن تظنوا أن الرسالة المحمدية نفت شيئا مما لله عز وجل من عظيم الرأفة وواسع الرحمة بعباده ، أو أبطلت ما لله فى عباده من حنان . إنها لم تفعل ذلك ؛ بل وثقت حبل الله الذى يسره لعباده وزادته قوة . وإنما أبطلت مازاد على ذلك من أوهام تفضى إلى تجسيم الله أو تمثيله بشىء من خلقه ، ومحت وسائل كاذبة تجر إلى الاشراك بالله مما اتخذته الأمم السالفة فضلت به ، وأضلت . وفيما عدا ذلك فان الإسلام أشاد بما بين الله وعباده من رابطة هى أشد وأقوى من كل ما يمتّ به المخلوقون بعضهم إلى بعض من نسب ورحم وآصرة ودم، فالانسان الذى يعيش فى طاعة الله أقرب إلى الله من قرابة الولد لوالده وقرابة الزوجة من زوجها .

انظروا كيف أراد الله أن يعلم الصالحين من عباده بأنه يحبهم كما يحب الأب أولاده فأمرهم أن يذكروه كما يذكرون آباءهم أو أشد ذكرا . فهو عز وجل لم يشبه نفسه بالأب ، لكنه شبه حبه بحب الأب ، واجتنب ما يدل على القرابة الواشجة والرحم الماسة ، فأبقى من هذه العلاقة ما يدل على الحب ثم زاد الحث على أن يذكروه أشد وأكثر مما يذكرون آباءهم بقوله ﴿ أو أشد

ذكراً ﴾ لأن الصلة بين العبد وخالقه أشد وأسمى من جميع ما يمت به المرء إلى أحد من ذوى قرابته ، فقال تعـالى ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ . والاسلام لايسمى الله أبا للناس ، بل يدعوه « رب العالمين » لأن الرب أعلى مكانا من الأب ، وإن الصلة بين الأبن وأبيه عارض يفنى ، والصـلة بين المربوب وربه أثبت وأبقى لأنها مستمرة من أول نشأة المخلوق إلى أن تنتهى حياته بلا انقطاع ، فالله ودود رءوف حنّان بأكثر مما فى الرجال من الود لأودائهم ، ومافى الأب من الشفقة والرأفة نحو بنيه ، ومافى الأم من الحنان على أولادها ، ومع ذلك فانه سبحانه ليس بأب ولا أم ، وهو منزه ومقدس عن كل شائبة من شوائب البشرية .

والأمر الثانى الذى أفضى بالأديان القـديمة إلى فساد العقائد فى معنى التوحيد : مسألة الصفات الإلهية . ومنشأ ذلك أن أتباع الأديان الأخرى قد فصلوا صفات الله عن ذاته ، وجعلوها مستقلة عنه . وبذلك تعددت الآلهة وكثرت فى جميع الفرق الهندوكية من الدين البرهمى ، لأنهم اتخذوا من كل صفة إلهية إلها ، وجسموا تلك الصفـة فى صورة أو صاغوها فى قالب ثم وسعوا نطاق الشرك وطبقوه على جميع ما شبهت به صفات الإله من مختلف التشابيه ومتنوع التماثيل، وصاغوا هذه الصفات وماشبهت به فى صور وتماثيل وأوثان ، وبعد أن كان الله إلها واحدا لا إله غيره صار لهم ثلاثون وثلاثمائة مليون من الآلهة. وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن يعبروا عن قوة الله وقدرته. وظاهر أن اليد من مظاهر القوة والبطش ، فنحتوا لله تعالى يدين قويتين من الحجر ، بل سولت لهم أنفسهم أن ينحتوا له كثيرا من الأيدى . وحاولوا أن يعبروا عن حكمته البالغة فجعلوا له رأسين ، واتخذوا له وثنا ذا رأسين . وإذا تأملنا نحل الهنادك الكثيرة العدد بدا لنا أنها لم تكثر هذه الكثرة الهائلة ولم تفترق إلى فرق كثيرة ، إلا لأجل تجسيمهم صفات الإله . فان لله عندهم ثلاث صفات عظيمات : الخلق ، والقيام على المخلوق،والأماتة . وإن شئت فلك

أن تعبر عن هـــذه الصفات بالخالقية ، والقيومية ، والإماتية . وقد جعلت الفرق من الهنادك هذه الصفات الثلاث أشخاصا مستبدين أطلقوا عليهم أسماء : برهما ، ووشنو ، وشيو . فبرهما رمز للخالق ، ووشنو هو القيوم ، وشيو هو المميت . ونجمت عن ذلك ثلاث نحل : نحلة يعبد أتباعها برهما ، ونحلة إلهها وشنو ، ونحلة معبودها شيو . وقد انفصل بعض هذه الفرق عن بعض . وهناك فرقة منهم تعبد فروج الرجل والمرأة لأنهم تمثلوا بها صفة الخلق وأرادوا أن يمثلوها بجسم كما فعلوا فى الصفات الأخرى فهداهم سوء بصيرتهم إلى أن فروج الرجال والنساء من أكبر الأسباب للخلق فى هذا الكون فاتخذوا لها صوراً وأوثانا وجعلوا يسجدون لها ويتقربون إليها .

وفى النصرانية صفات إلهية ثلاث : الحياة ، والعلم ، والارادة ، تمثلوها ذواتا سموها الأقانيم الثلاثة : فالأب رمز للحياة ، وروح القدس رمز للعلم ، والابن رمز للإرادة .

ونجد مثل ذلك فى عالم الأصنام عند قدماء المصريين والأغريق والروم . وإن محمداً ﷺ بعث بتفنيد آراء الأمم فى صفات الله فاظهر خطأ تلك المذاهب وفسادها ، وبين أن الله واحد ، وأن صفاته الكثيرة ليست أشخاصا منفصلة عنه ، وأن من جعل الله الواحد اثنين أو أكثر مغترا بتعدد أسمائه الحسنى وصفاته العليا فقد ضلّ وغوى وحاد عن سواء السبيل . فالقرآن أعلمنا بأن الله ﴿ رب العـــالمين ﴾ وأن ﴿ له المثل الأعلى ﴾ وأنه ﴿ نور السماوات والأرض ﴾ .وكان نصارى العرب يدعون الخالق بالرحمن لاتصافه بالرحمة ، أما عامة المشركين فكانوا يدعونه «الله» ونزل القرآن تصديقا لهما ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وفى سورة الشورى ﴿ فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾ وفيها أيضاً ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ وفى سورة الزخرف ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ﴾ وفى سورة الدخان ﴿ إنه هو السميع

العليم . رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أما برهما بمعنى الخالق ، ووشنو بمعنى القيوم ،وشيو بمعنى المميت فمدلول الثلاثة كلها واحد هو الله الخالق القيوم المميت ، والموصوف لايتعدد مهما كثرت صفاته ﴿ فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين . وله الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (الجاثية ٣٦ — ٣٧) . ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (الحشر ٢٢ - ٢٤) .

فالله واحد وإن كثرت أسماؤه وتعددت صفاته ، وهذه الكثرة ليست فى ذاته بل فى صفاته ، وإنما علمنا ذاته الواحدة الموصوفة بالصفات الكثيرة بسبب رسالة محمد ﷺ . أما الأديان الأخرى فقد جعل أتباعها الله الواحد آلهة متعددة بتعدد صفاته ، فسبحان الله عما يشركون . وقد بين الاسلام وأحسن البيان بأن القدوس والخالق والملك والمؤمن والجبار والعزيز والمصور والرحمن والرحيم هو الله ليس غير .

والمنشأ الثالث للشرك كثرة أفعال الله وتنوع شئونه . وحين رأوا أن الله تصدر عنه ضروب من الأعمال حسبوا أنها تصدر عن مصادر متعددة وأن لها فاعلين كثيرين ، فحملهم فساد رأيهم على أن جعلوا لكل عمل عاملا مستقلا ، فاعتقدوا أن الذى يحي غير الذى يميت ، ومن يحب العباد غير الذى يبغضهم ، فاتخذوا إلها للعلم ، وإلها للثروة والرزق ، فتعدد الواحد بذلك وصارت الآلهة بعدد الأفعال . أما الاسلام فقد أخبر بأن الأفعال وإن كانت كثيرة فان الفعال هو الله الواحد العزيز المتعال .

إن جميع مافى الدنيا من الأعمال ينقسم إلى قسمين : الخير ، والشر . وقد عجب الذين زاغت بصائرهم كيف أن الواحد يفعل فعلين متضادين ، فذهبوا

إلى أن من يصدر عنه الخير لا يأتى منه ضده ، فعبد أتباع زردشت الهين اثنين أحدهما للخير والآخر للشر ، وسموا مسدى الخير (يزدان) ومصدر الشر (أهرمن) وتصوروا أن هذا العالم ساحة حرب يعترك فيها هـذان القرنان المتصارعان . وما حملهم على هـذا الفساد فى العقيدة إلا خطأهم فى فهم الخير والشر .

والحق أنه ليس فى الدنيا شىء يصح أن يطلق عليه اسم الشر . فالنار لا شك أنها تحرق ، ولكن الاحراق فى نفسه لا يعد خيراً ولا يسمى شرا ، فان أوقدتها لتنضج عليها غذاءك أو لتقتبس منها قبسا تصطلى به من البرد فان عملك هذا هو الذى يعد إحسانا ويطلق عليه اسم الخير . وإذا أضرمت النار لتحرق مأوى يأوى إليه فقير بائس لم يرتكب ذنبا فان عملك هذا هو الذى يعد سيئة وشرا ، بينما النار نفسها ليست بنفسها خيراً محضا لا شر فيه أو شراً محضا لا خير فيه ، وأنت الذى جعلتها بعملك خيراً أو شرا . والسيف القاطع لا يعد خيرا ولا شرا ، بل أنت الذى تتخذ منه ذريعة للخير أو للشر . والظلام لا يعد شرا لكنك إن تسترت به فى جوف الليل لترتكب فيه السوء فالشر هو عملك لا الظلام . وإن تواريت فيه لتعمل صالحاً أو أويت فيه إلى الراحة والدعة فهو خير .

وقد خلق الله الأرض والسماء وجعل بينهما أشياء : الريح والسحاب والماء والنار والطين ، وخلق منهن أشياء وخص كل شىء بخصيصة ، وبث فيه قوة تناسبه ، ثم خلق الانسان ووهبه الحكمة البالغة والبصيرة النافذة والآراء السديدة ، فنظر هذا المخلوق فى الكون وتأمل حسن تقويمه وعجيب تنسيقه وبديع نظامه ، فملكه الإعجاب به وملأ نفسه الاستغراب منه ، فلم يتمالك أن انطلق لسانه قائلا ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ثم نادى فى خشوع وخضوع لرب العالمين ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ كما فعل إبراهيم خليل الله . وبجانب هذه الطائفة

من البشر طوائف أخرى لم يكن لهم من بليغ الحكمة وسداد الرأى وثاقب الفكر ما ينقذهم من جحود الله والكفر به ، فالتبست عليهم حقائق العالم ، واشتبهت لهم خواص الأشياء والقوى المودعة فيها ، فجعلوا المادة علة العالم وسبب خلقه وقالوا ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾

إن العالم لا يُضل ولا يُغوى، ولا يرشد ولا يهدى ، ولكن الإنسان هو الذى يهتدى بسليم فطرته وسديد رأيه وسلامة قلبه، أو يضل بسوء تفكيره وخطل رأيه وقبح تأمله . وان شئت قلت : إن العالم يهدى من يهتدى به ويضل من يضل به . وما أنزل الله من كتبه ـ التوراة والانجيل والقرآن ـ يهدى الذين يحسنون تدبره وتلاوته فتطمئن قلوبهم إلى مافيه من حق ويؤمنون به، وآخرون يتلون ما أنزل الله من حق فيزدادون ريبا به ولا تسكن نفوسهم إليه فيجحدون ويكفرون ، مع أن الكلام واحد ، إلا أن تأثيره فى القلوب مختلف : فيخرج هذا منه مؤمنا به ، ويخرج ذاك منه كافرا به ، وكلاهما من خلق الله الواحد . والذى يستنتج من كثرة الأفعال وتعددها واختلافها كثرة الفاعلين فقد أخطأ ، وإن بيد الله تعالى الخير والشر والهداية والضلال ، وكل ما ترى فى الكون وفى الناس من ضروب العجائب وأنواع الغرائب فهى من بديع السماوات والأرض وجميل صنعته وعظيم قدرته، فهو الذى لا إله الاهو وحده لا شريك له ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ (البقرة ٢٦ - ٢٧) .
﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

فهذه الآيات تدل على أن الضلال والهدى يرجعان اليه عز وجل ، لكن الانسان هو الذى يختار بادىء ذى بدء ما يفضى به إلى الضلال أو الهدى ، فمن فسق عن أمر ربه أو قطع الرحم وأفسد فى الأرض وكفر جاءه من الله

الضلال ، والضلال لا يتقدم الفسق والقطيعة والافساد فى الأرض بل هو يعقب هذه الخلال ويتلوها .

إن الله عز وجل خلق بنى آدم ودلهم على الخير والشر وبصرهم بالحسن والسيء ، ثم أمرهم بالخير ونهاهم عن الشر وهداهم الطريق المستقيم ، وحذرهم سوء العقبى إذا عصوه ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ وهو الذى قد خلق كل شيء خيره وشره ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ (سورة غافر) . ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (الصافات) ثم بين لهم الخير من الشر والحسن من السيء ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾

ومما تقدم تعلمون أنه لا يوجد فى الدنيا خير لذاته ولا شر لذاته ، وإنما يكون الأمر خيرا أو شرا باختيار الانسان وبعمله ، فاذا سلك الصراط المستقيم كان بذلك راشدا واهتدى ، وإذا سدر فى الفساد والغى وآثر بنيات الطريق على الطريق المستقيم ضل وغوى . وإذا صح اختياره لما ينفع ويسعد أصاب الخير وأتى بالحسن ، وإذا ارتكب الشطط فى اختيار ما يضر أصاب الشر وكان من المخطئين . والذى يظن أن للكون إلهين اثنين لأن فى الكون خيرا وفيه شرا فقد زاغت بصيرته وأخطأ الحقيقة ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ والله وحده خالق كل شيء ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ (فاطر ٣) . والله قد بلغ رسالاته وأحكامه بألسنة أنبيائه ومرسليه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ (فاطر ٣٢) ، ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (الشورى ٣٠) ، ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (الشمس) .

ما من دين خلا من العبادة لله ، لكن الأديان القديمة حسب أتباعها أن الدين يطالبهم بإيذاء أجسامهم وتعذيبها ، وأن الغرض من العبادة إدخال الألم

على الجوارح ؛ وأن الجسم إذا ازدادت آلامه كان فى ذلك طهـــارة للروح ونزاهة للنفس .

وعن هذه العقيدة نشأ التبتل عند الهنادك والرهبانية عند النصارى ، وابتدعوا من رياضات الجسم أنواعا عجيبة أشدها على الجسم أفضلها عندهم وأقربها إلى الله فى زعمهم : فمنهم من آلى على نفسه ألا يغتسل طول حياته ، ومنهم من لا يلبس إلا المسوح والثياب الخشنة ، وبعضهم آلى على نفسه أن يعيش عريان إلا من خرقة يستتر بها ماضيا على ذلك مهما أثرت فيه حرارة القيظ أو زمهرير الشتاء ، ومنهم من لزم كهفا فلا يبرحه أبدا ، وبعضهم اختار لنفسه أن يبقى واقفا فى حر الشمس طول حياته ، ومنهم من يحلف ألا يقتات إلا بورق الشجر ، ومنهم من بقى صرورة حصورا لا يتزوج ، ومنهم من يعد من العبادة والقربة إلى الله منع التناسل ، وفيهم من يرفع إحدى يديه فى الهواء ويبقى كذلك طول عمره حتى تيبس يده وتجف ، وكان بعضهم يحبس نفسه ما استطاع وهو يحسب أن ذلك من العبـــادة ، ولا يزال فى الهند من يتعلق بشجرة منكسا رأسه إلى تحت . وهذا كله وأمثاله مما كان عليه أتباع الأديان قبل مبعث محمد رسول الله ﷺ ظانين أن أعمالهم هذه من أقرب الوسائل إلى الله ومن أفضل ما تزكى به النفوس وتطهر به الأرواح ، فأنقذ الله عز وجل الانسانية من هذا العذاب الأليم والأذى الشديد بالرسالة المحمدية الكاملة ، وأرشدهم إلى أن ما يحسبونه عبادة من هذا السخف والشر إنما هو من الملاهى التى يتعلل بها من زاغ بصره والتوى عليه الرأى فظن فى الله غير الحق ، وقد أعلنت الرسالة المحمدية للناس هذه الحقيقة : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، بل ينظر إلى القلوب التى فى الصدور » ، وما يفعل الله بتعذيبكم لأجسادكم وجوارحكم ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ وجعل الرهبانية بدعة من عند النـــاس لا من عند الله ﴿ ورهبانية ابتـدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ (الحديد ٢٧) . وفى الحديث النبوى « لا صرورة فى الاسلام » ، وأنكر على

الذين حرَّموا على أنفسهم طيبات الدنيا فقال عز وجل ﴿ قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (الأعراف ٣٢) ، وقد أنكر الله على رسوله حين حرم على نفسه العسل فقال ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ (التحريم) ، والرسالة المحمدية علمت الناس لأول مرة أن حكمة العبادة إقرار العبد لربه بأنه عبده ومطيع لأوامره ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (غافر ٦٠) . فالدين الاسلامى يعلم المسلمين خاصة وغيرهم عامة أن الله يريد منهم أن يؤمنوا به ولا يشركوا به شيئا ، وأن يطيعوا أوامره ولا يستكبروا عليه ، فلا جرم أن تظهر طاعتهم له فى صور وأساليب متعددة من العبادة . وغاية العبادة فى الاسلام اعتياد التقوى والتمرن عليها ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . وثمرة الصلاة فى الاسلام الكفُّ عن الفحشاء والمنكر ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ . أما الصوم فمن الوسائل إلى نيل التقوى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (البقرة ١٨٣) . وأما الحج فمن حكمته أنه ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . والزكاة تزكى القلوب وتنزع منها رذيلة البخل وتسد حاجات الفقراء وتقضى ضرورات البائسين لأنها تؤخذ من أغنياء الأمة وترد على فقرائها . قال الله عز وجل ﴿ الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ . ومن الدين عند المسلمين النكاح والزواج وقد قال لهم نبيهم « النكاح من سنتى ومن يرغب عن سنتى فليس منى » وعدّ القرآن الحكيم أولاد الانسان وأزواجه قرّة أعين له ، وأرشدهم إلى أن يسألوا الله ذلك ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ .

وكان قتل المرء نفسه مما يتقرب به الأقدمون إلى الآلهة ، فكانوا ينذرون

لآلهتهم قرابين بشرية تذبح كالأضاحى استرضاء للآلهة ، فاذا سفكت دماء البشر لهـذا الغرض نثرت دماؤهم على الأوثان ، وربما أحرقت لحوم الأضاحى وجمرت بها الأصنام وبخرت بدخانها ، ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الأضاحى . أما الاسلام فقد بين رسوله الكريم الغرض من الأضاحى وحرم ذبح الانسان وتقديمه قربانا وأحل تضحية البهائم إلا أنه نهى أن يرش دم الأضاحى أو تحرق لحومها . وقد ذكر الله عز وجل مافى التضحية من منافع للعباد بقوله ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرناها لكم ، ولتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ . أما العقيدة الفاسدة فى التضحية فقد حملت الناس على أن يحسبوا أنهم يملكون حياتهم وموتهم ويملكون أولادهم على حياتهم ، وزعموا أنهم يملكون أزواجهم ، حياتهن وموتهن . وهذه العقيدة الفاسدة قد جرت شرا عظيما وفسادا كبيرا فى الحياة الاجتماعية ، فأباحوا لأنفسهم الانتحار وقتل الأولاد ووأد البنات وذبح الأبناء على النصب والأوثان ، وانتحار الحلائل أو إحراقهن أنفسهن بعد موت أزواجهن ، وغير ذلك من المفاسد التى محاها الاسلام واجتثها من أصولها ، منذ أذن فى الناس أن النفوس لله هو الذى يملكها ولا يملكها أحد غيره ، ولا تقتل نفس إلا بحق الله . لذلك لا يحل فى الاسلام أكل لحم ذبيحة لم يذكر اسم الله عند ذبحها . والذى ينتحر فان الجنة محرمة عليه . أما فى أوربا المتحضرة وأمريكا المتمدنة فان الانتحار لا يزال أفضل وسائل النجاة من مضايق الحياة وآلامها ، والدول تحاول عبثا أن تأخذ على أيدى المنتحرين فتذهب مساعى الحكام والولاة أدراج الرياح ، لأن الناس يزعمون أنهم يملكون أنفسهم فلهم أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ، والانتحار عندهم أفضل وسائل النجاة من آلام الدنيا ، ولا يرون أن بعد هذه

الحياة حياة يؤاخذون فيها على الانتحار . وحتى لو أيقنوا أنهم يبعثون بعد مماتهم وينشرون تارة أخرى، فانهم يستبعدون أن يحاسبوا على انتحارهم وقتلهم أنفسهم . أما الاسلام فقد شدد فى أمر الانتحار وعدّه جريمة عظيمة وحذّر عاقبته وعلمهم أن هذه الوسيلة الذميمة لا يركن إليها فى الخلاص من آلام الحياة وشدائدها ، وأن من انتحر فقد أقدم على ماليس له به من حق ، لأن الحياة والموت من أمر الله، ومن تجاوز أمر الله استحق سخطه وغضبه وسيحل به عذاب الله فى الحياة الأخرى وهو أشد وأبقى من آلام الدنيا التى أراد المنتحر أن يخلص منها ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ﴾ ، ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما ، ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ﴾ .

كان قتل البنات ووأدهن فاشيا بين العرب ، وبين الراجبوت من أهل الهند، وفى كثير من الممالك . فلما ظهر الاسلام أنكر ذلك ومحاه ﴿ وإذا الموءودة سُئلت : بأى ذنب قتلت ﴾ . وقتل الأولاد لم يكن جريمة عند العرب ، ولا يزال هذا المنكر باقيا فى الأمم المتمدنة : يدفعهم إلى ذلك خشية الاملاق وضيق النفقة ، وربما يبرّرون ذلك بأن غلال البلاد وحاصلاتها لا تسد حاجات العمران البشرى فيقتلون أولادهم دفعا للأزمات الاقتصادية عن البلاد . والعرب وغيرهم لم يكونوا يرون تبعة على من أجهضت حملها وقتلت ولدها . وكان الأغريق يتتبعون كل مولود يولد فى بلادهم فيقتلون منهم الضعفاء ، والمخدجين وناقصى الخلق . وقد يقذفونهم من قلل الجبال ، ويستحيون منهم الأقوياء وتامى الخلق . وتحديد النسل Birth Control بجميع طرقه المعروفة فى هذه الأيام ليس إلا ضربا من ضروب قتل الأولاد ووأد البنات ، وقد نادى الاسلام فى الناس أنه مامن أحد يرزق أحدا وإنما الرزاق هو الله المتكفل بحاجات خلقه ، قال تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ،

إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) .

ومن أكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ولا تزال باقية فى بلاد لم تبلغها دعوة الاسلام ولم تشرق أنواره فى أرضها ، أنهم جعلوا ثراء المـال ونقاء الدم وشرف النسب وكرم المحتد ولون البشرة أساس الكرامة ورأس مايتفاضلون به ويتفاخرون . وقد جعلوا لثراء المال ونقاء الدم وبياض اللون أصولا يرجعون إليها فى هذا التفاضل بين أفراد الأمة وبين الطوائف من الأمم ، وسنوا لذلك من القوانين والآداب فى المعاشرة والمجتمع ما يلائم أهواءهم ومذاهبهم فى النسب . أما الهند فقد عدّ الهنادك من أهلها كل من خرج عنهم من الأمم والناس أنجاساً مناكيد ، فان لمسهم لامس من غيرهم أو صافحهم أو مس أجسامهم رأوا أنهم قد تنجسوا ووجب عليهم أن يغتسلوا لأن من سواهم رجس يجب أن يتطهروا منه . وقسم الهنادك أنفسهم أقساماً ووزعوا بين هـذه الأقسام حظوظاً متفاوتة من الشرف فرفعوا بعضهم على بعض درجات لا فى الفضائل والأخلاق بل فى أمور المعيشة وشئون الحياة وأحـكام الحكومة . فالشودر (وهم الطبقة السفلى منهم) يعـدون أنجاساً وعبيداً وخداما ،وهم أصحاب المهن الحقيرة ، ويرون أنهم لاحظ لهم من الدين أيضا . وكذلك قدماء الفرس تفرقوا إلى أربع طوائف . وهكذا فعل أهل أوربا فخصوا أنفسهم بأمر الحكومة والسلطان على الأمم ولم يتركوا لمن سواهم إلا أن يستعبدوا ويخضعوا لحكمهم . وبنو إسرائيل عدوا أنفسهم أبناء الله (تعالى الله عما يقولون) ومن سواهم من الأمم أذلة صاغرين . ثم فرقوا بين بنى إسرائيل أنفسهم فانزلوا طوائفهم منازل مختلفة وجعلوا بعضهم فوق بعض . وهذه أوربا الراقية التى تدعى دعاوى عريضة فى الإخاء والمساواة والمدنية ، ألسنا نرى أن الرجل الأبيض قد أثقل كاهله بأعباء الحكم فى العالم ويرى أن غير الأوربى لا يستأهل السيادة والحكم ، فالأبيض المثقف هو الذى اختص بالحضارة والاستعلاء ، أما السود (وكل من عداهم يعدونه من

السود) فانهم لا يعدلونهم ولا يساوونهم، بل إن بعض البيض يربأون بأنفسهم ان يركبوا فى اسفارهم مع الاسيوى فى عربة واحدة من القطار ، وترفعوا عن مجالسته ومساكنته ، وقد عزلوا الجنس الأسود Negro فى افريقية الجنوبية وامريكا المتحضرة فبنوا لهم احياء منعزلة عن البيض لأنهم لاحق لهم بأن يجاوروا البيض . فالأمريكيون الذين يدعون العدالة التامة والإخاء العظيم يعاملون السود من سكان امريكا نفسها أسوأ معاملة ويضيقون عليهم حياتهم كأنهم ليسوا من البشر او من خلق الله . وفى جنوبى افريقية وشرقيها ليس للسود ولا للهنود ولا للأسيويين عامة من الحقوق المدنية والانسانية مثل ما للأنسان فى بلاد اخرى . ولم يقصروا جورهم هذا على الأمور الدنيوية ، بل إنهم عـدوا طورهم وجاوزوا الحق إلى الأمور الدينية فبنوا الكنائس للبيض خاصة وجعـلوها بمعزل عن السود فلا يأذنون للسود بدخول تلك الكنائس . وإن الأبيض يشمخ بأنفه ويربأ بنفسه ان يدخل كنيسة يغشاها السود او الأسيويون والأفريقيون ، فليس للأسود ان يركع لله مع الغربى الأبيض ابدا .

اما الاسلام فقد محا هذه الفوارق والعصبيات الذميمة كلها ، وانكر أن يكون التفاضل باللون والدم والنسب [١] وسوّى بين بنى آدم كلهم ، وهدم كل ماكان يحول بين المرء واخيه من ثراء المال ونقاء الدم ولون البشرة والجاه العريض والنسب الأصيل والمجد الأثيل . وكانت قريش تعتز بآبائها وتباهى بأنسابها ، فخاطبهم النبى ﷺ يوم وقف فيهم خطيبا فى فناء المسجد الحرام يوم فتح مكة فقال لهم : « يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب » (ابن هشام) . ثم اعلن الرسول ﷺ فى جمع عظيم وحفل حافل يوم حجة الوداع ان لا افضل

---

(١) نذكر القاريء بأن الأستاذ المؤلف سيد شريف من الذرية المحمدية الناشر

لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى . كلكم أبناء آدم وآدم من تراب . فملاك الشرف والمجد التقوى ، والعمل هو الذى يرفع صاحبه او يضعه . وإن الله قد اذهب عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، فالمرء إما مؤمن تقى او فاجر شقى (وخطبة الوداع فى جامع الترمذى وسنن ابى داود) وقد خاطب الرسول فيها عامة الناس بلسان الوحى : ﴿ يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال سبحانه ﴿ وما اموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ ثم آخى بين المسلمين وجعلهم إخوة فقال عز من قائل ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وقد نادى الرسول يوم حجة الوداع فى جمع من المسلمين عظيم يبلغ عددهم مائة الف او يزيدون : « المسلم اخو المسلم » . فهذه المساواة والمؤاخاة قد محتا الفوارق بين الهندى والأفغانى والصينى والتركى والايرانى والأندونوسى والعربى ، وبين الشرقى والغربى ، بل ذهبتا بكل ما يفرق بين الأسود والأبيض من فوارق الجنسية واللون والدم ، واعلن الله إحسانه إليهم بقوله ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ .

إن ابواب بيوت الله مفتوحة فى الاسلام لكل مسلم بلا تفريق بينهم فى المهن والأجناس والمراتب الاجتماعية ، لأنهم لا يتفاضلون بالثراء ولا يتفاوتون فى الآباء واختلاف المحتد . وليس فى الاسلام نظام طبقات كما بين البراهمة والشودر (المنبوذين) . فلكل مسلم ان يتلو كتاب الله ، وان يؤم الناس فى الصلاة ، من اى بيت كان ومن اى قوم كان . والتزاوج مطلق بين طوائف المسلمين واجناسهم ، وباب العلم مفتوح لكل داخل ، بل هو نهب مقسم بين الجميع ، والناس سواء فى الحقوق ، وفى احكام القصاص : الدم بالدم ، والنفس بالنفس .

إخوانى الأعزاء . كان بودى أن أذكر عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كل

ما أحسنت به الى الانسانية ، وأن أعدد أفضالها ونعمها على جميع طبقات البشر ، ولكن وقتنا لم يسمح بذلك ، ومثل هذا الموضوع العظيم يحتاج إلى وقت اطول وأوسع من الوقت الذى تحدثت إليكم فيه . وبما كنت أحب أن أبسطه لكم فضل الرسالة المحمدية على الرقيق والمستعبدين فى الأرض من بنى البشر ، والحقوق الممنوحة لهم فى الاسلام ، والمستوى الذى رفعهم الاسلام إليه لأول مرة .

وكنت أحب أن ألم بما للرسالة المحمدية من جميـــل نحو النساء ، وما حفظت من حقوقهن وما رعت من كرامتهن .

كان بودى أن أفصل لكم جميع هذا وكثيراً غيره تفصيلا تتبينون منه أن أوربا التى تدعى التقدم الفكرى لا تزال وراء الاسلام بمسافات طويلة ، ولن تضارعه فيما قدم للانسانية من رعاية وما أسدى اليها من حقوق .

إن من أعظم الجرائم التى عم بها الضلال وطم ، الدعوة إلى التفريق بين الدين والدنيا ، حتى صار يقال : هذا من حكم السلطان ، وهذا من حكم الرحمن . وحتى صاروا يميزون بين ما يكسبون به الدنيا ، وما يكسبون به الدين . وقد أفردوا لكل واحد منهما طريقا غير طريق الآخر . والرسالة المحمدية هى التى كشفت الستار عن وجه الحقيقة فى ذلك فأعلنت فى أرجاء الدنيا ما بين أمور الدين وأمور الدنيا من التلازم ، وأن أعمال الدنيا التى يراد بها وجه الله والفوز فى الآجلة انما هى من صميم الدين ، ومن الدين أن يقوم الناس بأمور الدنيا - من تجارة ، وزراعة ، وصناعة ، وحرفة ، وخدمة - بالطريقة السليمة التى هدى إليها الدين وأرشدت إليها تعاليمه . ومن أعظم الخطأ أن يحسب الناس أن الدين منحصر فى العبادة من صلاة وصوم ، وفى الفرار من الناس واعتزالهم فى مغارة أو جبل للعبادة ، بزعم أن اشتغال المرء بأمور نفسه وشئون أولاده وعياله والمشاركة فى مصالح أمته وبلاده وأحبابه وخلانه هو من أمور الدنيا لا من أمور الدين . كلا ، بل إن هذه العقيدة قد أعلن رسول الاسلام ﷺ

فسادها وأبدى عوارها بدعوته وبلاغه من جهة، وبحياته المثلى من جهة أخرى.
وقد بين بقوله وعمله أن أمور الدنيا التى تؤدى بالطريق الذى هدى إليه الدين تعد من الدين ويثيب الله عليها كما يثيب على العبادات وغيرها مما هو من صميم الدين.

ألا إن ملاك النجاة للانسان فى الاسلام الايمان والعمل الصالح. أما الايمان فهو الايقان بالله وحده، والايقان بأن رسله إنما بعثوا لهداية البشر ودلالتهم على طريق الله، والايقان بالملائكة الذين هم رسل الله بينه وبين من أرسل اليهم من البشر، وبالكتب التى أنزلت على الرسل وفيها أحكام الله من الأوامر والنواهى، والإيقان بأن الله يحاسب الانسان على أعماله ويجزيه خيراً عما يعمله من خير أو شراً عما يصدر عنه من شر. فهذه الخمسة هى أساس الايمان وملاكه، والايمان أساس العمل، ومن لا إيمان له لا ينتظر منه الاخلاص فيما يصدر عنه من عمل.

والمراد بالعمل أن تكون تصرفات الانسان صالحة. والأعمال ثلاثة ضروب كما ذكرت فى المحاضرة السابقة من هذا الكتاب [١] : الضرب الأول (العبادات)، وهى عبارة عن تعظيم الانسان لإلهه الذى خلقه، وعن خشوعه له وخضوعه لأوامره وإظهار افتقاره له. الضرب الثانى (المعاملات) وهى ما يتعاطاه الناس فيما بينهم لتبادل مصالحهم واستعمال مرافقهم، ومنها أحكام الدولة وقوانينها التى يراعيها الانسان ويتقيد بها ليسود الأمن ويعم السلام فى البلاد. فلا يقع فيها الفساد والفوضى التى تنتهى إلى الهرج والمرج والهلاك والدمار. والضرب الثالث (الأخلاق) وهى القيود التى توجب الآداب التقيد بها وإن لم تفرض على الناس بالتشريع وأحكامه القانونية، وباتباعها تطهر القلوب وتزكو النفوس ويرتفع مستوى المجتمع البشرى ويتقدم فى

---

(١) ص ١٤٥

إنسانيته . وهذه الأربعة - الايمان ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق - هى التى تهيء للمجتمع أسباب النجاة .

سادتى وإخوانى . سامحونى إذا قلت لكم أن التبتل فى الدنيا والعزلة عن المجتمع وحب الخلوة عن الناس ولو لذكر الله ليست مما يحتمه الاسلام ويدعو إليه . والاسلام نشاط دائم وجهاد طويل ، لذلك تراه يحث المسلمين على أن يكونوا دائما فى عمل وسعى ونشاط ، وذلك ينافى السكون الدائم والانصراف عن الحركة والعمل ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ ، ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ فالعزلة عن الناس ليست من الاسلام ، بل من الاسلام الاقدام فى معترك الحياة واقتحام حلبة الحركة والزحام لنشر دعوة الحق والخير وإصلاح البشر . وبين أيديكم التأسى برسول الله ﷺ وما كان عليه أصحابه ، فاذا عملتم كما عملوا وجاهدتم كما جاهدوا وثابرتم على إقامة الحق كما ثابروا كنتم مسلمين حقا كما كانوا وكتب الله لكم مثل الذى كتب لهم من الفلاح فى الدنيا والنجاة فى الآخرة .

إن محمداً ﷺ لم يدع إلى مثل ما دعا إليه (بوذا) من هجر الدنيا ومعارضة الفطرة بقمع الشهوات ومحاولة انتزاعها من النفوس ، بل دعا إلى تعديلها وتسكين ثورتها والحد من شططها والاسراف فيها .

ولم يدع إلى مثل ما يقال عن دعوة المسيح من احتقار الثروة والقوة ، بل دعا إلى تحرى الطرق الصالحة فى الحصول عليهما وفى حسن استعمالها .

إنما الاسلام إيمان بالحق وعمل به ، ولذلك تفاصيل وفروع ومساع متنوعة وجهاد عظيم وكفاح متواصل . فترك العمل عكس ما جاء به الاسلام ، والدين الذى يأمر بالفرائض لا يعقل أن يرضى بالإعراض عنها . وإن شئتم تفصيل ذلك فاقرأوا سيرة الرسول وادرسوا تراجم أصحابه . أليس الله عز وجل قد وصف نبيه ﷺ وأصحابه بقوله ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾

كان فى جهاد عظيم وكفاح مستمر ، وما برح طول حياته الشريفة مختلطا بالناس متحدثا إلى أصحابه يجالسهم ويساكنهم ويواكلهم ويشاربهم ويلقاهم بوجه طلق وقلب نقى سليم متعلق بالله وبما يرضى به الله ، وقد تراه راكعا ساجدا لله ، كما قد تراه عاملا ساعيا يبتغى الفضل من الله ويكسب رزقه بعمله مع تعلق قلبه بربه لا يلهيه عن ذلك شىء ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ فهو إذا ذكر الله لا يحمله ذلك على ترك الدنيا والعمل فيها وهجر أهله وعيـــاله ، وإذا قام بعمل الدنيا لا ينقطع مع ذلك عن ذكر الله بقلبه وتحرى مرضاته فى كل ما يعمله .

ألم يأتـكم نبأ المسلمين وهم يقاتلون الروم فى بلاد الشام ؟ إن العدو أرسل عيونا يتجسسون له أحوال المسلمين فى معسكرهم ، ولما عادوا إلى قائدهم قالوا : لقد رأينا عجبا ، انهم بالليل رهبان ، وفى النهار فرسان .

إخوانى . اليوم آخر عهدى بكم فى هذه المحاضرات . وكنت أحسبنى قادراً على أن أصف لـكم رسول الاســلام ورسالته وصفا كاملا ، وأنى سأوفيهما حقهما مبينا سيرة الرسول الطاهرة ومناحيها المختلفة فى هذه المحاضرات الثمان . وها هى ذى المحاضرة الثامنة قد انتهت وفرغت الآن من إلقائها ، ولـكن الرسالة المحمدية قد بقيت منها نواح لم أوفها حقها من البيان .

اللهم صل على محمد وآله وصحبه وسلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس

صفحة	
٣	مقدمة النشر — بقلم محب الدين الخطيب
٦	مقدمة المصنف
٧	**المحاضرة الأولى** : فى أن سيرة الأنبياء هى الاسوة الحسنة للبشر
٨	خصائص النبات أكثر من خصائص الجماد فواجباته أكثر، وخصائص الحيوان أكثر من خصائص النبات فواجباته أكثر ، ومدارك الانسان أرقى فواجباته أعظم
١٠	مسئولية الانسان بقدر مواهبه
١٢	حكمة إرسال الله الرسل للبشر
١٣	الفرق بين دعوة الرسل ودعاوى غيرهم
١٩	خلود دعوة الرسل واضمحلال دعاوى غيرهم
٢٠	ما من طائفة من الناس أصلحت فساد المجتمع إلا الأنبياء
٢٤	إن الهداية والدعوة لا تثمر وتبقى إلا بالقدوة والاسوة
٢٦	**المحاضرة الثانية** : فى أن السيرة المحمدية هى العامة الخالدة
٢٧	امتياز محمد ﷺ بأنه كان شاهدا ومبشرا ونذيرا
٢٨	السيرة المحمدية هى السيرة « التاريخية »
٢٩	سيرة متبوعى الهنادك ليست تاريخية
٣٠	سيرة زردشت وبوذا ليست تاريخية
٣١	الذى نعلمه عن كونفوشيوس أقل من الذى نعلمه عن بوذا
٣١	شكوك العلماء المحققين فى كثير من سير أنبياء بنى إسرائيل
٣٢	الكلام على الأناجيل من ناحية التاريخ

صفحة

٣٣ ليس فى أصحاب الدعوات من يمكن التأسى به إلا محمد ﷺ
٣٥ ما يمكن معرفته من أسفار التوراة عن موسى
٣٧ شئون حياة المسيح أخفى من غيره وأغمض
٣٨ يشترط الكمال والتمام والجمع فى سيرة من يقتدى به ، ولا يتوفر هذا إلا فى السيرة المحمدية ، وبيان البراهين على ذلك
٤٣ الحياة المثالية هى التى يبدأ صاحب دعوتها بنفسه فيعمل بما يدعو إليه
٤٤ الحسنات السلبية والحسنات الايجابية
٤٥ اشتراط أن تكون سيرة المتبوع : تاريخية ، وجامعة ، وكاملة ، وعملية
٤٧ **المحاضرة الثالثة** : السيرة المحمدية من الناحية التاريخية . وامتياز الاسلام بحفظ السيرة النبوية وتراجم الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين
٤٨ عناية الصحابة بحفظ الحديث النبوى وعناية التابعين بتراجم الصحابة
٤٩ الكلام على التابعين ، وأساتذتهم من الصحابة
٥١ المستشرقون وتشكيكهم فى رواية الحديث . والكلام على الحفظ والكتابة
٥٣ كتابة الحديث فى العهد النبوى
٥٩ التابعون الذين دونوا الحديث تبدأ ولادتهم من سنة ١١
٦٠ جمع الحديث له ثلاثة أطوار
٦٢ علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم
٦٣ ستة مصادر لسيرة النبى ﷺ وهديه
٦٥ كتب السيرة المحمدية تعد بالألوف
٦٦ مرجليوث أشد المستشرقين تحاملا على الاسلام
٦٧ اعترافات جون ديون پورت وريوند باسورث سميث
٦٨ السيرة النبوية أوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتب فى سيرة النبيين

صفحة

المحاضرة الرابعة : السيرة المحمدية من ناحية كمالها وتمامها وشمولها

٧٠ لا تكون حياة أحد كاملة إلا إذا كانت معلومة للناس، وحياة محمد ﷺ من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة التفاصيل بجميع دخائلها

٧٢ مثال من كتب الشمائل لتفاصيل ما يعرفه التاريخ عن محمد ﷺ من جليل ودقيق

٧٣ كلمتا كبن وباسورث سمث عما يعرفه التاريخ من دخائل محمد ﷺ

٧٤ تفاصيل أخرى مما يعرفه التاريخ عنه ﷺ

٧٥ ما استقصاه ابن القيم فى زاد المعاد من أحوال النبى الخاصة وشئونه اليومية

٧٧ إباحة النبى ﷺ لأصحابه أن يذكروا عنه كل ما يعرفونه بلا تحفظ

٧٩ كان الرسول ﷺ معروف الدخائل لأعدائه أيضا، فلم ينقلوا عنه إلا خيرا

٨٠ شهادة أبى سفيان قبل إسلامه للنبى ﷺ عند هرقل

٨٢ رجاحة عقول العرب تجعلهم لا ينخدعون فى أمر الرسول، فاتبعوه وهم على بينة

٨٣ لو كتم الرسول شيئا لكتم مافى القرآن من مؤاخذته

٨٥ كلمة هيجنس فى المقارنة بين محمد ﷺ والذى قبله

٨٧ سنن الأمم السالفة فى الأخلاق بادت ولم يبق إلا سنن الاسلام

٨٨ المسلمون لايحتاجون من خارج دينهم إلى أصول وضوابط لأن أصولهم كاملة

المحاضرة الخامسة : السيرة المحمدية من ناحيتها الجامعة

٩٠ الأديان الأخرى تتحرى أقوال أنبيائها والمسلمون يتحرون أعمال نبيهم

٩٣ حياة محمد ﷺ جمعت ما تفرق فى الأنبياء مما امتازوا به

٩٥ انتباه أحد البراهمة لهذه الناحية من الحياة المحمدية

صفحة

١٠٠ ما أعطى الله الرسل جميعا متفرقين قد أوتيه محمد ﷺ وحده
١٠١ مقارنات بين النبى ﷺ وإخوانه الأنبياء
١٠٥ مدرسة محمد ﷺ كانت جامعة للطوائف وعامة الأمم
١٠٦ استعراض نماذج من تلاميذ مدرسة محمد ﷺ
١١٣ إن العالم لا تتم هدايته إلا بالمصلح الأخير للدنيا

المحاضرة السادسة : الناحية العملية من السيرة المحمدية

١١٥ كيف نتبع الرسول ، وفيم نتبعه ؟
١١٦ مقارنة بين نتائج عظة جبل الزيتون ، ونتائج دعوة جبل الصفا
١١٨ ما شهد به لمحمد ﷺ أقرب الناس إليه وأعرفهم به
١١٩ كان ﷺ أول من يعمل بما يأمر الناس به
١٢٨ مقارنة بين عظة « أحبوا أعداءكم » ومعاملة النبى ﷺ لأعدائه
١٣٧ مقارنة بينه ﷺ وبين الأنبياء من آدم إلى عيسى

المحاضرة السابعة : رسالة رسول الاسلام إلى جميع الأنام

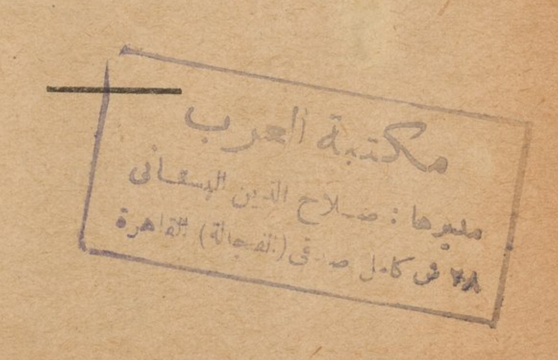
١٣٩ ماهى السيرة الكاملة الجامعة فى الرسول ، وماذا بلغ عن ربه ؟
١٤٠ كفالة الله حفظ الرسالة المحمدية لأنها رسالة الحاضر والمستقبل
١٤١ الاسلام أول رسالة عامة فى تاريخ الانسانية
١٤٣ الدين إيمان وعمل ، ولم يجتمعا إلا فى الاسلام
١٤٤ مقارنات بين رسالة الاسلام والرسالات الأخرى
١٤٦ مقارنة بين الوصايا العشر والآيات ٣٦ - ٣٩ من سورة الاسراء
١٤٩ عناية الشرع المحمدى بكرامة الجنس البشرى ومكانته من سائر المخلوقات
١٥١ الرسالة المحمدية عرفت الناس بأقدارهم وأنزلتهم منازلهم
١٥٢ الاسلام وحقيقة التوحيد
١٥٢ فطرة الانسان فى الاسلام بريئة فى الأصل ولم يولد آثما

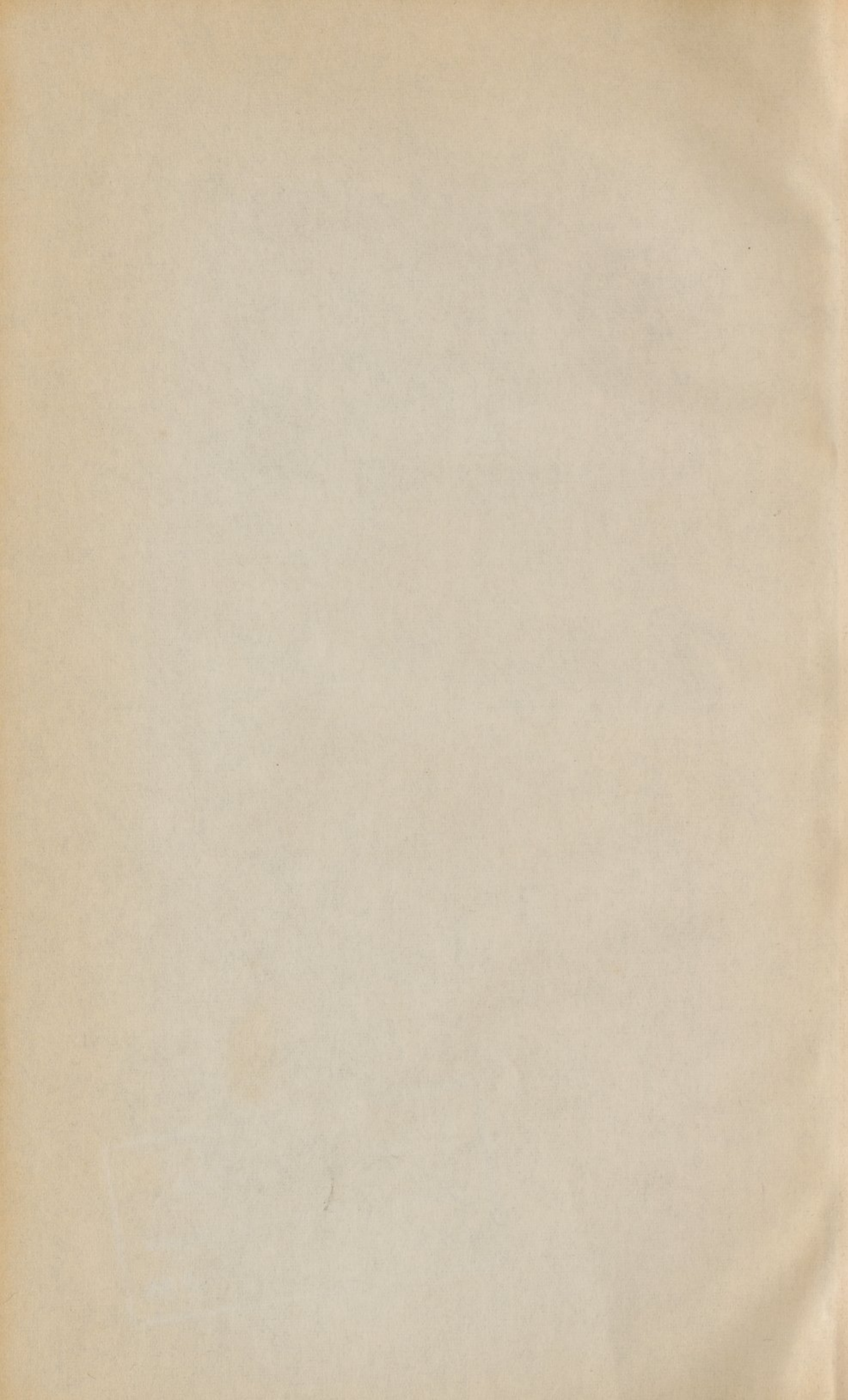
صفحة

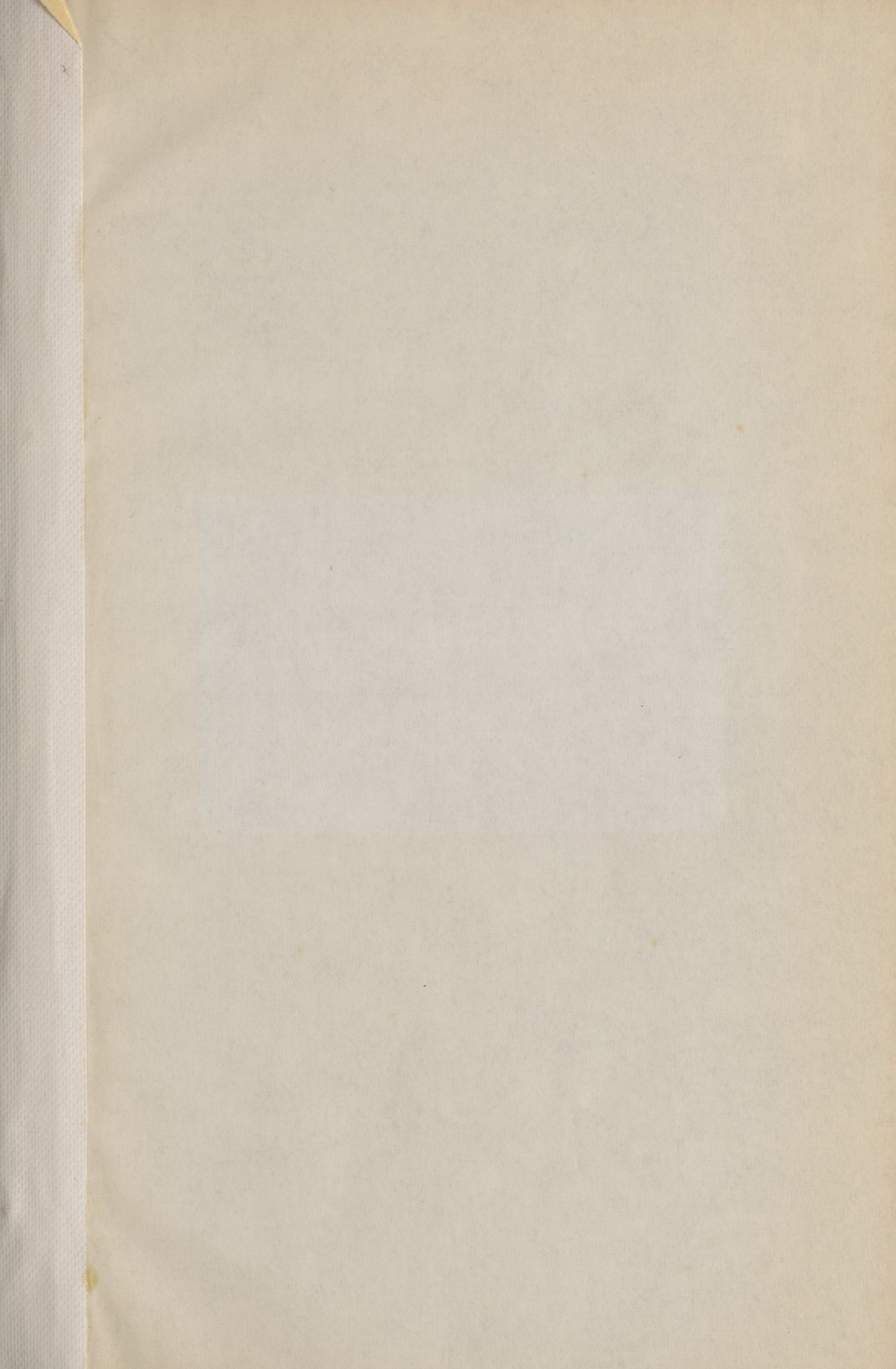
١٥٤ الدين والفطرة كلمتان لمدلول واحد
١٥٥ الناس سواسية فى الاسلام ، والدنيا كلها لله وحده
١٥٦ الاسلام سوّى بين جميع الأنبياء ودعا إلى الايمان بهم جميعا
١٥٧ دين الله بين الذين غلوا فى الأنبياء والذين فرطوا فيهم

المحاضرة الثامنة : السيرة المحمدية من الناحية العملية

١٦٠ فساد الأديان السابقة بسبب التشبيه وتجسيم الصفات الإلهية
١٦٣ فسادها بسبب فصل الصفات الالهية عن الذات
١٦٥ فسادها بسبب تعديدهم الفاعل بتعدد أفعاله
١٦٦ منشأ الخير والشر حسن استعمال الأمور أو سوء استعمالها
١٦٧ الهدى والضلال بما كسبت أيدى الناس
١٦٩ تعبد الضالين بتعذيبهم أنفسهم
١٧١ التضحية والأضاحى والقربان
١٧٢ النفوس ملك لله ، فليس للانسان أن ينتحر أو يحدد النسل
١٧٣ قضاء الاسلام على نظام الطبقات ، وعلى التفاضل بالمال والنسب واللون
١٧٦ من أعظم الجرائم فصل الدين عن الدنيا
١٧٧ الاسلام إيمان بالحق وعمل به







المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح بجزيرة الروضة * القاهرة

الثمن ١٥ قرشاً